هاني الراهب

رواية





المهزومون



دار الآداب

هَاني الرَاهِبْ

المَهزُومُونْ

رواية

دار الآداب - بيروت

الطبعة الثانية
١٩٨٨ م

الفصل الأول

١

القطار المقبل يملأ من الفضاء حيّزاً هائلاً ، وصفيره يتغلغل في الحيّز الباقي ، حتى لقد حسبته هاجماً عليّ يريد افتراسي . تنحّيت بسرعة متعبة عن قضيبي الحديد الرهيبين، ثم استيقظت .

ومرّ القطار ، واختفى وصفيره لا يزال متلبّساً في آذان الجوّ . نهضت من فراشي وأطلقت شتيمة ضخمة ، ثم تثاءبت واستندت الى الجدار .

كانت الساعة المعلّقة في البهو كقدر تعيس ، تدقّ برتابة مغيظة ، وشخير السماور يتعالى مختلطاً بصوت (ملك) من المطبخ .

ــ سوف تخلع رقبتي يوماً هذه الساعة .. ستّ الملوك ، لماذا

لا تضعين الساعة في غرفتك أنت والآغا ؟.

ولم تجب ملك ، فقد سمعت السؤال من قبل مراراً ، وكانت تبتسم كجواب أخير ؛ ثم تقدّم لي عصعصاً مسلوقاً .

خرجت الى الشرفة والتقيت بدمشق تنحدر عن سفوح قاسيون الى الأسفل ، وتزدحم بيوتها في القاع .

المئذنة لا زالت تنتصب بأحجارهـا الرمادية الكامدة ، والعمارات الجديدة حولها تنطرح مدّ النظر ، وتتلاعب فيها ألوان جذابة وأشكال هندسية منسّقة . إن سبعاً وأربعين مئذنة أُخرى تتعالى في قيلولة أبدية ، آخرهـا عند حدود الغوطة الشرقية ، وكلها متميّزة بدوائر مغلقة وسلالم حلزونيـة ممعنة في القدم .

هززت رأسي واستدرت لأبتعـد ، فرأيت جارنا يلتصق بالشرفة وينظر الى ساعته . حيّاني وسألني إن كنت سمعت الأذان . كانت على وجهه تتقلقل صفاقة ذليلة ، وعيناه تبدوان كليلتين متعبتين .

— صفير القطـار يأتي بعد صراخ المآذن .. ولقد مرّ القطار الآن .

ضحك جارنا في تسامح عاقل ، وطرفت عيناه بتثاقل ثم قال :
— تعال اربح لك صلاة .. الجامع قريب ، صهري إمامه .. إنها لن تكلفك سوى بضع دقائق .

نظرت اليه من زاويتي عيني ، وأخرجت من أنفي نفساً قصيراً

ثم نظرت الى المئذنة . وكرّر الدعوة فرمقته ثانية بتأملة طويلة ، وابتسمت .

وبدا أنه لم يستنتج جواباً ما، فأخذ يطلب ثالثة بالحاح هادىء رزين ، ويعدّد لي ما سوف أشعر به ومـا سيزاح عن صدري بعد الصلاة .

قلت له هيّا . والتقينا عند الدرج فصافحني ثم انطلق لسانه ثانية . رأيت نفسي بعد قليل أتسرّق التفكير بسميحة، وشعرت ببعض الحزن لأنهـا لم تنجح ، ثم عزمت أن أراها عندما تتقدّم للامتحان الأخير .

كنا نسير بين العمارات الجديدة المنسّقة ، وصاحبي لم يكفّ عن الكلام . ووصلنا الجامع المستلقي على فرجة متسعة انبثقت أمامنا . ثمة كان رجال بملابسهم العربية وسراويلهم الفضفاضة الطويلة الذيول ، يتمتمون كلاماً لا يفهم ويمسحون شواربهم باتجاه ذلك البناء المعرورق القديم .

وقفت بعينين ضيّقتين ، فتأملت المئذنة ، ثم رمقت جاري ، وأطرقت . هتف بي « ادخل » فأطلقت ابتسامـــة مذنبة ، وأمعنت في تأمله ، ثم قلت فجأة : — كلا لن أصلي .

ونظر إليّ وعلى وجهه تقبّض يتغلغل في عينيه الرماديتين ، وحاول أن يتكلم. اعتذرت منه بسرعة واستدرت أمشي ببطء . العمارات الجديدة حولي مرة أخرى ، والطريق المزدحم بأشعة الشمس .

– (أمازلت تقاطع الصلاة) ، كان صوته يرنّ في ذاكرتي .
– (كما تقاطع أنت مقاطعتها).

ورحت أخبّ على امتداد الطريق ، وأمسكت بعصا ملقاة على الرصيف ، وطفقت أضرب بها بعض الحصى المبعثرة .

دخلت البيت فوجدت (هلالاً) يغتسل .

– مرحباً أستاذ .

– أهلاً آغاتي .

– كيف بنات الجامعة اليوم ؟ .

– كالدبّابات التي عندك .. محصّنات ومنيعات .

– أم .. عندك منهن دبابة شديدة التحصين .. ما اسمها قلت ؟ . سميحة ؟. أجل سميحة . هذه التي تحبّها حباً فظيعاً ، شعرها وعينيها ، وبشرتها الصافية ، وألوهية وجودها . تلك الجمل التي تجعلك مهزوماً أمامي بالورق ، تعال ، بعد أن نتغدى سنلعب الورق .

احتجّت ملك من المطبخ : – وصورتي ؟.

صاح هلال : – فيا بعد ، سنأكل الآن ، تعال أستاذ .. انفض رأسك من الغرام .. فأمامك معركة ورق يجب أن تربحها .

ظل هلال يتكلم طيلة الغداء . عندما انتهينا ، لعبنا الورق حتى الساعة الخامسة :

– انتبه ، فلقد هزمتك .

– نكون قد صفّينا الحساب ، فأنا هزمتك البارحة .

ـ حالك تعب اليوم.. ألا زلت تفكر فيها.. هذه التي تشكّل بالنسبة لك شيئاً فذاً ينطوي عليه عمرك وقلبك. كان يجب أن تستمرّ في مصاحبة الفتيات، فأنت صغير للحب والزواج.

ـ أنا لست صغيراً لشيء.

٣

سرت حتى محطة الحجاز ، والناس حولي في ازدحام دورانيّ ، وفي ذهني تشوّق للقيام بعمل ما . كان شعور بالكسل يتذبذب في خطواتي ، شتّت ذهني عبر هذا الصخب الضائع جهده من المارّة والباصات وبائعي البندورة المعفّنة .

ولمحت « وديعة » فجأة ، تسير باستغراقة رصينة وقد تدلّت من ساعدها المتسق محفظة سوداء ، لا بدّ وأنّ ميزان حرارة معطوباً يستقرّ في قعرها .

لم يكن في ذهني أيّ تصوّر عما سأفعله ، لكني إذ رأيتها تلج الباص تقفّيت خطاها ، ثم جلست بجانبها وحيّيتها :

— أتذكرينني ، قلت لها، فأجابت بابتسامة :

ـ أجل ، لقد طلبت أن تتعرف بي وأنت على سريرك .

ـ ذلك لأنك لفتّ انتباهي لفتاً قوياً بمشيتك الهادئة وأحلام عينيك.

وأبدت ملاحظتها الكسولة على تفتّحي .

ـ هذا بسببك ، فأنت تحرّكين حتى جذوع الزعرور .

كانت تنظر لي من زاويتي عينيها ، تبتسم باستطراب،وتعبث أصابعها عبثاً هادئاً ، وإذ القيت ملاحظة على جمال تلك الأصابع ازدادت جلستها تراخياً،ولما أمعنت في وصفها تحرّجت، واذ أسرفت قالت :

ـ سيّد بشر ، أنا مخطوبة وإن كنت لا أحمل خاتماً .

قلت دونما تفكير :

ـ هذا لا يهمّ .. أنا أريدك مخطوبة أم غير مخطوبة .

فنظرت اليّ بدهشة مستغربة،واتّسعت حدقتاها البيضاوان .

ـ افسخي الخطبة . قلت بلا وعي .

ضحكت ومطّت شفتيها . شعرت آنذاك بنشاط مترعّش ، ورأيت أني اقتحم مجهولاً ، وأنا اتحسّس وجودها بجانبي فيملأني تيقّظ مخدّر ، ثم ما عدت أشعر إلا بأنها تجلس بجانبي.

انتهى الباص الى آخر الطريق فنزلنا معاً وسرنا نعبر أرصفة ضيّقة . سألت :

ـ أيسبّب حرجاً أن أذهب معك ؟ .

– أجل فهذه سابقة لم يألف أهلي مثلها .
– ومع ذلك سأذهب .. قولي لي أأنت من اليونان ؟ .
– يونان ؟!. أبداً !!.
– من أين لك هذه الرموش المتهدّلة والعينان النديّتان والابتسامة الحلوة ؟

ابتسمت بغبطة وسارت دون أن تتكلم. ورحت أثرثر كيفما اتفق ، ثم تعلّلت بأن نبض قلبي يمنعني من الكلام فسكتّ . ونظرت إليّ بعينين سائلتين ، فقلت لها إن عينيها حلوتان . وابتسمت من جديد وصمتت عيناها . أحسست بها تسير الى جانبي أشبه بهرّة لا مخالب لها . وكلما أوغلنا سيراً واقتربنا من مشارف قاسيون كان شعور مبهم يتناهض في صدري بقوة غير واعية .

– هل سنذهب للبيت ؟ .

لم تنظر لي ، ولم تجب ، بل ابتسمت . تذكّرت أهلها . وابتسمت بدوري ، ثم انطفأت ابتسامتي . وامتنع عليّ الكلام فرحت أتأملها بإمعان ، ثم التفتّ فجأة وقلت :

– وديعة .. أنا عائد ، بخاطرك .

وتدلّت شفتها السفلى واتسعت حدقتاها ، ثم اضطربت ذقنها الصغيرة في محاولة للكلام لم تعش . ثم مدّت لي يداً يأكلها الارتعاش وودعتني . الشارع الملتوي ، الطويل والضيق ، سرعان ما ملأني بكآبة مترمّتة . بعد قليل أخذ وقع خطواتي يضايقني فجلست على عتبة بيت صديء

أرتاح ، وأتمتّع بخلوّ الشارع من الناس .

إن سميحة بعيدة وهي لن تسامحني على هذا التصرّف . شعرت أني أخطأت مع عينيها الزرقاوين ، ولكني أطلقت التيّار لشعور آخر ملأني يأساً : إن من العبث أن أحبها طيلة هذه المدة وهي لا تعرف من ذلك شيئاً . إن بصدري آلاف الأماني ، أمانٍ تسقيها أعصابي ودمي ، وأسفح عليها نضرة عمري وتحفّزي . لقد أحببت سميحة بسهولة غريبة ، ولعلّ في هذا شيئاً مخجلاً . شعرت ثانية بالضباب يعبر وليجتي مليئاً بعنفوان باهت سطحيّ . أمي على فراش الموت ، وإخوتي في غمر من مشاكلهم الخاصة ، وأصدقائي بعثرهم الزمن . كنا نحبّ بعضنا ونقسم ألا ننسى . أما الآن فما أبعد الحياة ، إن الناس حولي أكثر استغلاقاً من دبّابة .

فُتح البـاب فجأة وشهق صوت سيّدة ، برعب « بسم الله الرحمن الرحيم .. من أنت ؟ » التفتّ وقلت « آه » وانصفـق الباب ورائي بعنف .

٣

الغروب يرتل أغانيه الخالدات ، وعلى المدى تنطرح الأضواء فوق قاسيون تذكر الشعور أن ثمة بشراً يعيشون أيضاً.

نادتني ملك من المطبخ :

– بشر .. أتذكر خديجة بنت جيراننا التي تزوّجت الشيخ منذ أسبوعين ؟.

– هم هم .

اقتربت من المطبخ أحاول أن أصغي وأنا أقرأ مجلة أسبوعية ، وما لبثت أن نظرت إلى ملك بحيرة شديدة :

–لقد عادت لبيت أهلها، لأن الشيخ لم يستطع أن يتزوّجها لم يستطع أن يتزوجها بالمرّة، ولقد نصحه أهله ورفقاؤه أن يشرب

بعض النبيذ او العرق، فرفض وصمّم أن يحاول من جديد. وكلما دخلا الغرفة انطفأت طبيعته. وقد حدث أن استمر في مداعبتها لعلّه.. ولكنه خمد في الوقت الذي بلغت به اللحظة الحرجة عند خديجة ذروة، فهرب من الغرفة وتبعته وهي تركض ركضاً أعمى مجنوناً، وكأنها فقدت كل سيطرة، فاصطدمت بخاله، وانهالت عليه قبلاً وضماً وكان أن أثير الخال ....

برمت ملك رأسها جانباً واستمرّت تبشر الباذنجان. هتفت دونما وعي «يا محمد» وشعرت بحنكي جافاً فبلعت ريقي بصعوبة، ثم نخرت بنهنهة قصيرة بعض سخرية ملأت صدري قرفاً.

ـ لقد هربت من بيت الشيخ وحبست نفسها في غرفة ببيت أهلها، أما هو فاعتصم بالجامع لا يراه أحد إلا مؤذناً او مصلّياً حتى ليل أمس، إذ قيل إنه اختفى منه وان الشرطة التقطته في (باب توما) ثملاً وأعادته الى الجامع.. لكني أعتقد أن الخبر كاذب، فالشيخ لا يمكن أن يشرب.

هززت رأسي مستنكراً. لماذا لا يشرب، قلت لنفسي وسألت ملك: ألم يعتد على نساء الشارع ؟.

ـ هه.. بدأت تكفر.. أنت وأخوك دائماً تكفران!

ـ من الصعب أن يؤمن الإنسان بعد حادثة كهذه.

سمعت على الباب نقراً خفيفاً، فتحته فلم أجد أحداً. قلت لملك: تعالي، جارتنا أم أحمد على الباب.

لكن أم أحمد حدثتني هذه المرة مباشرة، فطلبت مني أن

أحضر مع ملك وهلال الى بيتها .

أيقظت هلالاً من نومه ، وبعد دقائق جئنا بيت أم أحمد الملاصق لبيتنا . ووجدنا الشيخ هناك وأمه ، وجارنا وأمه . سلمت على الجماعة باضطراب ، ثم رحت أرشق كرش الشيخ البطين وذقنه الفتية الغبراء بنظرات صبيانية . وسرعان ما انسحبت النسوة الى غرفة أخرى وبقيت مع هلال ، والشيخ وجارنا أحمد .

مسح الشيخ ذقنه بأصابع مقددة وخاطب هلالاً : « كيفكم سيدي ؟ » فرد عليه بلباقة عسكرية ، ثم سأله الخبر .

ــ الخانم الصغيرة ردّت ردّة العرس ، واليوم إن شاء الله نذهب معاً الى البيت .

ــ وكيف حياتك الآن ؟.

ــ الحمد لله . سعيدة إن شاء الله .

قلت له متعمداً : ــ لا بد وأنك منتش من الزواج ؟

فأطلق نهنهة فيها تعقّل أصفر وقال :

ــ النشوة تأتي من الخمرة ، والخمرة مكروهة لدرجة التحريم .

قلت : ــ أعترف لك أني شربت زجاجة بيرة أمس .

ــ البيرة ليست محرّمة .

نظرت بدهشة الى عينيه الضيّقتين ، فابتسم وقال :

ــ الخمر هو النيء من ماء العنب إذا غلى وأزبد واتكب .

ضحكت وقلت : « غلى أم غلي ؟ . » فأجاب : « على .. كان يترك تحت الشمس فيغلي بنفسه » .

هرشت رأسي فرحاً بطرافة الموضوع، ونظرت الى هلال فابتسم وأشار لي أن أصمت .

بعد فترة سكون جاءت أم أحمد اليه ، وقالت إن البنت خائفة ، ومنزوية في غرفتها ، وقد أرتجت عليها الباب ، ثم افترضت أن من الصعب جداً رؤيتها والتفاهم معها .

نهض الشيخ إلى باب الغرفة ، وتبعناه بتؤدة وفضول . وهناك ناداها برفق وخشوع ، ونقر على الباب . وناداها ثانية فلم تتحرك ، واستمر يناديها فترة ، دون أن نسمع نأمة من الداخل . وطفق يضع رأسه على الباب ، وينقر ، فيفتح فمه وعينيه ويصيح ، دون أن يتلقى غير الصمت . وتراءى لي في تلك اللحظات أشبه ببرميل مليء وخماً وقذى وعقماً . نظرت اليه ساخراً ، هذا الممتنع عن شرب الخمر إلا في (باب توما) ، وبلعت ريقاً كنت أود لو بصقته . وبعد دقائق استحال بأجمعه الى بضع كلمات غريزية تطالب في قليل من الجاذبية وكثير من الشناعة – هذه المنكمشة في غرفة تشبه حياتها ، أن تأتي الى الباب فتحدثه ، أن تتقدم خطوتين . لكنها أبت .

مضى الوقت بطيئاً ، والشيخ لا يزال ينقر الباب فيجاب

بالصمت، ويطلق نفساً يائساً، وينظر اليناﻓﻲ محاولة فاشلة ليبتسم. وأخيراً سمعنا حركة مباغتة داخل الغرفة ، جعلته يربط أنفاسه بالبـــاب . اقتربت الحركة سريعاً ثم انهالت قبضة مغضبة على الباب تضربه ضرباً شديداً وقد تجمّد صوت صاحبته على كلمة واحدة : « اذهب .. اذهب .. اذهب . »

وتراخى الضرب بعد قليل ، وسمعنا ، مرة ثانية ، جسمها يهوي على الأرض .

تلفتّ حولي فرأيت أمها تبكي وأخاهـــا يلتصق بالجدار أصفر يابساً .

انسحبت من الغرفة ممتلئاً بقرف هائل ، تنـــاثر في غرفتي شتائم وبصاقاً ضخماً ورغبة في التحطيم . تطلّعت من الشرفة ضيّق العينين ، الى قاسيون الملتهب بالأضواء . كانت مصـابيح المآذن قد انطفأت .

٤

إن جدول القرية الأزلي الخرير قد تعكّر بصورة لا يمكن إصلاحها . ومن عجب أن كل شيء يتزعزع ، حتى الإيمان بعد اربعة عشر قرناً . وتكون النتيجة أن الماء لا يغدو ماء ولا شيئاً آخر .. إنك لا تعرف هويّته على الإطلاق ، ولا ميوله الساهرة في عينيه . ليتني أستطيع فقط أن آخذ الشيخ فيرى ذراعيّ سميحة العاريتين وثيابها الضيقة ، ويتأمّلها مثلي كل يوم فيعتاد على أشياء غير الستّين ركعة في اليوم التي اعتاد أن يصلّيها ..

إن المئذنة شديـــدة الارتفاع ، ومنفصلة بصورة حـادّة وعصبية عن بنايات قربها جميلة منسقة .

أقبل هلال وملك ، ورحنا نتبـــادل نظرات ساخرة :

– تعال .. أستاذ تعال.. لأهزمك بالورق .

وتعالى صوت ملك من المطبخ محتجاً :

– ألن ترسم لي الصورة هكذا ؟ .

– فيما بعد ... سوف نعيش معاً عمراً .. ماذا أعمل بعد أن أرسم الصورة ؟ كيف « ربيعتك » أستاذ ؟ .

– رأيتها أمس في قاعة الامتحان ، تجلس وساقاها متناكبتان كالبارودة والذراع اليسرى ، وقد بدا من تحت الفستان امتداد لباسها المنتهي عند الركبة .. لقد تضايقت منه كثيراً .

– ثم ... امتنعت عن أن تحبّها ؟ .

– لا ... بهذه السرعة ! ؟

* * *

أقبلت ملك من المطبخ لتشير لي بابتسامة ملغوزة ، أن أحضر اليها . تبعتها الى نافذة المطبخ ، ففتحتها وأشارت الى النافذة المقابلة . كانت زوجة جارنا الحلاق تهيء السماور وقد أخذ جسمها يهتزّ خلاّباً رائعاً . ووقفت أطيل النظر اليها ، كمن يختزن رؤيا في ذاكرته أسرت حواسه ولعابه .

همست ملك « هذه زوجة الحلاق ... إنه يضربها ويعذّبها كل يوم . ولقد سمعته أمس ، بعد أن عاد من الجامع يشتمها شتماً فظيعاً ، لأنها تأخرت في تسخين الرزّ ! »

سألت ملك : ألا تخون هذه المرأة المليئة زوجها ؟

فانتهرتني : — هِه هِه.. إنها من أشرف عائلات دمشق .

انضممت الى هـــلال ثانية وأخذنا نلعب . « متى ستبدأ الدراسة ؟ . » سأل .

— بعد نصف شهر .. في الخامس والعشرين من تشرين .. ما هي أخبار اللاذقية ؟

— إخوتك كما هم وأمك يزداد مرضها .. لقد رفضت أن تترك القرية .. وهذه المسكينة ليلى لا تزال تتعذّب معها .

صمت هلال لحظة وأضاف :

— أمك لا تستطيع أن تنهض من الفراش بمفردها ، ولا أن تطأطىء في المرحاض بمفردها.. وقد يمتنع عليها أحياناً أن تأكل برغم جوعهـــا . لقد امتدّ الروماتزم الى كل مفاصلها .

سرحت بعيني عبر النافذة وقلت :

— أبوك مات بالمرض نفسه .

نقر هلال أصابعه وأخرج بعض الكلمات المنقبضة ، ثم رمى الورق من يده وتمتم :

— لماذا يعذّبهم الله بهذه الأمراض ؟ ما الفــائدة من أن يبلونا بالأمراض ؟

سألته : — أنت لا تؤمن بالله ؟ .

هزّ رأسه بامتعاض :

— لم ألمس أنه تدخّل في حياتي مرة واحدة لصالحي.. او ضدّي.

وأخـذ ينقر أطراف الورق عـلى الطاولة . سألته بفضول هـادىء :

– بمَ تؤمن اذا ؟ .

– لا ضرورة لأن أومن بشيء ... اسمع يا أستاذ لأفهمك : عندما تسير حياتك في نسق رضيّ ، وتعيش على أمل أن تحقّق هدفاً ، وتكون شريفاً ، ينعدم عندك الشعور بضرورة الإيمان .

سألته ما الهدف الذي يريد تحقيقه ، فأجاب باختصار : إسرائيل والجزائر . وقلت له إن هدفه دموي لا يمكن الأخذ به . فأجاب بحماس أنه لا بدّ من هذه المرحلة للوصول الى الوحدة العربيـــة .

استرخيت على الكرسي ورددت باستغراق :

– أعتقد أنه لن يكون لي هدف .. أيّ هدف . إن الوحدة لا تكفي ... ومع ذلك فأني ما زلت أوثر أن أؤمن بشيء .

– سوف تتعب كثيراً .. عوّد نفسك أن تكون الأخلاق طبيعة فيك منفصلة عن المفاهيم والدين والعرف الاجتماعي . الأخلاق للأخلاق. حتى النظام أجعله غريزة .. وبعدها لاضرورة للإيمان حتى بالحبّ . يجب أن ينبع كلّ شيء من ضمير الفرد دون أن « يؤمن » به ، لان هذا سيأسره ويقيّده . لقد كانت شخصيتي في مثل سنّك ضبابية ، وكنت أعتقد مثلك أن بالحب حلول المشاكل .. ثم ما لبثت أن رأيت الحبّ مسلوخاً في عالمنا ، فهو إما مراهق فاشل أو منفعيّ ، او مستحيل. النظام يعوّض عن كل شيء ، حتى الحبّ . افرض أنك عشت سعيداً ، فما معنى السعادة بالضبط ؟. إنها الرضى والاستقرار ، ولن يتأتّى لك

الرضى ولا الاستقرار بالحب .. إنهما يولّدان مع النظام . أنت تعرف أني أحببت قبل ملك ، في فترتي الضبابية ، فتاة شقراء تكلّمت عنها كثيراً « خصلة مجدولة من شوق قلبي ، لوّنت من وقد ايامي وحيي .. » الى آخر هذه الصبيانيات . ثم لم أستطع كالعادة ، أن أتزوجها . والتقيت بملك ورأيتها أشبه بالدافع الحياتي . وتأكد أن بيننا شبقاً روحياً مثله مثل الشبق العادي .

مددت شفتي نفياً :

ـ لا يمكن بحال أن أومن بهذا النظام.. أنت تعرف أني أثور لأقل مضايقة ، وألوي خط سيري أمام أية عقبة ، او ما يخيل لي أنه عقبة . ولا أستطيع أن أغفر لإنسان إلا إذا أحببته ، هذا شيء من طبيعتي لا يناله النظام .

كان هلال ينفث دخان لفافته ويتأمله بهدوء . وهزّ رأسه عندما انتهيت وقال :

ـ عندما تصلّب التجارب إرادتك، ستتبع هذه الأسس التي بغيرها لن تستقرّ . قد تقول عني « أنت عدمي » ولكن أبداً ، الفلاسفة لم يستطيعوا حتى الآن أن يحلّوا مشاكل البشر .. كانوا يساومون ويقدمون نوعاً من التراضي .. والحل هو أن الإنسان يعيش بكل ما فيه . ويبقى أن النظام يجب أن يكون طبيعة.

قلت باهتمام : ـ منذ بدء الخليقة لم يستطع البشر أن يعتادوا عليه .

فرفع حاجبيه وأجاب : ـ ذلك لأنهم انصرفوا عنه للإيمان

بأشياء ليست من طبيعة الإنسان .

قلت : — ولكن الحب من طبيعة الإنسان ، فهل تريده أن يرضخ لنظامك ؟.

فقرر :ـالحبّ نشأة .. نبع من حاجة الإنسان للتخلّص من وحدته .. وكان فشله مدعاة لأن تتغير طبيعته بالتدريج .

وأضاف مازحاً : — « أنت عاطفيّ وستهزم بسبب ذلك كما هزمت في الورق . » وارتفع صوته ينادي ملك :

— الساعة السادسة إلا الربع الآن ، البسي بربع ساعة الفستان الأبيض ، فسنذهب الى السينما ونزور حسناء .

٥

إذا كان أحـــدنا يشعر بلذّة وهو جالس في مقهى ذات يوم خريفيّ يراقب جميلة مجدولة القوام انسيابيـــة الخطى تسير عبر جلبة الشارع المتغلغلة في أعصـــابه ، فهو لا شك مستشعر غبطة فائقة إذا كان مثلي يتسرّق من نافذة مطبخه نظرات طويلة نحو جارته الفاتنة القابعة في مطبخ مغلق ، والتي يعذّبها زوجهـــا باستمرار ، وفي سكون كالجلبة متغلغل في الأعصاب . ولا بدّ أنه سيشعر بالأسف لأن يدين ناعمتين كيديها يتصلّب لحمها بسبب غسيل الأطباق والملابس ، ولأن صدرهـــا الفتي يسودّ بدخان السماور ، وحطب الحمّام . ولعله سيعاني مثلي ، بعد ذهاب هلال وملك للسينما ، تململاً غريزياً وهو يرقب صدرها في نرفزته . إنها

ليست شقراء كسميحة ولا زرقاء العينين، لكنها رائعة، رائعة، بلا وصف ولا تعقيد .

منذ نصف ساعة وأنا أراقبها ، وقد دفعت يدها مرات تغلق النافذة احتجاجاً ، ثم تفتحها طلباً للهواء ، أما الآن فأنا أتسرّق بلذة خبيثة أكثر من مجرد النظر اليها : حركاتها ، اهتزازها ، تلفّتها ، غنج جيدها ، وظلال أجفانها ، تكشيرتها الفاتنة ، والتلألؤ الباهر في عينيها ..

تنهّدت وأُطلقت نظرة كسيحة ، ثم هززت رأسي بمقت هادىء : كيف يتزوّج حلاق أصلع أشبه بلوح جليدي فتاة كهذه !؟ كيف ، وأنا لا أتزوج ، رغم عبادتي ، سميحة المغزولة الشعر !؟. إن سميحة لا تعلم بي ، ولا تحبّني ، ولا أعتقد أن في هذا شيئاً هاماً ، وإن كنت أعجب من نفسي كيف لا أصاب بصدمة شعورية . وإذا كان الشاب يضعف من وقع الفشل ، فما الذي يخفّف هول الصدمة على هذه الشابة المجردة من كل قوة الا الجمال ؟

الروس يصعدون الى القمر .

نظرت ثانية الى النافذة، وتكسّر في تلك اللحظة صحن أبيض كانت تنظفه . وأطرقت عيناها نحو الأرض ، وارتفعت يداها جانباً ، ثم انسدلتا ببطء حزين . وبعد قليل رفعت عينيها مليئتين بالدمع ، فسيحتين متعبتين ، وهمّت تتابع عملها ، فرأتني.
وانصفقت النافذة :

ـ يا أخي نحن جيران ، إسلام ، وليس من اللائق أن تنظر من الشباك وأنا دائماً في المطبخ .

قلت وقد تلبّستني حالٌ متحكمة من الوقاحة :

ـ من المؤكد أن تصرّفي تنقصه الحشمة ، ولكني أحبّ أن أنظر اليك كثيراً ، فأنت جميلة ، وشديدة الجاذبية .

ـ يا سيّد بشر لا تزِدْ أرجوك .. نحن مسلمون وهـذه أشياء محرّمة .

كان صوتها هذه المرة وديعاً ينفذ الى النفس بوتر رخيم أسير .

ـ نحن بشر يا سيدتي .. وأنا لا أعجب بك فقط ، بل أشفق عليك ، على الحشيش الأخضر تطأه أقدام ثور . لماذا رعبت إذ انكسر الصحن؟ أيستحقّ صحن أن يجعلك تبكين بهذه السهولة؟ .

قاطعتني وقد انقلب صوتها الوديع مكابراً عذب المكابرة :

ـ أرجوك اسكت .

شعرت برغبة في القفز . أمسكت بزاويتي النافذة ومددت رأسي :

ـ لماذا لا تتكلّم ، لا تتحدّث ؟.. أنت تعرفـين أني لن أوذيك . هذه ليست أشياء محرمة .. ليس حراماً إلا الزنى والقتل ، وظلم الزوجات .. لا تطفئي النور . أنا أعلم أنك تصغين لي ، وحتى ولو ذهبت سأبقى أتكلم الى أن تعودي . . افتحي هذه النافذة ودعينـا نتحدث ، فأنا لا آكل بشراً .. كلّنا يريـد من دنياه شخصاً ، أيّ شخص يصغي له بحنان واستغراق ، فلماذا تهربين ؟ . أنا وحدي وأنت وحـدك . لقد صُدمت مثلك بطريقة أخرى .. فأنا أحببت فتاة لا تحبّني .

الظلام كان مخيّماً ، يتغلغل فيه صمت جارح الترقب .
قالت : — أما .. زلت تحبها ؟
أطلقت زفرة طويلة وأجبت :
— لست أدري .. أعتقد أني يجب أن أنساها .. وأنا لم أتحدث اليها قط .
— هل يمكنك أن تتحدّث اليها ؟
فصمتّ أستوعب كلامها ثم قلت :
— أجل .. في الجامعة يمكن أن يكفر الإنسان ويجلس في مقعد واحد مع زميلته ، ومع ذلك لم أتحدث اليها .
— هذا أحسن ، فبنات الجامعة لسن مؤدبات .
قالت ذلك ونهز رأسها الى الوراء .
سألتها من قال هذا ، فأجابت إنه زوجها ! سألتها ثانية : أتفكرين انه صحيح ؟ . فلم تجب .
فتحت النافذه ببطء ، ونظرت اليّ خطفاً وخشية ، ثم أطرقت :
— اذا لم تذهب فسأغادر .. لأجمع الثياب .
قلت مبتسما : — إذن ألحق بك .
ارتسمت على وجهها تموّجات حائرة مهزومة ، ثم أغلقت النافذة بهدوء . كان الفراغ الفاصل بيننا يتسقّط من السماء بعض ضوء النجوم ، وجدرانه الأربعة تتواكب بصمت وسكون .
هتفت : — ألا تزالين هنا ؟!.
فلم أسمع كلاماً ، ولا تحرّكا . وانسحبت الى البهو ببطء ، وأخذت دقات الساعة تنفجر في أذني ، ودوار حيرة ثكلى ينوس في

رأسي صامتاً مغرقا . ذهبت الى الشرفة وتأملت المئذنة الرمادية العتيقة ورأس الشيخ المعمّم يطلّ منها بين العمارات المستلقية في أرجوحة لونية رنقة، تبتعد عنها بيوت دمشق المتحدّرة من سفح قاسيون المتجمّعة عند القاع . المساكن التي حولنا طينية صفراء، يشقها خطّ القطار الأسود الممتدّان حتى مغيب الشمس. نوافذها المحجّبة بخشب لا يتحرّك استحالت بسبب من غبار الشارع ودخان القطار سوداء قاتمة لا توحي بغير التقزّز .

« ماذا تفعل جارتي الآن ؟» سألت نفسي .

كانت دقّات الساعة برتابتها المتحكمة واضيّاقها المستمر تملأ الغرفة بكدر أصمّ ، ونفسي باحتقار ورغبة ثأر .

هذه التكتكات التي تبصق من داخلها ما أكثف وخامتها !

تركت الباب مواربا وصعدت الى السطح . كان الظلام يسربل الفضاء غامقاً كوشاح أسود قصيّ المدى ، وسفوح قاسيون سماء سقطت نجومها الملتهبة على الارض . فقفزت فوق الجدار الخفيض بين بيتنا وبيت الحلاق ، وتقدّمت بين الثيـــاب المعلقة ، حتى رأيتها تقف راعشة متلعثمة الأطراف .

تقدّمت ، فتراجعت . تقدّمت ، فتراجعت . لم أستطع أن أبتسم مع أني وددت ذلك بعنف ، فتقلّصت شفتاي . وظهر أثر تكشيرتي سريعاً على وجهها ، فالتصقت بالجدار الثاني مصلوبة اليدين والإرادة ، في عينيهـا ترقّب راعب دفين ، وعلى وجهها البضّ الصافي تقلّصات ألم مستسلم عكر ، شدّ ما راعني .

عندما اقتربت منها ، ألوت رأسها وركضت . ركضت وراءها ، وعند بداية السقيفة المنتصبة فوق المهبط والمضاءة بكهرباء ضعيفة ، التقطت ذراعها وقلت : قفي .

تلفّتت ، وهي تحاول التملّص ، وقالت : لا ، لا .. لا يمكن .

وقفنا معاً ، ذراعها بين أصابعي ، كلانا نلهث ، وكلانا نحملق بسكون وأعين نصف مغمضة .

ومضى أكثر من دقيقة ونحن متصلّبان ، ثم شعرت بذراعها تتراخى ، ثم بها تتحرّك نحوي بقوة ، وتنطرح على صدري فتنتحب انتحاباً مريراً . تحرّكت يدي بلا إرادة وطوّقتها ، وبدأت تسرح على ظهرها وقد تراقص في صدري لهب فرعوني أهوج . انتفضت بذعر ، ونظرت إليّ بذعر . كان ذعراً عابثاً مقيّداً برباط خفي مريد ، تنفرط منه أسئلة لا عدّ لها . وفي سكون طأطأت رأسها .

قلت بابتسام رزين : – لا تخافي ، فلست أنوي سيّئاً . اجلسي .

وسحبتها من يدها الى السقيفة وأجلستها على منديلي . تحوّلت الى الثياب أجمعها ، دون أن أتّجه لها بأية نظرة . وبعد قليل أقبلت نحوها فوضعت الثياب الى جانبها ، وجلست على الأرض . ومرّت فترة صمت كانت دموعها خلالها تتجمّع في عينيها ثم تنفرط على الأرض ، فيما ينعكس عليها ضوء الكهرباء

البخيل يسحّ حزناً ، بسكون بالغ الرثاء .

قلت بخفوت : – لا تبكي... في الحياة مناسبات أخرى أشدّ إيلاماً ، احتفظي لها بدموعك .

فحوّلت وجهها باتجاه الجدار وحاولت مسح دموعها. وأخذتني الحيرة ، فعبثت أصابعي على السطح الصلب ، ورأيت نفسي مدعوّاً لقول شيء ما :

– أرجو أن تسامحي تطفّلي .. نحن شباب ونأخذ الدنيا عبثاً .. نفعل أشياء كثيرة لا مبرّر لها ولا غاية . ولكن تأكدي أني لم أقصد إيذاءك .. أنا آسف وأرجو أن تسامحيني .

مسحت دموعها ثانية ، وهوّم على وجهها خيال ابتسامة بعيد . ولمحت هذه الدموع البلورية تتحدّر ، وتنجزىء على الأرض غزيرة هادئة . أعطيتها منديلاً ثانياً ، وطلبت منها أن تهدأ وتمسح دموعها . لكن عينيها ، في تلك اللحظة ، بدتا كبيرتين جداً فقط لتمتلئا بالدموع .

قلت باضطراب وإحساس بالإيلام غامر يكتم النفس :

– لا تبكي ، فما أبعد عن مثلك الدموع .. أنت فتيّة شابّة عمرك ست عشرة سنة ، أليس كذلك ؟ .

فهزّت رأسها باستحياء ، وشعرت أنها بدأت تهدأ . قلت :

– لماذا لا تقضين مع ملك بعض وقتك ؟ .

فتناثرت من فمها كلمات متقطّعة ثم صمتت .

– إذن فأنتما تتحدّثان كثيراً... هذا جيّد ... بمَ تتسلّيان ؟.

نظرت اليها أترقب الجواب ، فتحركت يدها تعبث بالمنديل وابتسمت :

– أعتقد أني ضايقتك ببكائي .. أنت ثاني رجل أحتكّ به قريبة منه ، في حياتي .. وقد لا تدعو الأول رجلا فأنا لم أعرف معه معنى الرجولة .. كان دائما ..... يغتصبني .

– ما اسمك ؟ .

فرفعت اليّ عينيها الفاترتين وقالت :

– ثريا .

وتأمّلتها معقود الحاجبين ثم رددت :

– اسمك جميل .. لكنه للأسف مقيّد بتراب من الأرض . هل يغار عليك ؟

هزّت رأسها باستخذاء وقالت :

– لو رآني معك لكانت نهايتي الموت . انظر .

واقتربت مني برأسها ، وهي تمدّ جيدها الرخاميّ الطيّع . وتأمّلته بشغف سرعان ما انقلب الى ارتكاس حزين . كانت ثمة جلطة جلدية تختّر فوقها دم أسود . حاولت أن أقول شيئاً فشعرت أن كلامي عبث ، وأنه سيكون نوعاً من التعبير مشلولاً قصير المدى . صمتّ برهة ، بينما راحت تسرد لي بعض حياتها هذه التي تجلس أمامي في عنفوان وميعة ، والتي زُوّجت منذ شهرين لرجل أصلع .

قلت بعد لأي : – ماذا تفعلين طيلة النهار ؟ .

فأجابت في شرود :

– أطبخ وأجلو .. وأكوي .. أنظّف البيت .. أغسل .

سألت باسماً :

ـ هل تطبخين جيّداً ؟ .

فابتسمت ولم تجب . وعلّقت :

ـ يجب أن تطعميني شيئاً مما تطبخين ..

وسريعاً ما رفرف عليها ارتياح سعيد، ابتسمت، واستدارت نحوي :

ـ تحبّ العصعص ؟ .

فحدقت بها مشدوهاً ! وضحكت بصفاء ثم قالت :

ـ إني أسمع ملك زوجة اخيك تناديك لتطعمك عصعصاً . ولقد رأيتك مرة تأكله بشهية .. غداً سأصنع شيخ المحشي معه ، فأنت تحبّه أيضاً .

كانت دهشتي من كلماتها ممعنة في السعادة ، وبدلاً من أن أحاول التسرية عنها رأيت نفسي في موضع محاباة ، طفت على أمواج رقتها بلا حساب . قلت بأسف :

ـ والآن اذهبي الى البيت .

فالتفتت الى الشباب، فاحتضنتها وقالت : « بودّي أن لا أراه أبداً .. هذا الزنزانة الأبدية . »

قلت :ـ لا تعودي الى حزنك من جديد . اذا احتجت شيئا .. فلا تتردّدي . قولي لملك اذا استحيت مني .

رددت باستحياء :ـ لا ، لم أعد أستحي منك . قل لي أصحيح أن بنات الجامعة لسن مؤدّبات ؟ .

ـ ابداً . نجلس معا كما جلست معك، إنما بلا دموع. ابتسمي قبل أن تذهبي ، ولا تغلقي النافذة بعد الآن .

نزلت بهدوء ، وابتسامة رقة تلوح خجولة على شفتيهـــا

الطريّتين . سألت نفسي أسئلة كثيرة ، ووقفت اتبطّن شعوراً دواراً أشبه بالدوّامة . كانت خطوات ثريا ما تزال تطقّ على الدرج ، وقبل أن تختفي التفتّ فرأيت عينيها مليئتين بالدموع . وعدت ، فاصطدمت عيناي بالمئذنة يتلألأ منها ضوء أسود ، ويبرز من حلزونتها رأس الشيخ المتعب يقول : « الله اكبر الله اكبر » .

كان ثمة شعور مبهم المحتوى رنان الإيقاع يتأرجح كأنشوطة، يلفّني ، وساقاي تنحدران على الدرج . وفي البيت رأيت هلال وملك . كانت تقول له من المطبخ :

– هكذا .. إذن فلن ترسم لي صورتي ؟ ولم تتمّ اللوحة .

ويجيبها هلال :

– فيما بعد .. فيما بعد .

ثم يلتفت إليّ ويقول :

– حسناء تسلم عليك؟ لنتعشّ ونلعب بالورق .

٦

إذا كان لذكرى « المولد » عندنا في اللاذقية احتفال عائلي صغير يقرأ فيه أخي الأكبر بعض القرآن، ويؤدّي بعض الصلاة، فهو في دمشق ملغى عملياً : منذ سنتين لم أحضر « مولداً » ولا أعرف حتى كيف تتمّ الموالد . ولعلّ لذلك سبباً في أن جارنا لم يضع وقتا طويلا لإقناعي بحضور مولد يقيمه « أبو الخير » في باب الجابية .

لبست ثيابي ، وتعطّرت ، واصطحبت شبّابتي ، طبقاً لطلباته ، ثم خرجنا معاً . كان الظلام راكداً ، وأصوات مبهمة تتصعّد من وراء مكان ما . وأحسست بشيء من الرهبة زاده شعوري بأني مقدم على تجربة جديدة لا خبرة لي بها . انعطفنا

في أزقّة ضيّقة كثيرة، بنيت حولها البيوت على طراز عثماني، تتفرّع منها ممرات ضيقة، غالباً ما يوجد في نهاية كل منها باب الدار. الطين، ولون أصفر رمادي، ونوافذ عالية، أبداً مغلقة، وصمت يحوم هنا وهناك، حتى لتحسب نفسك في قلعة او مدينة موتى تتحرّك عظام سكّانها داخل لحود رصاصية.

كيف يحتفل الناس بالمولد؟ إن صمت الجدران المظلم لا يفصح عن شيء. ورحت أستحثّ الخطى بتشوق أرعن، حتى وصلنا زقاقاً انعطف منه مسلك، سرنا به حتى النهاية. ثمة كان باب ارتفاعه ثلاثة أمتار ونصف المتر، مطعّم بصدأ كثيف، يجثم في قلب الليل. نقر جاري على الباب، وبعد قليل فتح وأطلّ منه حاجبان أشعثان وشوارب منتفخة، صرخ صاحبها مرحّباً وفتح لنا الكتلة الحديدية الضخمة.

دخلنا فسحة مسورة، ترتّبت على جانبها الأيمن عدة غرف، تقترب في تداخلها من بناء «الحرملك». وعلى الجانب الأيسر غرفة واسعة كانت تنبعث منها همهمة ملغوطة.

في الغرفة كان ما يقرب من عشرة أشخاص ينطرحون على كنبات وثيرة، وفي يد كل منهم كأس من الشاي. في الصدر كان الشيخ، وإلى جانبه رجل ضخم المنكبين أمسك بيده كتاباً صغيراً.

لفلفتهم بنظرة باردة، وسلمت، ثم جلست قريباً من الشيخ وُقدّم لي فوراً كأس من الشاي، ثم تسلل إليّ الصمت. تكلم

الشيخ كأنما يصل حديثاً سابقاً ، وتلفّتُ أمسح الوجوه المطعجة حولي بحاجبين مقفلين .

« هذه بدعة أحدثها أبو سعيد كوكبوري بن ابي الحسن علي بن بكتكتين التركماني » .

ملت على جاري فقلت : «اذاً ليس عربياً! » فشدّني بيده أن اصمت – صاحب أربل في اواخر القرن السادس ».

ثم تناول الشيخ الكتاب الصغير ، وأخذ يقرأ مقدمته : « باسمك اللهم يا رافع السماء ، وسامع الدعــاء ، وملهم الحمد والثناء ... وسعت نعمته كل سابح في الماء ، وسائح في الهواء وسارح في الخضراء ... »

تذكرت أمي ، إنها لا تستطيع أن تسبح ولا أن تسنح ولا أن تسرح .

كان الانتباه قد أنزل ذقون الحاضرين ، ودلّى شفاههم ، وخلق في الغرفة سكوناً ووقوراً . رحت أتأملهم بهدوء ، ودون أن أحرّك رأسي لمحت الشيخ ، وقد وقف عن اللعب بسبحته ، ينظر إلى كؤوس الشاي الفارغة . وكأنما أدرك الحاجبان الأشعثان معنى نظرة الشيخ فصرخا : هات الشاي يا محمد .

.. وبرز واضعاً يديه على الارض رافعاً رأسه إلى السماء العليّة – انفصل الرجال عن كتابتهم نهوضاً وهم يصلعمون . وخمنت أن عليّ القيام أيضاً فنهضت وكانوا قد جلسوا . أخذوا يمسحون أوجههم وذقونهم ، يشربون الشاي ، ويملأون أفواههم

بالصلاة والسلام . لكزني جاري ففعلت كما فعلوا .

«وانصدع الايوان بالمدائن الكسروية ...»

كان الشيخ قد اتكأ على كنبته جيداً ، وإذ انتهى أسدل أجفانه ، وصمت لحظات ، ثم بدأ ينشد بطريقة صوفية ، ويكثر من الترديد والترجيع ، بصوت لم يكن مقبولاً بالمرّة ، وكلما تقدّم في الغناء زادني هلعاً وتقززاً .

كان صوتاً رهيب النشاز ، يغني فيفتح في الأذن نفقاً ، ويتمدّد فتتقبض عضلات وجهه ، يقف فيغمرني غثيان ، ويستمرّ فأشعر برأسي بين فكّيْ ملزمة .

واستمرّت القراءة أكثر من ساعة .

كان غناء الشيخ فظيعاً . واذ ازداد انسجامه أخذ يتمايل ويهز رأسه هزاً دورانياً وهو مغمض العين ، وقد سال بعض لعابه من زاويتي فمه . أرسلت لجاري نظرة مستغيثة ، فحدّق بي مهدداً ، وكان أن تناولت كأس شرابه خطأ فجرعته .

.. لكزني بيده : – لا تكثر من الشرب ، انتظر .

أشرت له أني أريد أن أتقيأ ، فتقوّس حاجباه عجباً .

انسحبنا بهدوء وبطء ، ولحق بنا صاحب الدار . بعد قليل اخذنا مجلسنا ومال عليّ جاري وقال :

-- اسمع ، هذه مدائح للحضرة النبوية .

وانطلق الشيخ فجأة يغني ، بالتجويد السابق نفسه :

« هيّمتني .. تيّمتني .. لا بكأس أسكرتني . »

وتردّدت أصوات مبعثرة ثقيلة :

« الله .. الله .. يا شيخ جمعة . »

– اللهم صلّ وسلم عليك يا أشرف الخلق .

وصرخ الشيخ ثانية : « هيّمتني »

فانطلقت الأصوات : الله .. الله .. يا شيخ جمعة .

– تيّمتني .

فامتلأت الغرفة بالتهليل . وكانت الحروف تخرج من فمه أشبه بحركة غريزية يحاول صاحبها التملّص من بين شدقي حوت أطبقا عليه ، وكان خروجها محاولة انتحار أخرى بالنسبة لي .

« جاءت مبرقعة فقلت لها اسفري

عن وجهك القمر المنير الأزهر »

– الأزهري .. أمان ..

وكأنما تفتّحت سجيته فانطلق يقطع الحروف ويلوكها ، وأخذ حنكه يتمطّى بالكلمة ويتعرّج بمخرجها . كان وجهه في غيبوبة ، وعيناه ضائعتين ، وبدا كأنه انفصل عن العالم :

« القمر المنير الأزهر . »

إن جارتنا ، زوجة الشرطي ، وشعرها الأحمر البرّاق ، جميلة جداً .

– جاءت مبرقعة .

لقد خرجت بقميص النوم ، كالعادة لتنشر الثيــاب على الشرفة . وأنا .. أنا وحدي .. أراقبها من عل . إنهــا ليست مبرقعة ، بل إنها في الواقع نصف عارية ، وذراعاهـــا مليئتان بروعة برونزية لا مثيل لها .

– جرحت قلبي بلحظها الفتّاك .

جسمها ، يا لجسمها .. ذراعاها العاريتان .. يا لها ..

– فمتى يا حياة الروح ألقاك .

صدرها ، يا لصدرها.. قامتها.. كلها ... كم أودّ لو ألقاها!

– جرحت قلبي ...

إن منيرة لم تجرح قلبي ، لكني أخذت أقبّلها بنهم في غرفتي الصغيرة وأنا اطل منها على البحر بين الحين والحين .

نهض رجل فأحاط خصره بملاءة حمراء وطفق يرقص بعنف. ما أبعد ما تتحرّك أعضاؤه ! إنه يتلوى كلبلابة ! أخذت منيرة ترقص ايضاً .. كانت سعيدة جداً ، ثم انهمرت عليّ وقالت برنّة عميقة الحزن :

– لا أدري كم أحبك ، أحبك كثيراً .

وانفتلت وعادت ترقص ثانيــة . انفتل الرجل ، وضربت المزاهر والدفوف ، وانتزع جارنا شبابتي ووضعهـــا في فمي ، وانقلبت الغرفة ، واختفى الجميع .

بعد قليل شهقت وفتحت عيني لأجد أكثر من عشرين عيناً أخرى تحملق . وتعـــالت نداءات فوقي تشجّعني وتستحثّ

« رجولتي » . كان ثمة ما يبرر أصواتهم ، فقد مدّ سماط طويل عليه خروف محشوّ ، جثم على مشاعرهم ، نهض الشيخ فقطعه بالتساوي : حصة لكل اثنين . وكنت مع جاري .

وهجم الرجال على الطعام ، وأقبلت رغم غثياني آكل بشهية ، فقد كنت جائعاً . أخرج جاري من جيبه زجاجة صبّ منها في كأسه سائلاً أخبرتني رائحته أنه عرق . أحسست كأن دمي يفور في شراييني ، فوضعت راحتي على الكأس وقلت :

— ارجع هذه الزجاجة الى جيبك وكبّ هذه الكأس بحذاء غير فمك .. هذا لن تشربه .

فاطلق نهنهة فيها تسامح عاقل وردّ :

— لا جارنا.. لا جارنا .. هذه لتصفية المزاج !

— لا تأخذني بالمزح، فاني أتكلم جاداً.. أنا لا أشربه، وأنت لن تشربه .

وردّ جاري بنهنهة فيها تسامح عاقل :

— ولكن هذا ليس محرماً .. إنه غير مسكر ولا تنطبق عليه شروط الخمر .

قلت بإصرار ، يتخفّى على استعداد للثورة ، حازم ، فظّ النبرات :

— لست أحدثك عما أمر به القرآن وما لم يأمر .. ولن أحدثك .. ولكني أقول لك ، لن تشربه .

وتأملني بابتسام حائر، وتأملته بجمود . كنت شديد الضيق،

بالغ القرف ، فتناولت كأسه ووضعتها بجانبي .

وبعد الأكل قرىء شيء من القرآن ، وتليت بعض النصائح. ثم نهض الرجال وبدأوا تحركاً عجيباً . كان الشيخ أوله ، دفع كرشه للأمام ، ففعلوا ، وظهره للخلف ، ففعلوا ، ثم كرشه للوراء ، وظهره للأمام، ففعلوا، فيما كان رأسه يدور كخذروف حادّ الطرف . نهضت معهم بحركة غير واعية ، ومـا لبثوا أن تحلّقوا وبدأوا يدورون ويدندنون وهم يتابعون الحركات نفسها. سألت جاري :

— لِمَ الدوران ؟.

فمال إليّ وهمس :

— إنه الحركة الدورانية الفلكية في عالم الخلق ، والتجدّدية الدورية في عالم الأمر ، لإظهار الوجد والتواجد للحضرة الربانية .

شعرت كأن إصبعـاً قاسية تشد أمعـائي وتسحبها . قلت لجاري :

— هل أستطيع أن أجلس ؟ .

فهمس بسرعة : — سوف تفسد الانسجام .

ازداد الاصبع قسوة وأحسست بزاريق حادّة تعـبر بطني عبوراً عنيفاً . بعـد قليل جعلت أعتصر وسطي وأتلوّى ، انسحبت مرغمـاً دون أن أدري أين التجيء . كانت خطواتي صيرة مفـاجئة متخبطة ، وزاد في شعوري بالتخبط تحركات لرجال الالتوائية الغريبة .

تدحرجت ، أتلوّى ، وأستنجد بصوت خافت أن يخرجوني من الغرفة . تعالت همهمة فنظرت اليهم بسيماء متقيئة ، كانوا يحمجون إليّ بأعين مشرشرة ويبتسمون . اقترب جاري وقال :

ـ مثلك من يظهر الوجد .. إنّ تلوّيك تحفة .

وأطلق نهنهة قصيرة فجّة. تقبّض وجعي بعنف وصرخت به بوحشية :

ـ إني أموت ، يلعنك ويلعن تلوّيك ...

ـ لو أنك شربت ، لما حدث هذا معك !

واقترب مني مع رفاقه قبل أن أنهار على الأرض .

٧

أمضيت طريح الفراش ثلاثة أيام ، كنت خلالها عرضة لارتفاع الحرارة المتعب ، وقهقهات هلال ، ونظرات ملك المشفقة . في اليوم الثالث أحسست بتحسن ، فنهضت من الفراش أتجوّل في غرف الشقّة ، لكني تعبت سريعاً ، فجلست على كنبة – في تلك اللحظة تسلّل الى أذني صوت رخيم مفعم بالحنان يتحدث من مكان ما وراء بيتنا دون أن أفهم منه شيئاً. أغمضت عينيّ وألقيت رأسي على الجدار . وتنبّهت بعد ثوان لشيء لدن ساخن يلذع شفتي . فتحت عيني ورأيت ملك تحمل بيدها عصعصاً ضخماً مكسواً بالدهن ، مسلوقاً ، والحرارة تتصعّد منه. وشرعت تهزّ رأسها مهدّدة ، وتبتسم لتنقل معنى مترف

العتاب :

ـ ماذا عملت بثريّا .. يا ملعون ؟ متى أصبحت ترسل لك عصعصاً ، وتوصي به خصّيصاً لك ؟ .

رويت لملك باختصار ما حدث ، وشعرت في نهاية الحديث بانتعاش سعيد . وهزّت رأسها باستنكار :

ـ معقول ؟.. انت أو أخوك ، هل اعتدتما أن تتركا مناسبة كهذه ؟. بدينك : كم مرة قبّلتها ؟ .

زالت عني تساؤلة مفاجئة من دعابات ملك وضحكت . وأكدت لها أني لم أمسّها بهذا القصد مطلقاً ، واضطررت أن أؤكد كلامي عدة مرات ، حتى بدا أخيراً أنها اقتنعت .

ـ من أين أتتك هذه الفضيلة المفاجئة ؟

ـ ليست فضيلة .. لكني لا أدري كيف تصرّفت ، فلم أخطّط ، ولم أفكر بشيء على الإطلاق .

عندما بدأت ألتهم العصعص ، ردّدت ملك بعفوية :

ـ فلاّح .. ستبقى فلاّحاً ... كأنك جئت للتوّ من قريتك .

ودخلت المطبخ .

كانت ساعة الحائط تبدّد دقّاتها أشبه بأيام اليهودي التائه .

تذكّرت سميحة ، فنهضت بخفّة ، ولبست بذّتي .

يجب أن تنتهي علاقتنا الى شيء ما ، فالحق أن سميحة تعرف حبّي لها . ولكن ما الفائدة ؟ إنني لم أحدّثها مطلقاً .

ـ ستّ الملوك ... بخاطرك .. أنا ذاهب لأرى سميحة .

— الله معك .

لا... إن الحب وحده معي ، وبه ستذوب مشاكلي .

سرت والليل يلج أثر النهـار وبقلبي نبض يتراقص أرعن قوياً . إذا لقيت عند سميحة صدى .. كم أودّ لو ألقى عندهـا صدى . لقد مضى من عمري عشرون عامـاً ، دون أن أحب . كان إخوتي يشفقون عليّ وكنت أشعر بمذلّة شفقتهم وبفقدانهـا للعاطفة التي لا تنبع من شيء غـير الشعور بالواجب . سأرتاح مع سميحة ، وأنفث دخان التفاهة المقرف الذي يخنق أيامي .

اقتربت من الجـامعة ، وفي داخلي جلبة تصرخ ، وشعور بالرهبة من شيء ما سيتقرّر اليوم . ورحت أهيء نفسي لتلقّي صدمة عاطفية ، فهذا هو حبّي الأول ، فلا أظن أنه سينبت غير الشوك . شعرت بسكون مهيب يجترح كيـاني بإقلاق راعش : ضوء الزوايا الباهتة ، وبريق النجوم الغافية ، أخذا يضغطان قلبي بعنف شديد .

عبرت خطّي الحديد ، وسرت ، فعـبرت خطّين آخرين وسرت ايضاً .. لم يكن القطـار هناك .. كان ثمة شعور صافٍ غير معقد ، ولا دوراني كعجلات القطار ، يتجوّل في خاطري ويستعد للقاء سميحة .

علمت أنها في قاعة الامتحان « بديرية التسجيل » ، فانعطفت من مدخل الجامعة يميناً وسرت ، وكم لذ لي المسير . وقفت أمام باب القاعة ، فرأيتها منكبّة فوق أوراقها ، وقد وضعت ساقاً على ساق . وشرعت أتأملهـا مفتوناً مركّز الحواس ، مجمّع العاطفة ، كأنني أرى في تفاقم شعرها الأشقر ، سرّ الله والعبقرية .

لا أدري كم من الزمن مرّ وأنا على استنادتي الحالمة : ظهري

الى الجدار ، وعيناي إليها . لكنّني تنبّهت الى قامتها تنهض وتطلق تنهّدة ضخمة ، ثم تختفي في القاعة قليلاً ، وتظهر عند الباب فتهزّ استنادتي .

سارت منبسطة المحيّا ، وعبرت الممر الذي أقف فيه ، ثم خرجت من الباب دون أن تميّزني ، وانطلقت وراءها بدون وعي ، فأدركتها عند المنعطف المتّجه صوب الجامعة . ووقفت بقوة راغمة . كانت تسير ، بكعبها العالي، وكأنها تخشى أن توقظ إنساناً نائماً ؛ ويرنّ في قلب الظلمة صدى خطواتها النحيل المخنوق كبحّة فيروزية قصيرة المدى ، ثم تنتقل بتلكؤ ظبي وخفّته فوق سديم الأرض المغبرّ ، والليل حولها يشوّش صورتها في عيني فتزداد روعة وانسراباً .

وأسرعت فأدركتها ثانية ، وحاولت أن أتكلم ، فتصاعد نبض بالغ القوة الى حلقي أوقفني عن الكلام . وغالبت جمح صدري ، فتقدّمت منها ، وحاولت بعنف رفع صوتي فقلت :

– سميحة .

وبدا أنها لم تسمع ، فكرّرت النداء ، وكنت قد وقفت بجانبها . التفتت إليّ مذعورة فأربكني اضطرابها . قلت :

– مساء الخير .

فردّت باقتضاب ، وتابعت سيرها ، دون أن تنظر نحوي .

– اعتقد أن ما سأحدّثك عنه غريب... وقد يكون فظاً.. ولكن يجب أن أسألك .. أحقاً ستتركين الجامعة ؟ .

حدّقت بي مغيظة عابسة وقالت :

ـ لا ..

وكانت لهجتها هادئة . فقلت :

ـ يعني أننا سنراك في الجامعة ؟ .

فلم تجب .

وشعرت بضآلة غامرة ، فأسرعت الى القول :

ـ سميحة .. أنا أُحبّك ، فما رأيك ؟.

تأمّلتني بدهشة، ثم ابتسمت، وبعد هنيهة أَخذها الاضطراب فأطرقت خجلى .. سرت بجانبها منتشياً ، ولمحت بعض العبوس يراود خدّيها الصافيين . كرّرت سؤالي وانتظرت الجواب ؛ لكن ردّها خرج بطيئاً شديد المفاجأة. وقد توقّعت أنها ستصمت مزيداً من الزمن قبل أن تقول :

ـ اذا كنت ستستمرّ على وقاحتك ، فلا أقل من أن تذكر أني لم أتحدّث اليك من قبل.. كيف تقول هذا الكلام ، وأنت ترى الخاتم في يدي ؟ . ألا تعرف أني لا يجوز أن أتحدث معك وأنا مخطوبة ؟

ثمة كانت حلقة صفراء تحيط ببنصرها اليمنى . وانطلقت مني قهقهة قصيرة لا إرادية ثم تملّكتني هزّة مستحثّة فقلت :

ـ هذا لا يمنع أني أحبك .. وأريدك .

ولم تنتظرني ، ولعل ذلك كان إنقاذاً لي من ارتباك بدأ يأخذ بمداركي ، أعتقد أنه كان بسبيل أن يورطني في مواقف ممعنة

الخطر . وبيناوقفت، انحرفت هي عند مدخل المديرية وسارت نحو النهر . وأخذ هيكلهـا المتّسق يتباعد في جوف الظلام ، وتبـدّد من حوله نظراتي ، وقد خلت من كل معنى . شعرت بتخثّر شعوري ، وثقل عليّ التفكير ، وبدأت أصفر أغنيـة جبلية، وغبت في متاهة الشارع . الأشكال أمامي راحت تتّخذ شكلا هلامياً تلفّه قيلولة المساء بإستغراقة واجمة . وفجأة انطلق صفير القطـار هادراً ، حادّاً ، وانبعثت منه دخنة خانقة ، ثم تمطّى بعرباته وهجم فوق القضبان . شتمت الحضارة بهدوء ، وبصقت أعصابي على عواء هذا الوحش الحديدي ...

ما أشدّ انغلاق سميحة ! لقد مررت بهذه التجربة في الرابعة عشرة من عمري مرتين ، الأولى مع عذراء لم تتكلم ، والثـانية مع متزوجة أفهمتني برقة خجلة أنها ... متزوجة .

وصلت البيت في التاسعة ، كان هلال يعبث بالراديو ، وملك تطالبه برسم صورتها مختلطاً صوتها بشخير السماور . لم أتكلم بل دخلت غرفة الحمـام وفتحت نافذتها ، كانت ثريا تكشر فوق صحن كبير ، يتصاعد منه بخار كثيف فتأملتها بشغف ونبست :

– است .. اس .. هي .

وتلفّتت ببراءة فرأتني . وابتسمت لهـا ، فالتفتت بسرعة وأغلقت باب المطبخ ، ثم انسحبت عن وجهها تكشيرتها السابقة ، وطرفت نحوي بعينيهـا الغضاريتين الفسيحين . وهممت بأن أتحدث لها عن سميحة ؛ ولكني سرعان ماادركت تفاهة الحديث .

وكان أن أشرت لها بيدي الى العصعص ، ورسمت لهـا في الهواء شكله، ثم وضعت يدي على صدري في خشوع، ورفعت رأسي . فضحكت بصفاء ، وحرّكت يدهـا في الجو ، نصف دائرة علوية ، ثم إصبعهـا بالطريقة نفسها . طويت يدي على صدري وهززت رأسي يمنة ويسرة ، مبتسمـاً مغمض العين . وبعد هنيهة صمت مفعمة بسعادة داخلية، ضحكنا بصوت عالٍ ، ووقفت أتأملها تتناول الملاعق ، والشوكات ، ثم تلوح لي بيدها البضة ، فتترك المطبخ .

عدت الى الغرفة واستلقيت على السرير . سألني هلال مازحاً:

– كنت تتحمّم أستاذ ؟.

فرفعت صوتي بقوة سعيدة ، وقلت :

– غداً سآكل عصعصاً .

– تعال نلعب الورق .

– سوف أهزمك .

الفصل الثاني

١

لقد أضعت قسماً من عمري ، والبقيّة في الدرب الى الضياع . المولد يبتزّ بعضه ، والفراغ واللاجدوى بعضه الثاني ، وسميحة بعضه الأخير .

سميحة مخطوبة ! متى وضعت هذا الخاتم في يدها ؟ وكيف لم أره ؟ لقد سارت من أمامي كما يسير ظلّ غمامة على الأرض . سميحة مخطوبة ، ما أشد ما تعبث بالقلوب الحياة !

لست أدري ماذا افعل بأيامي ! إنها مليئة بالبعثرة والتردّد ، مفعمة بالاستحالة . ولعل قدحاً من البيرة ، أشقر بارداً ، يطفيء الجذوة ، ويخمد هذا الشعور الحـــادّ بالأسى والرغبة المتحفّزة للقيام بعمل ما . ما أحوج الإنسان الى أن يغرق في شيء ما ،

يغرق بجميع أبعاده ، فلا يستفيق إلا على أجراس نبيّ جديد . ما أحوجه للتمرّد في وحول هذه الدنيـا المحرّمة ، ليعرف على الأقل لماذا حُرّمت . ليعرف السبب الذي حدا بسميحة الى أن تنتهرني .

وما أشد ازدحام الشارع . أعتقد أنني أعرف هذا الدافع الذي لا يقاوم عندها ، الدافع الذي جعلها تهرب مني . ستترك الجامعة لتتزوّج . تلك مسألة في منتهى البساطة ، وجدّ مألوفة . كثيرات يعبرن الشارع ويذهبن . لكنه مع ذلك مزدحم ... ما أشد ازدحامه !

على هذه الناصية مخازن ترتسم على زجاجها الخارجي خيالات مبهمة كسيحة، ثم تنتقل بسرعة وتذهب. إذا كان ثمة من يحزن لبهوت الصورة ، فالزجاج الهشّ الصافي . إنه يريدها واضحة نيّرة ، زاهية الألوان ، جمّة التقاطيع .

الازدحام يتضاءل . والصورة تتركّز . لقد اختفى كثير من الصور ، لكن الباقي منها يزداد توضّحاً .

ما الفائدة ؟ لم يعد ثمة زجاج يعكس من الرؤى إلا الباهت . وكلما مررت أمام واجهات المخازن هذه ، ألحفت في التطلّع الى ارتسامي ، وبالرغم من أني أراه مراتٍ لا تحصى ، فإني أحب أن اتأمّله من جديد ، ففي كل مرة أراه فيهـا ، يخيّل لي أنني اطّلعت بدقّة على شكل جسمي ، وطولي ، وعضلاتي . ثم ما ألبث أن أترقب مروري أمام الواجهة التالية لأتمعّن فيه

مرة أخرى .

مررت بالواجهة الأخيرة ثم سرت .. لقد اختفت صورتي من زجاج المخازن .

الازدحام معدوم الآن . لقد فرّ الناس من الطريق المؤدي إلى الجامعة ، وتناثروا في أماكن أخرى .

٢

عند باب الكلية ، كان شبحان يقفـان بابتسامة منتظرة . وعلى البعد تبيّنت فيهما « دريد » و « صالح » . كان دريد يستند بقامته الطويلة الناحلة الى الجدار ، وصالح يهزّ ساقه . هرعت اليهما مسرع الخطى والوجيب . وإذ وصلت انهالا عليّ قبلاً وعناقاً . وأخذنا نضرب بعضنا ونصرخ، ونقفز ، ثم نتعانق من جديد ونضحك ملء الجو .

— متى جئتما من الجنوب ؟

— أمس مساء .

وتبادلنـــا النظر بحبور ، فضحكنا ، وأسرعت أتأبط ذراعيهما . وسأل صالح :

– كيف أيامك أبو البشر ؟

– تعبانة .. وانتم .. متى يطير صاحبنا ؟.

هزّ صالح رأسه مهدداً :

– شهر أيضاً .. عندما تتكتّل القوى الثورية وتخطّط ، ويقدح الفكر ، سترى صاحبنا مطروحاً على حذاء .

اقترح دريد : – هيّا بنا الى خمارة بقلة .

وسرنا نحو الحانة ، ويداي لا تزالان ممسكتين بيديهما .

قلت : – اي دريد .. كيف « الخضراء » ؟

ضرب دريد الأرض بقدم رجله ، ونشم ، ثم قال :

– ميتة .

قلت : – ميتة كيف !.. وصاحبنا ؟..

– شهر . أجاب دريد باقتضاب .

وعقب صالح : – ما اسرع ما ستتمّ الوحدة !.. فماذا يبقى بعد ذلك من إسرائيل ؟. أتدري.. عندما قامت ثورة العراق.. اوه .. قامت المظاهرات قيامة .. يم ، البلاد كلها ، بحر تموج به الخلائق البشرية . ومع ذلك كان الوضع رهيباً . الدوريات باستمرار في الشوارع ، وحظر التجول يطبق بشدة هائلة . ولكنك رغم هذا كنت تسمع سبة الاستعمار أنى سرت . والمظاهرات ؟! يا الله تلك الأيام ما أجملها !

قال دريد :

ـ لقد سجن صالح .

تطلعت الى صالح ضاحكاً مستفسراً ، فضحك بـدوره وقـال :

ـ قدت مظاهرة بشوارع « الخضراء » ، أخـــذت تهتف للعروبة والوحدة فطوّقني الحرس وأخذوني الى السجن .

سألته كيف خرج ، فضحك ، ونكش أنفه كأنــه يتذكر الحادثة :

ـ أقنعتهم أني كنت أهتف لصاحبناقائد العروبة ،فتركوني.

فقهقهت ملء صدري ورحت أقبّل صالح ، وأحمله ، وأناوله بعض اللكمات . وسرنا وأنا متخم بجبور لعوب .

وصلنا الحانة ، . وانفردنا بطاولة غبراء في زاوية ملفوفـة بضوء أزرق . وبعد ذلك أحضر الساقي زجاجات بـــيرة ثلاثاً وضعها أمامنا . تأمّلنا بعضنا بابتسام ، وصمتنا ، كعادتنا ، احتراماً لشهقة البيرة عندما تُنزع عنها السدّادة المقيدة .

تناول صالح زجاجـة وأغرقهـــا بعينيه ، وتلمّظ ، ثم جرع بعضها .

ـ دريد .. اشرب ، واستمخ .. كأس للعروبة وبس . علينــــا دورنا الذي لم نتمّه .. أبا الدرد .. سنطيح بصاحبنا ونصنع وحدة .. ونعيش في جمهورية عربية جديدة .

صببت قدحاً لدريد ، وآخر لي وقلت :

– أهنئكم وأنا اشعر هنا بضآلتي . أعتقد أن ليس لدي سوى الانتظار .. أترقب اليوم الذي يهبّ فيه غيري ، فيصنع لي وحدة عربية . ليس لدينا شيء ضد الحكومة فنسجن بسببه ، ولا يمكننا محاسبة بقية الحكومات العربية . أيغيّر شيئاً من الفساد أن نبقى نسبّه ونشتمه ؟

قرّر صالح :

– رح انكبّ .. انت تعيش في جمهورية عربية .. ونحن نعيش في سجن .

قلت : – أعتقد أنك أشرف مني . نحن ننتظر . المهمّ الآن أن شيئاً ما لا بدّ سيحدث في المستقبل ، والى ذلك الحين فأنا وأنتم سنعيش عالة على الدنيا . أما اذا حدث أي تهديد للوطن ، فعند ذلك يجب أن نموت . اؤكد لك أني في منتهى القرف من حياتي .. تصور أننا لن نشارك في قيام ثورة او في توسيع الجمهورية .. ولولا أن ثورة العراق تعطي للوجدان شحنة هائلة من العزيمة والآمال ، توقف الى حين طمي الانهزام الشعوري الموحل الذي يغرق حياتنا ، لقتلنا الزمن .

تناولت قدحي وجرعته حتى نهايته : أريد من الحياة حباً طلقاً ، يفور كزبد هذه البيرة . وينتهي بسرعة انتهائه ، يبدأ فيفور من جديد .. ماذا جرى لغيداء .. دريد ؟

ونقر دريد بإصبعه على الكأس ، وظهرت قواطعه في

ابتسامة مهزومة :

ــ رأيتها في النادي ..

صمت قليلاً وردّد :

ــ اسألها: « كيف انت غيداء » فتجيب « مبسوطة » ولا شيء آخر .. لا أدري ، إذا أظهرت عواطفي ، ماذا ستكون النتيجة .. وحتى العواطف هذه لا تزال أعنّتها في يدي .

نبر صالح محللاً :

ــ أنت حسابيّ دريد ، كصاحب هذه الخمارة . عندما تحب لا تسأل عن النتائج . هذه مرحلة يجب أن تجتازها . تريدها أن تغازلك ؟ قل لها إنك تحبها ، واذا فشلت فلن تقوم القيامة . هات صبّ لي بيرة، فأنا في غنى عن غيداء وسميحة.. ياللكأس!

كنا نبتسم ، وتابع صالح :

ــ شلّة غرانق ستجدد هذا العام، وبدلاً من العمل السياسي، سنتحوّل الى العمل العاطفي . هـــدف الشلّة مناصبة الفتيات العداء ظـــاهراً والحبّ باطنا ، وملاحقتهن بالشاتو .. نحت جديد لشاي وكاتو .. الفكر يقدح ، والبيرة تلعب لعباً ... كأس للعيون الخضراء والربيع الخـالد في الجمهورية العربيـة ، بأقاليمها السابقة واللاحقة .. أسمعنا شيئاً من الشعر أباالبشر .

قلت وابتسامة صغيرة على وجهي تعاين كأس البيرة النشيط :

ــ لم أرتو بعد .

ضحك دريد وقال :

- أليس لديك مصادر أخرى للوحي ؟ .

رميت رأسي جانباً واسترخيت ثم قلت :

- كثيرة .. مئذنة وساعة حائط وقطار ، وزوجة فاتنة تأكل علقة كل يوم ، صرير الباص وشخـــيره ، والقمر تراه فتحسبه لمبة معلقة فوق الشارع .

اقترح دريد :

- هيا بنا نمسح الشوارع .

دفعنا الحساب وانطلقنا في شارع بيروت .

قلت هازلا :

- المشكلة أنه ليست لدينا مشكلة .. لو أن أحداًمنا يعاني .. لا أدري كيف أعبر ...

انعطفنا باتجاه « ابي رمانة » ثم قطعنا الشارع الجميل ضحكاً حتى نهايته . وعند الجامع المنتصب هناك أخذ دريد يصفر ، وصالح يتأمل البنايات الجميلة ، ويداي تنقران على أسوار الحدائق التي نعبر بها .

مضى وقت طويل دون أن نتكلم . وطرقنا أسواراً كثيرة ، أنقرها بيدي ، ويصفّر لها دريد ، ويتأملها صالح .

قال دريد : — ما أبشع أن يكون الشيء صلباً !.. انظر

بأية قسوة تستقر هذه الحجرة على الرصيف .

قلت له : – في الحجر جمـال الصلابـة ، أما الأبشع والأشد إيلاما ، فأن يكون قلب الانسان جيفة .

وصمتنا من جديد .

في شارع ما سألني صالح :

– ألديك الشبّابة ؟

ثم تحسس إبطي الأيسر فأخرجها :

– هات فالوقت مساء .. ولتبدأ بالشيطان ، ولكن أسمعني بعد ذلك مقطوعتي .

بعد دقائق وقفت عن النفخ وقلت لدريد :

– ما بك ؟

فأجاب مطرقاً :

– نحن تافهون .

سرنا دون أن نتكلم . وأعلن دريد ثانية :

– نحن تافهون .

ثم اقترح أن يعود كل الى بيته .

كان ضوء نحيل ينهزم من نافذة مطبخ قريب ، وظلال ترتفع باستمرار نحو السماء كأنها وجوه تتقيأ ابداً غـــاز الآزوت . وسرنا ثانيــة .

وفي منعطف صغير رأيت شجيرة ورد داخل سور حديقة مرتفع . مددت يدي فقطفت زهرتها الوحيدة البيضاء .

سألني صالح :

– ما هذه ؟

فأجبته :

– فلّة .

قال دريد : – ما كان ينبغي أن تقطفها ، فغداً ستذبل .

قلت باسماً : – إذن أقطف غيرها عندما يأتي غد .

قال ضاحكاً : – ستنهي الورد بهذه الطريقة ...

فعلق صالح : – لا تخف .. ثمة أشجار كثيرة يمكن أن تزرع .

تطاير من أمامنا باص «المهاجرين» الضخم ينحدر نحو «الحميدية» فتأملته بسخرية متقززة ثم نقرت بإصبعي على سور حديقة جديد .

قال دريد : – عندما كنا صغاراً علّمونا القناعة ، وحبّ الله ومحمد وما بني عليه الإسلام .

فرددت : – ثم قرأنا بعد ذاك « الذباب » و « كاليجولا » و « العادلون » . دعونا .. سأذهب من هنا .

وركبت الباص .

وفي البيت كان هلال يدخّن واجماً وملك تقف على عتبة المطبخ ساهمة . تأملتها باستغراب عابر ، ثم تقدمت ففتحت الراديو .

أعلن هلال مبتسماً :

ـ سنهجرك يا أستاذ .

قلت ويداي تعبثان بالراديو :

ـ إلى القاهرة ؟.

فرفع حاجبيه :

ـ اي نعم ، في الأسبوع الأول من كانون الأول ،

ما أقصر المدّة .

٣

في صفّنا وأيّ صفّ حلو الرؤى والتنبّؤات حفنة من أريج مفتاج فاغم الحسن . فيه « سحاب » ولو لم يكن فيه غيرها لكفاه روعة وتشويقاً . عيناها البنفسجيتان ترسلان أبداً سؤالاً حائراً ، لا السؤال تفهمه ، ولا الحيرة تدرك سببها . غير أنك ترى ، في انفراجة شفتيها الثريّتين ، شيئاً آخر ، إنه دعوة الحياة ، وتفتّح ، بسمة جزلاء ترتسم فما تلبث أن تندفق بين الضلوع بلهيب متحجّر أصم . إنها تنظر بتثاقل لا مبالٍ حزين ، حتى ليخيّل اليك أحياناً أنها تحمل ملء عينيها سراً دفيناً جارحاً ، وأن تحت الكنزة الرمادية الجميلة التي تنطرح على كتفيها في كسل يشبه كسل خطواتها ، أغواراً لا تسبر .

لم يكن وجهها غريباً عني ، لقد ألفته في العــــام الماضي ، لكنني لم أتعرّف الى صاحبته ، ومع أنني لم أشعر بشيء غــير عاديّ ، عندما سمعت بعض الرفاق في الصف يقولون «مطلّقة»، فقد رحت أتأمّلها من مقعدي المزوي في طرف القـاعة حتى انتهت المحاضرة .

دفدفت الى صالح نظرة عابثة وأشرت لهـــا ، فهزّ رأسه ببطء ثم أشار لغيداء ودريد في مقعد أمــامي . هززت رأسي بالمقابل وأرسلت الى فتاة ناعمة ، تثير نظرتهـــا الشفقة والدم ، تطلّعة فاحصة .

قال صالح : — من هي هذه المائل خشمهـا الى اليسار .. ذات الشعر الشبيه بالبندورة الفرنسية ؟

قلت له : — إن جمالها من نوع عدميّ .

— أترى التي بجانبها ؟

فنظرت للوجـه الصافي المشرب بشحوب فاتن أسير ، بينما هزّ رأسه ورنا اليها بتأمل شريد :

— مطلّقة ، وما أشد ما تغري !

وحيّرني بنظرة مذنبة . وبعد قليل شعرت ببخار يتصاعد من صدري فيضيقه . قلت بسكون :

— اذا صح هذا ، فمجيئها الى الجامعة شيء رائع . إن صفّنا يبشر بموسم خير .

ابتسم صالح : — الفكر يقدح ، والقلب يلعب لعبـــاً ..

الشاتوه والشلّة ، سيبدآن عملا .

خرجنا من القـــاعة ، وعند الحديقة انضمّ الينـا دريد . وانسحبت عيناي بسرعة الى مدخل الجامعة لتلتقيـا بسميحة تسير نحو الشارع الخارجي .

ـ أبا البشر .. ركضاً . نبر صالح ببشاشة .

وبالرغم من أن شعوراً أقرب الى شعور من يمشي في المؤخرة ، ملأني تعباً وإحساساً بالعقم ، فقد سرت كأنّ قدميّ مشدودتان الى المسير . تبعتها الى مديرية التسجيل ، وبين عينيّ صورتهـــا الملائكية ، وأيامي الضبابية السابقة التي مرّت بلا وقائع ولا ذكريات .

وصلنا الى محطة الحجـاز ، وأنا لا أزال أمشي بغير تصميم على المشي . وبعد قليل ابتلعها باص ضخم ، عجّ صوته الشخيري البشع يبعدهـــا عني سريعاً . وتعاقبت وراءه الباصات حتى اختفى .

جرجرت خطواتي نحو الجـــامعة عودة ، وبدأت أحملق بارتسامي في واجهات المخازن : كان في قعر الزجاج ، يتحرّك مبهماً بعيداً ، وفي عينيه بريق منطفيء كأنما ذابت منه للتوّ شمعة .

ـ سحاب مشتعلة .. إنها تحرقني .

ـ ما الفائدة ؟. فهي ليست عذراء !

عبر قعر الزجاج شبحان ، مسرعين ، ماتت أعينهما .

هل أعود الى الجامعة ؟ . أين أذهب ؟

بعد ربع ساعـــة دخلت مبنى الـكلية . رأيت في نهاية الرواق « سحاب » تثير بمشيتهـــا المتثاقلة مويجات مترفة من الخيال . كانت رغم الاستسلام العميق الطافي فوق خطواتهـا مفعمة بالنداءات ، رائعة الوحشة .

تقفّيت خطاها دونما تعيين ، وعندما انتهيت الى آخر الرواق كان طالبان واقفين يتأملانني :

– فلتانة .. قد تجد في الجامعة عريساً ، هذه نيّتها .

– ماذا يمكنها أن تعطي عريسها ؟ إنها لا تصلح لغير المتعة .

وصلت الى الحديقة وجلست على أحد مقاعدها . كانت الشمس تغزل أشعّتها في خمول ، والطلاّب يروحون ويغدون .

وأقبل صالح يضحك ، فسألني عن سميحة . ولم أدر كيف أشرح له ، فاكتفيت بجملة متعبة :

– إنها مخطوبة .

جلس بجانبي ، وطوّق كتفي بيده ، ثم سأل :

– وسحاب ... كيف رأيتها ؟.

فابتسمت وتأمّلت التراب الأبيض بين قدمي . وتابع صالح :

– في عينيها بريق لزج تحس أنك تستطيع أن تمسكه، لكنه يهرب منـك ، شأن الضوء ، ليعود فيجذب يدك وناظريك من جديد . عيناها ، أبا البشر ، عيناها.. يا الله ، كيف طُلّقت فتاة كهذه ! كان على زوجها قبل أن يطلّقها أن ينتحر !

علّلت لصالح ، بطريقة ما هذا الطلاق ، وأصخت بسمعي

لسكون الجو الدبق المثقل الضيـاء . الشمس في أوقات كهذه تبرعم في دفء أشعتها أحلاماً صغيرة هادئة ، سرعان ما تذوب ، ليعود بها الإلحاح : إلحاح الحيـاة ، والحاح الفراغ . ماذا تفعل الآن سحاب ؟. كيف تقضي أوقاتها ؟ التفتت الى صالح فلمحت على شفتيه ابتسامة ذات معنى :

– كأس .. وفراش .. وسحـاب .. وشيء من النسيان المطلق للزمن .

نهرته ضاحكاً : – هذه مثلك العليا .

وانتظرت منـه أن يتكلم ، فلم ينبس بشيء . التفتت اليه فوجدته يتأمّل « سحاب » وقد وقفت على درجـات مدخل النـادي .

تأمّلتها انا الآخر ، والشمس تطوّق تنورتها البيضاء بشعاع عاقل لعوب . بعد قليل سارت باتجاه الحديقة .

وغفلت عنها قليلا ، ثم رنّ في أُذني صوتهـا الأبحّ الأغنّ ، تخاطب زميلة لها ، فيحمل لي انطباعة عن إلّه بار ومات ، ولم يبق من صورته الا الخيال ، وصوته الا الصدى . ومع أن صوتها كان حزين النبرات ، لكن ارتعاشاته بقيت في ذاكرتي زمنـاً أبعد من مجرد التخثّر .

أحسست كأنني مخمور بكآبة تتنصّل من واقع الزمن لتلتقي مع سحاب بتمازج أثيري الشكل ، عنفوانيّ المحتوى ، بعيد كل البعد عن مئذنة رمادية عتيقة ، قرب بيتنا ، تنفصل عن العمارات

الجديدة حولها كسجين هارب .

وشعرت بثقل الانطباعة التي جثمت على صدري ، فسألت صالحاً :

— أين دريد ؟

وكأنما استفاق هو الآخر من تخثّر مماثل :

— آه .. أنت تعرف أين هو .

قلت شارد الذهن : — أراه متعجّلاً .

وسرحت . وبعد فترة أضاف صالح :

— عندما تحين اللحظة الحرجة يبطيء ويقف ، إنه دائماً يخشى شيئاً مبهماً يشلّ إرادته .

قلت لصالح بوجوم : — إنه يخشى من نفسه .

نهضنا ندور حول رصيف الحديقة ، وزرافات الجامعيين تغدو وتجيء ، وقد شعرت بغبطة العائد الى موطنه ، عندما يعيش أيامه الاولى في شبه لا مسؤولية . ثم ما لبث الشعور العابث ان استحال الى نظرات طويلة سامة . وسألت نفسي بملل : « أهو حقاً أول يوم من ايام السنة الجامعية ؟ »

ودعت « صالح » وانطلقت أغذّ الخطى الى البيت . كانت الساعة تقترب من الواحدة ، والشمس تتكبد السماء .

فتحت الباب ، ودخلت بسكون . رأيت ملك في المطبخ فتقدمت نحوها ببسمة متعبة ، وحيّيتها . وتبسمت بطريقة خاصة ، ثم هزت رأسها وقالت :

ــ ام .. لا أدري مـــاذا فعلت بثريّا . كل يوم عصعص .
وأمس دبّرت لك غرفة عند أهلها .. ولست أدري ..

فتحت النافذة ونظرت الى مطبخ ثريّا . كانت صلعة زوجها تلمع تحت ضوء النهار ، وقد طأطأ يقحف بقـــايا حساء بارد .
أغلقت النافذة ، وبصقت ، ثم تناولت العصعص من ملك .

انتقلت الى السطح حيث قابلت ثريا منــذ أيام ، وتأملت المكان خاوياً هادئاً ، يثير في الذهن بتحسّسه السادر ذكريات تتناوم رغم فراغ الأيام . قد لا يبتعد الزمن بثريّا قبل أن تطلّق زوجها . من يدري ؟. أهي نفسها الأسباب التي أرغمت سحاب على الطلاق ؟ . هل صادفت هذه « المطلقة » زوجــاً لصقة صدمت بأمانيهـا وتمرّد عنفوانها كما حدث لثريا ؟. يا لثريا ، إنها كسحاب تقاسي عذاب الغريزة والذكريات .

لو أنني أستطيع أن أضحكها ، كما أضحكت ثريا . إني أتوق لذلك ، فكم أودّ لو يضحكني إنسان ما .

هبّ النسيم لطيفاً طيّعاً ، فاستنشقت بعمق ، وتطلّعت الى دمشق تنحدر بيوتها عن قاسيون وتتجمّع في القاع ، وما أكثر ما في القاع من تجمّعات .

عدت الى البيت فرأيت « هلال » يغسل يديه :

– كيف بنات الجامعة أستاذ ؟.

أعلنت له : – في صفّنا أجمل فتاة فيهـــا على الإطلاق واسمها سحاب .

مسح وجهه بالمنشفة وقال :

– حاول أن يصير بينكما كذا مذا .

ومطّ شفتيه وحرّكهما شمالاً ويميناً . هززت رأسي :

– لا بد وأنها حسّاسة بالنسبة لقضاياك هذه ، فهي مطلّقة .

فتناول طعاماً لم ينضج بعد وأخذ يلتهمه وقال :

– جميلة ومطلّقة ! ما هذا الجمال إذن ؟ . لا بد أن زوجها قد ضبطها بشيء ما .. الرجل لا يطلّق زوجته الجميلة ما لم تكن فلتانة .. تعال لأهزمك بالورق ، تعال .

قلت له ضاحكا : – يا رجل حرام عليك ! أنت لم تسمع بعد إلا باسمها .

ثم أضفت : – اللّهم قنا شرّ النظام الإرهابي هذا .

٤

التقيت بصالح ودريد على الرصيف يحملان كيسي ورق ويضحكان . هتف صالح :

– أبا البشر .. هذه بيرة ونبيذ لنا .. تعال إلى غرفتنا .

وغرفة صالح مفروشة ، بعرف الإيجارات ، تنفتح مباشرة على صحن الدار ، وتستقلّ بسرير وخزانة وبضع كنبات ، وسألت دريد : – هات دريد .. قصّ لنا ماذا جرى .

خرج صالح لبعض التحضيرات ، ونقر دريد أنفه بإصبعه :

– لا شيء .

فتأمّلته منتظراً أن يتكلم أكثر ، فاسترخى على كنبته ، وندّت من صدره زفرة متهيّجة : « غيداء معقّدة » ثم قوس شفتيه

وأحنى رأسه ببطء ، ورفض أن يتكلم .

أقبل صالح يُرقص قدميه ، فوضع الأقداح على الطاولة :

– سنشرب نخباً جديداً اليوم .

وواصل تراقصه . قلت له :

– وستعرف شيئاً جديداً ، ولقد قصّت لي حسناء ، قريبتي ، أمس حكايا الطلاق والزواج وكل شيء .

مزج صالح البيرة بالنبيذ في كؤوسنا ورفع يده :

– والآن ستقصّ لنا هذا الكلّ شيء .

جرعت من قدحي بعضه وتأمّلت دريد بنظرة باسمة وقلت :

– يا سيدي ، هذه سحاب : عمرها واحد وعشرون عاماً . تزوّجت في الثامنة عشرة من مهندس يعمل في الكويت ، وقد قضت شهر عسل أسطورياً .. في اللاذقيــة عدة أيام ، ثم في استنبول ، فالنمسا فالإسكندرية .. فالكويت . اثنـا عشر الف ليرة في شهر العسل . إني لأبيع رقبتي بنصف هـذا المبلغ . وبعد شهر العسل اختلفت مع زوجها ، لا أدري لماذا ، لكن الخلاف ذرّ قرنه وأنتج فأتام كحرب زهير بن أبي سلمى . وكان أن طلبت الطلاق ، فرفض زوجها. وأخذت تذلّه اجتماعياً، أتدري كيف ؟. كان يخرج بسيّارتـه في شوارع المدينة فيرى المارّة واقفين يتأمّلونه بغرابة ، وإذ يوقف السيـارة ليستطلع الخبر ، كان يجدهـا راكبة على المؤخرة . ذلك في الكويت ، وسكّانها متمسّكون بالحشمة تمسّكاً قبلياً .

ـ الفكر يقدح .. لا بدّ وأنها « تعبانة » فتاة كهذه .

ـ واستمرّت حكايتها سنة وبضعة شهور ، ولدت خلالها بنتاً جميلة . وتريّثت لعلّ حياتها تتغيّر فتصبح ممكنة بعد أن ولدت ، لكنها لم تستفد شيئاً . تركته وعادت الى دمشق ، ثم التقيا في بحمدون ، فلم .. تستفد .. شيئاً . طلبت الطلاق . فرفض ، وأصرّت فأصرّ . عادت الى دمشق ، وذهبت الى بيت أبيه لتعطيهم وليدتها وتخبرهم أنها تريد الطلاق . ورفضوا استلام الطفلة . أتدري ماذا فعلت ؟. رمتها على رصيف الحديقة ، ورفضت أن تقابل زوجها أو أحداً من أهله ، حتى جاءتها ورقة من المحكمة فتطلّقت وتنازلت عن ابنتها .

ـ برررر . . ما أروع هذا التحدّي !.. لكني أعتقد أن قلبها تفحّم . قال صالح .

وردّ عليه دريد : ـ الجميل في حياة الإنسان ألا يرضخ لحسابية في الزمن ، بإمكانه أن يستجد حتى العواطف اذا لم تسعده .

قلت له : ـ لماذا لا تفعل ذلك دريد ؟.. قل لغيداء إنك تحبّها ، أبعد « الخضراء » عن ذهنك قليلاً فأنت تعيش في جامعة دمشق . لقد أعجبك سلوك سحاب الشاذّ بالطبع .

ـ أجل فالمجتمع صار عندها صفراً . لكني لم أستطع ، ولا أستطيع في وقت ما ، أن اقول لغيداء ذلك ، فهي كل يوم تمشي مع شباب من الجامعة . إنها سلبية ، لا أدري كيف ،

وداعاً تسدّ بوجهي الحديث .

كان صالح يدندن وكأسه في يده . وشربنا نخب سحاب ، ثم أعلن : « أعتقد أني أحبها »

انفتلت كلماته في رأسي كالخذروف ، فرفعت قدحي الى فمه وصببته داخله . أخذ يضحك ، ثم سعـــل ولفظ الشراب ، ونهض عن كرسيّه مغرقاً في قهقهة نصفها سعال ونصفها عويل . خبطت يدي على الطاولة وقلت :

– يا سيد صالح .. عرّف لنا الحب .

شكّل صالح بسبابته وإبهامه الرقم (٥) ، وأقفـل حاجبيه برزانة ثم قال :

– الحبّ حقيقة ووجود .

وانفلت إصبعاه في حركة دورانيـة من يده ، وتقدّم إليّ ضاحكاً . مدّ أصابعه تحت إبطي فأخرج الشبابة ووضع مقدّمتها في فمه : « يا الله أبا البشر » وأخذ يرقص الدبكة .

ونهض دريد فتأبّط يده وأخذا يدوران في الغرفة . ونهضت بدوري فرقصت منفرداً وفم الشبابة في فمي . ولا أدري كم مضى من الوقت قبل أن ننطرح على الكنبات ثانية ، ورؤوسنا تدور ، نلهث ، ونتأمل بعضنا بإمعان .

أخذ صالح يهزّ رجله بتؤدة وسكون ، ودريد يبرم رأسه حول حافة الكنبة بالهدوء نفسه ، وبشيء أكثر من اللهـاث . وقفت أشخص الى الشبابة ، وإلى ملك وهلال من خلالها ، وقد

مرحت مخيلتي في أيامي القادمة التي سأعيشها بأعصابي بلا أمل ولا اطمئنان .

نشم دريد ، ثم نفض من عينيه نظرة تحتية ، ورأسه لا يزال ينطرح على الكنبة ، وحوّمت على منتهى شاربيه ابتسامة متهافتة . وامتدّت يد صالح الى كأسه وأخذت تدوّرها بتأنٍّ وتعاطف وانتظار ..

ـ ما أجمل لو كنا في الجنوب .. في « اللديدة » .

وطفرت من عينيه نظرة حنان ، وأطاح رأسه للوراء ، فملأ فمه بمزيج البيرة والنبيذ البنّي اللون ، ثم انحنى بسرعة فاتحاً رجليه وطأطأ رأسه وقد برزت شفته السفلى الى الأمام .

ـ لا يمكن ، يا إخوان ، أن نستسيغ الحيـاة بملئها إلا في الجنوب . يعيش صاحبنا هناك حيث يبتسم النـاس ، دون أن يعرفوا ان وحدة عربية تنتظرهم ، وأن بإمكان جلودهم المجعّدة أن تتحمّل خلق حضارة جديدة .

ردّد دريد وعيناه عالقتان بالسقف :

ـ الحياة لا تطاق في كل مكان .

« ثمة لا بد من وجود مهرب » قلت لنفسي ، « وإلّا فكيف نعيش ؟ » . والتفت الى صالح :

ـ ولكنك لن تعيش في اللديدة ، فأنت مرتبط بالمدن قدرياً .

وأقبل إليّ تغزل مشيته وعيناه ، وأخذ يقبّلني بضع دقائق :

ـ نحن مرتبطون ببعضنا .

ونظرت اليه مبتسماً فرأيت في عينيه دمعتين حائرتين . وحجبت نظرتي نحوه ، وشددت على يده بتقليدية ملأتني للتوّ نفوراً وقرفاً . نهضت اليه بحميّة :

– لا بدّ سنخلق شيئاً جديداً .

وجلست على أرض الغرفة . ونهض دريد فجأة وأخذ يدور في الغرفة ثم يتأمّل الجدران مولياً إيانا ظهره . ثم نكس رأسه واجماً وعاد الى مقعده :

– يجب أن يتحرّر الإنسان من الوهم، الأوهام تقتل دقائقي. أمي وأبي يقيّداني . سوف أتحدّث ، الى غيداء في الصباح . لا أدري لماذا أبقى صامتاً .. نحن أحرار ، ونملك مشيئتنا .. ونحن أيضاً متحرّرون ، ويجب أن لا نخشى شيئاً . سوف أتحدّث لغيداء ، هذا أمر في منتهى البساطة . يجب أن يخلق كل منا نفسه كفرد ... أستاذ .. الفرد الإرادة الواعية .. الحرّة .

كانت سبابته تنتصب في الهواء :

– أستاذ .. أسمعنا شعراً .. أستاذ .. أريد شعراً ، شعراً يغذّي ، يشعرني أنه ما تزال في القرن العشرين روح تتكلم وأحاسيس فوقيّة تعيدني للحياة .

خبطت يدي على كتفه :

– الفنّ مات ... حبيب الجماهير ، ارتمِ على الارض ، فالفن مات ... وارته أحداث الحياة . عاشت الغريزة الجنسية! صالح !.. أتدري .. أتدري صالح ؟ أنت لا تحبّ سحاب بل

تشتهيها ، لكنك لا تقول ذلك لئلا تشعر بخزي انحطـــاط رغباتك . كلّنا هذا الرجل .. كلّنا نشتهيها . إذا بليتم بالمعاصي فاستتروا .. أي مبدأ !! لقد اصبح اشتهاؤنا للمرأة جريمة . إن صفير القطار الحادّ يعلو في الجوّ على قرع أجراس الكنائس .. اسمع .. لقد وصل الى المحطة .

تناولت الشّبابة وخرجنا . كان الشارع ينفتل أمامنا ، والسيارات الصغيرة تتطاير فوقه ، كأنها على موعدمع الشيطان، فتترك في أعيننا ذيلاً متفسّخاً من النقمة .

وضعت مقدمة الشبابة في فمي ونفخت . وبينما تراقص صالح أخذ دريد ينشد .

انعطفنا كثيراً ، ومررنابأزقّة متعدّدة ينتهي بعضها بالآخر . وأعلن دريد :

– إذا صادفت فتاة في الشارع فسأقبّلها .

وواصلنا الخطى . « لا بدّ من نومة في النظارة .. أنا أشتهي أن أنام في النظارة من سنين » قرّر صالح .

كنت لا أزال أنفخ في الشبابة .

– است .. است .. هي ..

أخــــذ صالح يلوح بيده وينادي سيدة تقف في الشرفة . جلست على الأرض باتجاهـــا ونفخت أغنية شعبية . ولكنها دخلت بهدوء وأطفأت النور . وبقيت في مجلسي وقد غامت في ذهني الأبعاد .

في زقاق ثانٍ كان شبّاك أرضيّ مفتوح يشي بضوء ينبعث من غرفة داخلية دون أن ينفذ الى الخارج .

طأطأت رأسي فرأيت صبية تجلس بلباس النوم على كنبة وثيرة ، متهدّلة الشعر واليدين . أشرت لهـا بيدي ثم لوّحت أصابعي . وابتسمت مشيراً الى صالح أن يأتي الي .

تناولت الصبية عن الارض حذاء ولوّحت به . فجلست على الرصيف ، وتابعت هي التلويح ، وبعد ثوان اصطدم الحـذاء بحديد النافذة ، وارتدّ على أرض الغرفة المظلمة .

أخـذت أهزّ رجلي هزات قصيرة ويدي لا تزال تلوّح في الهواء حتى أغلقت الصبية الباب الذي نراها منه .

سحبت شبّابتي وبدأت أنفخ. وأقبل دريد وصالح فجلسا بجانبي يحركان أصابعهما مع النغم فوق ركبهما .

بعد قليل شعرت بالتعب ، فطوّقت ساقيّ بيديّ ورميت لصالح نظرة منطفئة . ضحكنا .

فتح الباب الداخـلي بتسرّع وأطل منه رأس مرفوع الحاجبين تساؤلياً ناعماً . لوّحت لهـا بيدي فأسرعت تغلق الباب . نهضت الى باب الشقّة . كان الضوء منطفئاً . عدت فنظرت من الشباك ثم قلت لصالح :

ـ أطفأت الضوء .

وتقدمت للباب ثانية ونزلت الدرجات القليلة التي تنتهي به، فجلست على آخرها ، وبدأت أنفخ بالشبابة .

بعد دقائق لحقت بدريد وصالح ، وكانا يستندان الى حائط طويل ويدخّنان بانتظار . قرّر صالح :

ــ نريـــد امرأة ، نهدة الكفل ، والصدر، ضعيفة الخصر والإرادة .

ثم بصق وتابع :

ــ ما أحقر أن تنتهي مشاكلي بامرأة !

وسأل دريد :

ــ من أين نجد امرأة ؟ . الساعة الآن .. الثانية عشرة .

ونظر اليّ نظرة خاصة فضحكت .

كنت أعرف « أبا الخير » معرفة وثيقة . وهكذا غمزني صالح أن أذهب اليه ، فمشينا معاً ، وسار دريد وراءنا بخطوات .

ودخلنا الزقاق نستحثّ خطى متعبة واجفة ، وتُخفينا عن دمشق بيوت كامدة من الطين لا لون لها .

ثمة كانت امرأة في آخر المنحنى تقف بسيماء منتظرة ، هربت عندما رأتنا ، فابتسمنا وتقفّينا اتجاهها .

عند الزاوية نبهه صالح ، فالتفتّ اليه . كانت ابتسامة مذنبة تزيد على وجهه :

ــ أنت تحب حقاً ان تذهب للنظارة ؟ . دعنا من هـــذه المحـــاولة .

ــ انتظرني عند رأس الزقــاق ، وسأعود اليك . انتظر مع دريد .

فوقف متردّداً وتقدمت .

– دعنا بشر .. دعنا منها هذه الليلة .

فابتسمت وتابعت المسير . وكانت دار أبي الخير مفتوحة فدخلتها . رواق مظلم لا حياة فيه ، ينتهي بسلّم خشبي ، وقفت عنده وصحت : « أبا الخير » . وردّ عليّ صوت متناوم فقلت له : « تعال ».

ونزل أبو الخير بثيابه الداخلية ، فوقف بجانبي ، وكانت تجعد وجهه ابتسامة صفيقة مازحة :

– تأخّرت جارنا .. الدنيا منتصف الليل الآن .. تعال غدا .

– لا .. نريد الآن .

– والله ما عندي ..

– الله يلعنك .. تصبح على خير .

وشيّعني أبو الخير ببضع جمل علكها ويعلكها دائماً ثم صعد . وقفت عند الباب ورحت أتأمّل البيوت الخالية من الضوء والمنتنة بأبشع صورة . وتنبّهت الى حركة خفيفة فالتفت شمالا . كان ضوء أزرق ينبعث متمزقاً من غرفة فتح نصف شباكها وأطل منه وجه امرأة زاهياً نضيراً . تبيّنت فيها المرأة التي هربت منا عند المنعطف ..

– ماذا تريد ؟ .

فمسحت أسناني بلساني برهة ، ثم نهزت رأسي وقلت :

ـ غرفة للإيجار .

أجابت بلذعة هادئة :

ـ الآن ؟. الغرف يبحث عنها في الصباح ، ليس الآن .

سألتها وقد بدأ قلبي يضرب بعنف خانق :

ـ عندك غرفة ؟

ـ هذا تسأل عنه في الصباح .

قلت ببرود : ـ لو جئت صباحاً فماذا تقولين ؟.

أجابت بنبرة خاصة :

ـ عندما تأتي صباحاً تعرف .

وتقدّمت خطوتين بجهد بالغ . كان نبض قلبي يتمارم بشدّة :

ـ وإذا جئت الآن ؟

ـ تعال بعد قليل .

وأغلقت الشباك ، ثم نقر أذني صوت مشيتها المؤنّثة تبتعد الى الداخل .

ووقفت حائراً . نظرت الى الباب بتردّد ، وهرشت رأسي . وأعجبني الوقوف بعد أن أعياني إيجاد تصرّف آخر .

ـ ماذا تريد في هذه الساعة ؟.

كان الصوت لسيدة عجوز ، وقـد سقط عليّ من أعلى . ورفعت رأسي فرأيت شبحها ملثّماً بالبياض يتقعّر فوقي أشبه بالغول .

ـ ماذا تريد في هذه الساعة ؟ .

فرفعت رأسي ثانية وتأملتها ، وخيل إليّ أني لم أعد أريد شيئاً ، فسوّيت وضع رأسي ، وسرت متخاذل القدمين . التقيت بدريد وصالح ينتظرانني عند مدخل الزقاق . الاضطراب أخذ يشتّت حتى تفكيري، وحرارة دافعة في صدري بدأت ترمح وتفور بعتوّ جامح . شعرت بطبيعتي الداخلية متحجّرة ملتهبة ، وبأعماقي تطنّ ويصطخب فيها عنفوان بدائي مرمض . وتقبّضت يدي بلا إرادة ونظرت لهما بخبل :

– اسمعا الآن .. سأقصّ لكما ما حدث، فقولا لي ماذا ينبغي أن أفعل . أعتقد أني لا أستطيع التفكير بالمرّة ...

فصّلت لهما ما حدث :

– هذه التي كلّمتني محترفة وسأعود اليها . قولا لي فقط الطريقة الأنجح .

وسحب دريد منديله بصمت ، ففتحه وجلس فوقه على الأرض . وأخذ يتأملني ببلاهة ، بينما أعلن صالح :

– فكّنا .. الدنيا ليل .. من يدري ماذا يصير معك ؟

ألفيت نفسي متحمساً أكثر :

– هذه محترفة ؟

فاستدار نحو الحائط الخرش ينقر عليه بإصبعه . ووقفت بجانبه أنتظر جواباً ، وفي أنفي رائحة غابيّة تكتم النفس.. كان تحسّس أرعن ينغل في صدري بحميّة وعنفوان ، ورأيت ساقيّ تتحرّكان فتسيران في شبه دائرة مفلطحة .

مضت بضع دقائق . الرائحة الغابية لا زالت تعبق في أنفي، والتحسّس الاضطرابي الأرعن ما زال يدوّم في صدري .

ـ أعتقد أني خرجت عن طبيعتي .. أنا أعلم أني سأندم على ذلك غداً ولكني سأذهب .

وتحركت نحو الزقاق بحزم وهدوء . وأخذت حبيبات رمل متناثرة تحت حذائي تصدر صوتاً يجرح صمت الليل . مشيت على كعبي ثابتاً بطيئاً ، وانعطفت عند الزاوية ، كأن الضوء الأزرق ينبعث مترفاً . بدأت أضطرب فتركت راحة قدمي تستقرّ على الأرض ، ثم سرت فوصلت الشباك .

ـ ماذا تريد في هذا الليل ؟ .

هززت رأسي بمقت وأخرجت زفيراً متضايقاً .

ـ ماذا تريد .. جئت متسّرقاً تبصبص من الشباك ؟

رفعت رأسي نحوها بفتور وقلت :

ـ يا أختي ، أنتِ ما دخلك ؟ دعي الناس وشأنهم !

ـ لا يجوز أن تأتي فتبصّ من الشباك بهذه الطريقة ، العالم نيام .

التفتّ نحو الشباك بغير اكتراث ، وتأمّلت الوجه الزاني النضير ، ثم عدت أدراجي في هدوء .

عندما وصلت بداية الزقاق كان ما ورائي يعجّ بالأصوات . هرعت أنعطف باتجاه آخر ، وبعد قليل أقبل دريد وصالح بتأنٍ فلحقا بي . وجلسنا على درج رخامي كنا نقف بجانبه .

وفي هدوء نشم دريد ثم نقر أنفه :

— أعتقد أنني أتمنى لو فعلت مثلك . أجل لقد كان بإمكاني أن أذهب معك وبكل بساطة ... أنت لم تربح شيئاً ، لكنني أنا ، خسرت . كم أودّ أن أثبت لنفسي دائماً أن المجتمع صفر .

اعترض صالح : — لا ربح ولا خسارة، فكـّنا من الموضوع، انتهى .

رفعت رأسي فرأيت صليباً حجرياً يلتصق فوقي على الجدار : هذه كنيسة يا جماعة !.

وتأملناها معاً ، وضحكنا بخفوت ، شعرت أنني منطفىء ، وأن برأسي زئبقاً . كنت جدّ بعيد عن البيت .

٥

المطر يغسل الفضاء ، وحبّاته تسقط على الأرض فتتناثر أشبه بخيالات تولد دائماً وتندثر . والحبّات والخيالات مـا تني تتميّع في كآبة ذهنية وخيمة تتماثل وحالة المثل العليا : إن إلحاحاً مسرفاً لا يلبث أن يعود بها ، إلحاح الحياة وإلحاح الفراغ ، لعله قلق البحث عن مصير .

– هذه فتاة عاهرة .

كان شاب يتطـــاول بأنفه تحت المطر ، ويركض فيرقى درجات السلّم ، ثم يمر متجهاً الى النادي .

بصقت .

سرت حول رصيف الحديقة ، والمطر مازال يغسل الفضاء .

أدركت أني سأتبلّل بكل يسر، فالمطر يتخلّل مسام الجوّ بأكملها. نكست رأسي وعدوت نحو كليـــة الحقوق بأقصى سرعتي. عندما انتهيت الى المدخل اصطدمت كتفي بقامة طويلة ممشوقة برزت أمام وجهي فجأة.

زدت أسفاً عندما علمت أن القامة لطالبة، واضطربت عندما تبيّنت أمامي وجهاً خريفياً شاحباً. ابتسمت لاني أمسكت يدها في اعتذار يسير.

– آنسة سحاب !.. لا أدري كيف أعتذر لك.

– المطر نعمة الربّ، فلماذا تهرب منها؟

وسارت تخبّ بسكون سادر أشبه بحطب أخرس يشعل لهباً. هذه امرأة كاملة تسير بردائها البنّي المخطّط رويداً ورقّة، تعبر حديقة خالية من الناس والمطر ما يزال يغسل الفضاء. أين تذهب الآن، والمحاضرة توشك أن تبدأ؟. إنها الثورة نفسها التي دفعتها لطرح وليدتها على رصيف حديقة ما في قلب دمشق المهترىء.

انتبهت ثانية الى المطر ينفذ من ثيابي فيسيل على جسدي، وتأمّلت السماء بابتسامة واسعة. كانت الغيوم تحجبهـا بأكملها وترسل الى الأرض مطراً غزيراً، قوياً، صافياً يغسل الفضاء.

بعد أن جلست في مقعد بالقاعة، أقبلت تنتصب ملء العين، ثم دخلت فجلست قرب صويحباتها. الرداء البنّي ما زال يلفلفها، وحبّات المطر تقف لحظة عليه ثم تنحدر، وترسم أخيراً مجرى متعطفاً صغيراً. إنهـــا نفسها ذات الوجه الشاحب والعينين

الراقصتين ، سوى أنها تجلس أمامي الآن ، فتثير بي حساً كحولياً مرمضاً .

لم أفهم من المحاضرة شيئاً ، ولم أهتم لأن أفهم ، ذلك أني استهلكت الوقت نظرات اليها وغمزاً من صالح .

عندما انتهى الوقت واتجهنا خارج القاعة ، لحقت بها وقلت :

ـ هذا المانطو الحلو يا آنسة لم يدعني أفهم شيئاً .

وتلفتت وراءها كمن فوجئت ، ثم أسدلت جفنيها ، وقالت بخشونة مقصودة :

ـ لماذا جلست ورائي ؟.

تذكرت أنها هي التي جلست أمامي ، ومع ذلك أُسقط في يدي ورددت :

ـ لا لشيء .. جئت فجلست .. لقد جئت الى مقعدي قبل أن تأتي أنت الى مقعدك .

أيقنت أني استحضرت رداً مفحماً ، فانتصبت أكثر ، ومرت دون ان أتكلم معها .

ـ بدأت شلّة غرانق عملاً .. الفكر يقدح .

حيّيت صالح مبتسماً :

ـ أريد أن أتعرف بها فقط ، اؤكد لك أن سلوكها عند الحديقة، وفي القاعة، حيّرني . لقد زادني رغبة في التعرف اليها، رغم أن هذا التعارف لا خير فيه : أتدري صالح .. إن فيها

شيئاً خاصاً وغريباً ، هذه البنت .. ما الذي جذبك اليها ؟

وفيما سرنا في الرواق ردّ صالح :

- فيها شيء غامض أحار في تفسيره ، لكنه جذاب وهي أكثر من هذا شهيّة حتى لتهتك أستار القلب .

لكزت صالح :

- انظر سميحة ، إنها تعبر الرواق البخيل الضياء .

ومشيت طيلة الرواق أرتعش بنبض قلبي ، وأغالب تدفّق العاطفة والعاصفة في شعوري .

وضحك مني . فابتسمت وقلت :

- كيف لا نلتقي بهن قبل أن يخطبن (أنا مخطوبة وإن كنت لا تعلم ذلك) .

غيّمت ضحكة صالح وأجاب بسخرية مبطّنة :

- كيف لا تلتقي بهن قبل الزواج والطلاق ! .

بلغنا نهاية الرواق واستدرنا ، وعند مدخل الكلية كانت سحاب تتقدّم باتجاهنا . سألته :

- هل يصنع الطلاق مشكلة ؟ .

فهزّ رأسه بقنوط :

- كل المشكلة . لكني لا أظن أن القضية بلغت هـــذا المستوى .. أعتقد أني أشتهيها ، كما قلت لي أمس .

سمعت ورائي خطوات فلم التفت حتى حاذتنا . وتطلّعت نحوها بغير مبالاة ثم هممت بالتصفير . وفجأة ركزت عينيها

الضاحكتين بعيني ، فأرسلت للتوّ فيهما مسّاً كحولياً جديداً .

التفتُّ إلى صالح بنظرة مذنبة ، فوجدته يتأمل من شباك الرواق الحديقة الداخلية . أُطرقت .

في القاعة جلسنا على مقعد واحـــد ننتظر الأستاذ . وبعد قليل أقبلت سحاب فجلست بجانبي :

ـ « الحسناء القاسيـة » لكيتس ، كيف يعطينا شعراً لنترجمه ؟! هل ترجمته ؟ .

كنت متحرّجاً من صالح فتحرّجت منها . وفي عقدة اضطرابي سحبت دفتري وقلت :

ـ أجل ترجمته شعراً .

فنظرت اليّ بدهشة وتراقصت في مخيلـتي عيناهـــا البنفسجيتان . قالت :

ـ تعني ترجمته بالعربية شعراً ؟ ! .

كان صالح يتأمّلنا ويبتسم . وفجأة نادتها زميلتها في المقعد الأمامي فنهضت . وعلّقت : « سنقول لك : مـــع الأسف » فتألق وجهها ابتساماً وسألت لماذا ؟ أمعنت فيها نظرتي برهة ، وأمعنت ثم قلت :

ـ لقد جلستِ بجانبي وعليك أن تتمّي جلستك .

كانت ابتسامة صامتة تتلاعب حول شفتيها الطريّتين عندما أمسكت بكتبها وانتقلت دون أن تتكلم . واذ ذاك ملأني حرج كبير ، فتشاغلت بتقديم ترجمتي للأستاذ . وفوجئت أنه أعجب

بها وطلب أن أكتب أولى مقاطعها على السبورة ، فأحسست ببعض التسرية .

عندما خرجنا من القاعـــة ، انضمّ الينا دريد ، ثم تقابلنا مع سحاب ورفيقتيهـا ، سألني بعض الأسئلة عن القصيدة . وعلّقت :

– جوّ هذه « البالاد » غريب .

فعقّب صالح :

– لكنه عاطفي . .حتى لقد شعرت أني الفارس المعذّب فيها .

ضحكت الفتيات بصفاء ، وسأل دريد :

– ألم تشعرن بالغضب من السيّدة التي عذّبته ؟.

قالت سحاب بسرعة :

– وكذلك برثاء متضايق بالنسبة للفارس الذي أخلص لهـا بلا سبب ، وأحبها فوق ما تستطيـع أن تتقبّله من حبّ .

خيل لي أن لكلام سحاب معنى ، ولما هممت بالتعليق رأيت أنا بلغنا باب الحديقة ، فتودّعنا .

كانت نسمات دمثة تنطلق في الفضاء ويد خريفية الحبور تعبث بقلبي رقّـــة وهوناً . أحسست أني أريد أن أطير . وأن في الكون أشياء عميقة ينبغي الوصول اليها بإلحاح .

انفصلت عن الجامعة وعدت الى البيت . وأخـــذ العبث الحروري العذب يتلاشى مني ، وبعد قليل شعرت بتثاقـــل يوهن ساقي .

سحاب مطلّقة ، تلك هي المشكلة .

وصلت الى البيت فتأمّلتني ملك مقطّبة الجبين :

ـ أنت غاضب ،ماذا جرى ؟ . ماذا جرى ؟

ضحكت :

ـ لا شيء .. حياة فقيرة يا ستّ الملوك .

استلقيت على السرير، وتأمّلت المئذنة الرمادية العتيقة تنطلق دقات في الفضاء الخارجي الفارغ مكفهرة الى الأبد . كانت الساعة ترتمي فوق صدري ثقلا كبيراً حائراً .

امرأة ما، « نهدة الكفل والصدر، ضعيفة الخصر والإرادة، ساحرة الملقى والمبسم، تجتثّ أصول الفراغ والعدميّة من دقائق الأيام .

٦

التقيت بدريد يتمشّى على رصيف الحديقة فسلّمت عليه :

— هم .. ماذا حدث لغيداء ؟

وهزّ يديه بعصبية ثم ابتسم ابتسامة مهزومـــة ساخرة . وتابعت تأملي له ، فضحك :

— مزيداً من التفـــاهم والتجاوب . إن شيئاً ما ينقصنا ، أحسّه كلما جلست بجانبها . هل تذكر ما قلته لك في سكرتنا الأخيرة ؟ . لقد تناسيت كل العوائق التي أحسّهـــا ولا ألمسها عندما ألتقي بها ، وضعت أمامها غابة كثيفة من التحدّي . وجئت الى الجامعة فالتقيت بهـــا في الندوة . جلسنا معـــاً . « كيفك غيداء ؟ » . « مبسوطة » أسقيتها قهوة ، وأردت أن

أحبب اليها كمقدّمة للحديث فقلت :

ـ « احسبي لي بالفنجان » . ماذا لو حسبت لي بالقهوة ؟ . رفضت . لم أدر ماذا افعل . قضيت معهـا أكثر من ساعة ولم نتحدّث بغير الدرس والمحاضرات . إنها تحيّرني: مثقفة ، راقية ، متواضعة ، جميلة ، في منتهى الوداعة ، فكيف يمكنها أن تظهر سلبيّة بهذا الشكل !!.. إنها تفهم أني .. أني أريدها ، فلمـاذا لا تظهر لي أنها تفهم ؟

صمت دريد لحظة ثم أكمل :

ـ دعوتها لنلعب بكرة الطاولة .. فقالت إن هذا معيب ، ولما سألتها عن وجه العيب فيه ، قالت إن فستانها قد يرتفع ، او أنها ستهتزّ وهي تلعب ، وباختصار أنه لا يليق . وأعترف لك أني رأيت مرة إحدى الطالبات تلعب فأثارتني ، لذلك لم أتضايق لتبريرات غيداء ، لكنني رأيت فيها تناقضاً ، فقـد كنت ألمح لديها رغبة دفينة بأن تلعب . وأعترف لك ثانية أنها لو لعبت معي لما أحسنت تفسير لعبها . إنها معقّدة .

صمت دريد وسار مطرق الرأس . والتفتّ لأتفادى إحراجه فرأيت سحاب تقبل نحونا ، تهتزّ بخطواتها السريعة كوتر مستثار ، وتدفق من شفتيهـا الطريتين ـ لست أدري كيف رأيتها ـ تلك البسمة الألاّقة ، ببريق قدّ من عينيهـا الرائعتين . كانت الابتسامة لي فقلت: مرحباً .

لم يعلّق دريـد بشيء ، واستمرّ يحدّثني عن غيـداء ، حتى

وصلنا الى القاعة فوقفنا الى أقرب شبّاك بانتظار بدء المحاضرة .

أقبل الآذن يعلن اعتذار الاستاذ عن المجيء . وتعالت من المقاعد همهمة مبتهجة خرج بعدها الطلاّب الى الرواق ، وسرنا معهم . بعد ثوانٍ أدركتنا شلّة سحاب ، ووجدت نفسي أدعوهنّ للمقصف بهدوء وإصرار ، و قبلن الدعوة : سندخل غرفة الطالبات قليلاً ونأتيكم .

سبقناهن الى المقصف وجلسنا . قال دريد فجأة :

– سحاب تنظر اليك يا بشر .. صحيح أنها كانت منزوية عندما كنت تحدّثهن ، لكنّها لم ترفع نظراتها عنك .

أبهجني كلام دريد فسألت « حقاً » ? وشعرت أن كلماته أهمّ وأكثر جدّية فقلت :

– إنني أرثي لها ، ولعلّها تلمس ذلك من حديثي ونظراتي ، وتحسّه بطريقة شعورية ، هذا ما في الأمر ، أنت تعلم أني أحب الفتيات الشقراوات وهي سمراء . وإذا كان ثمة أكثر قلت لك إنها ما لم تحتكّ بي جسماً لجسم كما حدث أمس ، فلن يكون بيننا أية إشارة من أيّ نوع . كنا نجلس خمسة في المقعد ، وكان لا بد أن تلتصق بي ، ومضى الدرس كله نغبشات ترعش ردفي الأيسر ، وغالباً ما كان ساعدي يلتصق بخصرها الضامر ويستلقي على كفلها الرعبوب . ولعلك تستنتج شيئاً إذا قلت لك إنها كانت تحدّثني بطلاقة عجيبة ، وتسألني عما لم تفهمه من الأستاذ ، بينما بدوت مخدّراً ، مخثّراً كأني لم أضمّ بعد امرأة

في حياتي . لقد أطلت التفصيل لأثبت لك أني لا أفكر بها ، وأني إن كنت أحب أن أتعرّف بها فللوقوف على سرّ الروعة العجيب في تصرّفاتها كزوجة وأمّ ، لا أكثر . أنا أعلم أن صالحاً يحبّها بطريقة ما ، وأعلم أكثر أن أية صلة بيني وبينها ، ما لم يكن رائدها الزواج الفوري ستؤدّي الى أن ينهشها ثمانية آلاف لسان من الطلاّب المداومين في الجامعة .

نهضت فابتعت الجزازات ، وبعد قليل استقبلنا الفتيات وسألناهن عن الشراب الذي يحببنه ، فاقترحن أن تحضر كل واحدة شرابها بنفسها .

أحضرت فنجاني قهوة لي ولدريد ، وعدت الى الطاولة . وبعد لحظات أقبلن فجلسن حولها .

وتسلّم دريد الحديث ، فأغرق الفتيات في حلم فيضي من مثله ومخطّطاته حتى سكتن كلهنّ وتابعن حديثه وموسيقاه . أخذت أنظر الى سحاب بين حين وحين . وإذ أحسّت بكثرة نظراتي بدأت تحوّل عينيها الفسيحتين عن دريد ، ثم تنظر لي بسكون عميق ، وقد انفتح هذان الدنّان من الأزجال والفتن على سؤال مغلّف بالنور . ثم أخذنا نبتسم بهدوء وتأمّل واستغراق .

لم أدرِ كم من الزمن مرّ ، ولم أشعر به . انتبهت اليهنّ ينهضن فنهضت ، واتجهنا للقاعة الثالثة . وهناك جلست الفتيات في مقعد ، جلسنا وراءه . وبعد دقائق شعرت بالملل من الدرس فتراخيت في جلستي . ومددت ساقيّ تحت المقعد ، فاصطدمتا

بقدمي سحاب . طأطأت رأسي للأسفل فرأيت ساقيها متصلّبتين عائدتين الى الوراء . وأرسلت قدمي الى الأمام مرتعش الصدر ، وبالتدريج جعلت أقترب بهما من قدميها حتى التصقت الأقدام دون أن تشعر بها ، ثم أخذت أضغط عليهما . مضى بعض من الوقت ، وما لبثت الفاتنة أن سحبت قدميها دون أن تلتفت . وشجّعني صمتها على الاستمرار ، فتريّثت حتى أعادت ساقيهـــا للوراء ، فأعدت العملية ، وشددت قدميهـــا بحيث لم تستطع الإفلات بهما .

انقضى الدرس ، والعبث لم ينقطع . وانسحب الطلاب من مقعدي ، فبقيت فيـه حتى التفتت فتأكدت من هوية المتطفّل على قدميها الصغيرتين. لم تعبس ولم تتكلّم، فشجّعني هذا التصرّف الصــامت على السرور من فعلتي . وازددت يقينـــاً من جهة أخرى ، بأن لهذه الفتاة وضعاً غير طبيعي تعانيه بمرارة .

تطلّعت الى وجهها الخريفيّ الفـــاتن ، يهزر بالفتنة والحلم والبساطة ، ولم أكد أملك نفسي من الدهشة حين رأيت تراقص عينيها وسكون وجههـــا . ودهشت ثانية ، وبصورة أعمق ، حين رأيتها تبتسم فتأكّدت من أن انطباعة خدّيها قد خدعتني ، اذ التمعت عليهما من العذوبة نشوة مفرطة غريبة الحبور .

في اليوم التالي تغيّر شيء ما معهـــا . لقد بدت لي لأول مرة غير عادية : تلفّتهـــا ، غنجها ، شعرها ! بالأمس فقط كانت هادئة ، واليوم أحسست بهـــا ثائرة عارمة.. الثورة نفسها التي

دفعتها لطرح وليدتها على الرصيف . وضحكت لي ، ضحكة تبطن غير ما تظهر ، تحمل دعوة وتقدّم جسداً ، دعوة مغرية ، وجسداً في أوج تفتّحه : لقد كانت تسير مع زميلتهـــا، وفجأة ركزت بي عينيها الضاحكتين ، فأرعشت نبض قلبي ، ومـــا لبثت أن أبتسمت لها .

فكرت : هل يمكن أن تصلح لي زوجة فتـــاة مثلها ؟ . واستعرّ بي نشاط محموم . تذكّرت مؤخّرة السيارة ، والرصيف وعينيها المتلاعبتين . « هذه فتـاة عاهرة » كان أحد الطلاب يطلق حكمه بكل بساطـة . تأمّلته بازدراء : كيف يتصوّر الشرف بعض الناس !. وفوجئت به يقف فيحدّق بي مستخفاً ، ثم يتقدّم نحوي فيعلن :

— أعتقد أني أسأت لشعورك ... اسمح لي .

تأملته ثم أجبته ممتعضاً ببطء عاقل :— لا أعتقد أنك تعرف كيف يساء للشعور .

فتأمّلني مقطّباً وقاعدة وجهه لا تزال هازئة :

— أعترف لك أني لا أدري أأنت تمدحني أم تذمّني .

وتقدّمت منه مغيظاً فلكته على وجهه ، ثم صفعته على الخد الثاني . وانتظرت منه أن يتقدم ، لكنه تحـــامل الى جدار الكلية ، فاستند وقال :

— لماذا ضربتني ؟.. لو كنت في صحّتي لما سكتّ لك .

عقدت ما بين حاجبيّ ، ووجّهت له نظرة استفهام حائرة .

وأدركت أني سأشعر بحرج شديد ، فلم أشأ أن أصدّقه . ونبرت ببضع كلمات :

– « إذا لم يكن بوسعك الضرب ، فليكن بوسعك أن تحترم غيرك . »

ثم تركته وسرت .

لماذا تصرّفت هكذا ؟ وقضيت النهار كله متضايقاً سريع الغضب .

عندما رجعت الى البيت في المساء ، كان هلال يَحزم أغراضه وملك تبكي . أدركت أن قد حان الرحيل .

– من سيلصب معك الورق بعد اليوم يا أستاذ ؟

كان يبتسم ابتسامة حزينة ، تتخفّى على شعور بالذنب لا مبرّر له :

– إذا احتجت نقوداً فاصرف من راتبي بالإقليم الشمالي ، فسيصرف لنا راتب آخر في القاهرة .. وأرسل لنا رسائل . خذ البابور فقد تودّ أن تسلق عليه عصعصاً .

أحسست بعيني تمتلئان برطوبة ساخنة ، وأمسكت بالكرسي . كانت ملك جالسة ، وما زالت تبكي .

منذ نصف عام سكنت مع هلال ، وخلال هذه المدة فقط من عمري تذوّقت طعم العائلية ، وشعرت بالشبع من طبخ البيت ، وراحة جوّه ، ولذّة حياته . أما الآن فسأعود الى ما كنت عليه طيلة سنوات مضت في الثانوية والجامعة : غرفة

أشاجرهـــا ، ووحدة طويلة طويلة تعتصر أعصابي وتنبح في شراييني .

تأمّلت هلال سـاهمــاً ، ثم نهضت أساعده في حزم أمتعته داخل الحقائب ، وخيّم على الغرفة سكون جارح ، يفتح على صمته ، شفقي الذكريات . وانتقلت ملك الى المطبخ ، وبعـد هنيهة عرفت أنها تتحدّث مع ثريا .

ـ هذه الصورة لنا . . أتأخذها أنت أم نحن ؟

انتصب هلال في وسط الغرفة يحمل بيده صورة لنــا في (المعرض) .

هززت يدي ، فقد كان الخيار صعباً ، وبعد قليل من الحيرة قرّر هو بنفسه : « اتركها معنا » .

وعدنا نحزم الحقائب . وبعدما يقرب من ساعة جلسنا على الكنبات وأخذنا نتحدّث . ولمــا كان على هلال أن يستيقظ مبكراً فقد ذهب كل الى فراشه بكثير من الحزن .

وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي ركبنا الى المطار . وفي الثامنة أقلعت الطائرة تشقّ عباب الفضاء .

الفصل الثالث

١

غرفتي الجديدة جميلة ، منزوية ، في الطابق الثالث من عمـــارة ضخمة يمـــرّ أمامها باص « المهاجرين » . ومنذ اليوم الأول لسكناي فيها لم أستطع أن أمكث بين جدرانها سوى بعض الساعة ، إلا عندما يزورني دريد وصالح ، فنحتسي معاً بعض البيرة ونتحدّث عن حياتنا .

لم أتعرف بأهل ثريّا . بل لقد أظهرت لهم تحاشياً مقصوداً فامتنعوا عن دخول الغرفة .

وهكذا درجت بي الأيام : في الغرفة سكون ليس بالسكون وعزلة منفّرة مقبضة ، وفي الجامعة موجة عنفوان تصطخب بي وتنفتل ، وفي مقدمتها سحاب . لقد ازدادت صلتي بها حتى

بتّ أعتقد أنها أنما كانت تأتي الجامعة لتلتقي بي وأني أنا الآخر أفعل ذلك للسبب نفسه .

وقد التقت بي يوماً أسير مع حسناء عند صندوق الرسائل ، وكانت مع زميلاتها ، فسلّمت علينا ، ونظرت إليّ بقلق متسائل ثم أخـــذت تستفسر عن أحوال حسناء وصحّتها ، فيما قلت للزميلات :

– إني لأرى كلّ الرسائل إلاّ الخاصّة بي .

والتفتت فقالت :

– إذن فأنا أبحث لك عن رسائلك وأنت تبحث لي عن رسائــلي .

– هذه طريقة مريحة ، ففيها يصبح التحدّث معك مشروعاً .

ضحكت وهتفت :

– صحيح .

فرنّت حروفها في أذني بطريقة خاصة قلقة . ثم تودّعنا .

وفي اليوم التالي سألتني عن معرفتي بحسناء ، وكانت تخفي وراء سؤالها الجرمي القلق نفسه . وأجبتها بحيث لا أثـــير شكوكها في أني أعرف عنها شيئاً ، أي شيء .

واعتدت أن أبحث عنها فأدعوها الى النادي ، وتذهب مع زميلتها نوال ، فنجلس طويلاً ، نتحدّث ونضحك وكأن الدنيا قد خلت إلاّ منا . لم تكن تتكلّم ، ولم تكن تعترض ، ولم تكن تنظر لشيء غير وجهي .

وفي أوائل كانون الأول بدأت مع دريد وصالح نشاطنا للدخول في يحموم انتخابات اتحاد الطلاب . وقد غرقت فيه حتى رقبتي ، حتى أني عندما رأيت سحاب تقبل بقامتها الهيفاء الرائعة أشرت لها بأصبعي أن تأتي ، ثم نسيت أني أشرت لها .

– نعم .. ماذا يريد الكبير الذي يشير للناس بأصبعه فقط ؟ .

فقلت على عجل : – انتسبي لإحدى اللجان الست .. التي تعجبك ، ثم اجلسي في الصفّ واحفظي لي مكاناً بجانبك .

فاعترضت : – بدلاً من أن تحتفظ لي أنت ؟

وابتسمنا معاً .

عندما كتبت اسمها على ورقة الانتساب تأكدت من رقم عمرها ، ورأيت بالتالي أنها تكبرني عاماً كاملاً . وبعد أن انسحبَتْ الى الصفّ ، جئت اليها فوجدتها تجلس بمفردها في مقعد منزوٍ . كان عليّ أن أحصل على أكبر كمية من أوراق الانتساب ، فانتقلت الى المقاعد الأخيرة حيث جلست زميلاتها. ووجدت أني بسبب هذه الأوراق مضطرّ أن أجلس بجانبهن . وتقدّمت منها فطلبت أن تأتي فتجلس معنا . لكنها اعتذرت بابتسامة خفيفة وبضعة حروف . شرحت لها الموقف وكررت الطلب ، فاعتذرت ثانية .

– هل غضبت يا سحاب ؟ . لو أنني أستطيع المجيء لما توانيت .. إنـــه ، من الحرج أن أترك المقعد ، وأني متحرّج

منك ايضاً .

ابتسمت دون أن تنظر إليّ ، ولمحت على وجهها غلالة أسى مكتوم ، وانكساراً آلمني . وشعرت أنا الآخر بتفاهتي فقلت :

— سحاب لا تغضبي رجاءً . تأكدي أني لا أحاول أن أعبّر لك عن شيء بجلوسي هناك .

وأذكر تماماً،ولعلّه الى الأبد،تلك اللحظة المنفعلة التي ملأتني سعادة دافعة وشعوراً قوياً بالسيطرة الحانية أمام استسلامها الدافىء القوي .

في اليوم التالي لقيتها تتّجه نحو غرفة الإعــــارة بالمكتبة فتسأل عن كتاب « لسومرست موم » . قلت لها إنــه غـير موجود . فالتفتت صوبي وابتسمت ، واقتربت منها . « شعري منفوش ؟ » سألت وعبثت بـــه قليلا ، فملأ رئتي فيض نفحها ومدّد لساني بحيوية مفاجئة :

— يا من لها شعر كحظّي أسود . شعرك أجمل شعر في العالم، نور أسود يضيء الغيابات ، وكنز يغـــني عن مـيزانية الولايات المتحدة .

أنذرتني : — إنهم يسمعونك .. تكلّم بخفوت .

اقتربت منها أيضاً فطار من أنفي مسّ كحولي وقلت :

— الخفوت أكثر شاعرية . غير أن من يقع تحت تأثير البريق المكتوم في عينيك لقى لقى سيتكلم ولو كان ذلك يحمله حبل المشنقة .. قولي لي : أين هربت أمس ؟ .

ـ لم أتحرك من المكتبة .

قلت مرفوع الأصابع :

ـ هذا آخر مكان يخطر على بالي .. من أين لك هذا الاجتهاد ؟ .

فاستنكرت :

ـ أنت تدرس أكثر مني . !

فرفعت حاجبي الأيسر وعللت :

ـ ذلك لأني أقل ذكاء منك .

وأجابت بغنج :

ـ « أنا اذكى منك ؟ »

فاسترسلت :

ـ إن من يشاهد بريق عينيك يتيقّن أن فيها سر الله والعبقرية .. فكيف بي أنا الفقير لله تعالى وهذا البريق ؟

هزّت رأسها : ـ لقد ألهيتني . لو استمعت اليك ساعة لما تركت الكلام . .

وهمّت تسير ، فصحت : « سحاب » . ووقفت تنصت الى ما أقول ، فهمست لها :

ـ هذا قلبي .. وليس لساني .

فتابعت وقفتها تتأملني باستفهام متمكّن عميق ، ثم لاحت على شفتيها الكرزيّتين رؤى ابتسامة حلوة متعبة .

٢

كنت في السرير أقرأ رسالة من هلال ، وأرشف بعض الشاي حين سمعت على الباب نقراً خفيفاً .

أصخت للطارق الليلي ، يضرب بابي بهذه النعومة . ويعيد النقر ، فنهضت وفتحت الباب .

كانت ثريا تقف بقامتها الفتية الرائعة في تلفّت مذعور . ودخلت الغرفة دون أن تنتظر تحيّتي وأشارت أن أُقفل الباب .

تأمّلتها بذهول ، فتأمّلتني بابتسام .

– ثريا .. ماذا تفعلين هنا ؟

فأجابت باسمة نافدة الصبر :

– ألا تريد أن آتي إليك ؟ .

وملأت صدغي خنّة كلماتها المؤنثة :

ــ ولكنك تعرفين معنى هذا؟.

ــ ولو ... لقد رُبّيت في دمشق .

تأمّلتها بإمعان ، وتردّد ثانية غنج صوتها في مسمعي ، وتبيّنت فيه خيط غصّة بعيداً ، فأخذ جفناي يرفّان بسرعة . ابتسمت واقتربت منها . كانت قد مدّدت ساقيها على السرير ، وأسندت ظهرها الى الجدار . رمقت قدميها الصغيرتين ، وسرعان ما تبيّنت فيهما بقعة كامدة . وببطء رفعت عيني إليهـا متسائلاً ، فهزّت رأسها ايجاباً، تمشّيت الى النافذة فأزحت ستارتها ونظرت الى الشارع . كان صوت مؤذّن بعيد ، يتناهى خافتـاً مدغوم الخارج ، يختلط بهمهمة الحشود المرهقة في الشوارع ، على مدى الأبعـاد .

أغلقت النـافذة والتفتّ فرأيت ثريا تقف بجانبي حافية ساكنة ، رافعة الرأس ، محدّقة باستغراق وإصرار .

ــ ثريا ... ارجعي الى البيت .. نحن بمفردنا .

كانت ترتعش فتركتها وسرت في الغرفة مثقل الخطى .

ــ هل أصنع لك شاياً ؟..

وصلت الخزانة وفتحتها بلا سبب ، واصطدمت عيناي بعينين اتّسعت حدقتاها وانطفأ بريقهما .

مكثت أتأمّل شكلي برهة ففزعت منه . كان شديد الوحشة مشدود الملامح ، وكان يشتهي . أغلقت الخزانة .

ودوّم في ذهني سؤال رصين الوقع : ماذا أفعل الآن؟ نظرت الى ثريا فرأيتها تستند الى جدار النافذة وظهرهـــا باتجاهي . لم يكن ثمة بدّ من التفكير بأنهـا امرأة رائعة ، واقتربت منها فتبيّنت أنها تبكي . امتدّت اصابعي كأنهـا استطالات خرجت من أضلعي الى الأمام بجهد وارتعـــاش ؛ ثم هرشت رأسي ، وأطرقت ملتهب الجبين .

كان لا بدّ من التفكير بأن ثريا امرأة رائعة .

وكان مجرّد التفكير يترك بصماته على صفحة وجهي . أمـا دموعها فما أكثر ما هدمت من صمتي وتحفّظي . وبعد ذلك كلّه كنت لا أزال صامتـاً . لم أسأل نفسي لماذا ، فقد كانت مسام جسمي كلها مكبّلة بقيد مبهم مريد . وخيـل لي أني ينبغي أن أواسيها ، وأتخطّى هذا التلبّس الغائيّ الذي غلني ، فرفعت يدي الى كتفها .

كانت الكحول هذه المرة أدفأ من توقد أصابعي . غير أنّـه ينبغي أن أبقى فوق مستوى الدم .

انضوت ثريا تحت ساعدي ، وأخذت تتنفس بسرعـــة . طيّبت خاطرها بطلاقة ، وما لبثت أن أحسست بشيء ساخن ينزلق على زندي . رفعت وجههــا ومسحت عنه الدموع ، وأجلستها على الكنبة ، فاطرقت عيناها الكبيرتان مغرورقتين بالدمع . وفجأة ، رفعت أصابعها الى فمها ، فوضعتها بين أسنانها، وعضّت عليها عضاً عنيفاً . وذاب نفسها في البكاء ، وأخذ جسمها

يرتعش كنابض أفلت للتوّ من الشدّ . جئتها بقدح ماء ثم هيّأت السماور ، ووضعت عليه إبريق الشاي . وبعد أن مسحت يدي تقدّمت فجلست بجانبها .

أحسست كما لم أحسّ من قبل بحقارة الزمن. وراح الغيظ يمتصّ دمي كما يفعل البقّ ويرعى تماسكي . تذكّرت أمي المشلولة منذ ثلاث سنوات ، يعذّبها الروماتزم أقسى من الوحش ، وثريا تنشج الى يميني تعذّبها طفرة الشباب المقيّدة . انظر الينا أيّها الربّ ، إننا نموت جوعاً . تذكر أني كنت أبصق دماً وأن ثريا تجلد كالمجرمين .

تنبّهت الى أني ملزم بقول شيء ما ، واستدار ذهني الى أهلها فسألتها دونما وعي :

ـ ألا تحكين لأبيك ما يحدث معك ؟.

فرفعت حاجبيها نفياً :

ـ إنه يعتقد دائماً أني مخطئة .

كان شعرها الخرنوبيّ الطويل يستقرّ على كتف الكنبة ، وبهدوء مال رأسها فاستلقى على يدي التي كانت ممدودة وراءه :

ـ ألا تريد أن تعبث بشعري ؟.

صمتّ قليلاً ثم سألتها :

ـ ثريا .. ألا تؤمنين بالفضيلة ؟

فأخرجت من فمها نفساً قصيراً ساخراً ، وحكّت جفنيها ، وبعد صمت قصير همهمت :

– اذا كان إيماني قد تزعزع .. فكيف بالفضيلة ؟ .

ثم برمت رأسها على ذراعي باسمة مغمضة :

– في دمشق كل شيء قد مات .. لن أحدثك عن أمي وأبي ، ولكنك يجب أن تعيش على سجيّتك . عندما يتململ الجسد ، تنهزم الأخلاق . فلا تجعلني أعتقد أنك تتمسّك بهذه الأخلاق الميتة ، لأنك لا تدري ماذا تعمل . أنا لا أقبل أن أتقيّد فأتعذّب مقابل لا شيء ، إن الأخلاق لا تلبّي حاجاتي . وسأرفض الجنّة عندما أموت ، وتصعد روحي الى السماء ، فلست أعتقد أن جهنّم أشدّ عذابا من الحياة .

تأمّلتها ، هذه التي تستلقي على يدي ، وهي تعلم أني رجل وأنها امرأة ، وتذكّرت زهرات الفلّ الأبيض حول غرفتي باللاذقية وعبيرها الذي كان يملأ تلك الغرفة ممتزجاً بالبرد والرطوبة والدم .

راحت أصابعي بلا وعي تغرق وتتلوّى في شعرها القرنفلي الغزير ، وأخذ ضوء نظراتي ينفذ الى قلبها فيرى كيف تنبض فيه الحياة . وشرعت تتأمّلني ملياً ، فشعرت أنها تريد أن تأكلني . انتفضت عن الكرسي هارباً من ثقل كثيف في صدري .

– ما الفائدة ثريا ؟ سوف تشتمينني غداً . اذا كان إيمانك قد تزعزع ، فضميرك قويّ لا يزال ، وسيعذّبك .

هزّت رأسها ساخرة : كلا .

ـ ما أشنع ما تتحدّث عن الضمير ! أنت فلاّح لا تزال . إن زوجي مدين لي بألف ضمير . لماذا لايتكيّف الضمير معنا ؟ دعني أسألك من الذي وضع لنا ضميراً ؟ أنا لا أفهم في الفلسفة ولكنني أغتصب منذ ثلاثة شهور . ولم أشعر حتى الآن أنني امرأة . اذا تطلّقت نهش عرضي الناس . فلن يصدّق أحد أني تطلّقت بهذه السرعة محبّة بالله والضمير .

تنبّهت حواسّي بأجمعها لما تتكلم ، لكنني بقيت جامداً . وبعد فترة صمت قلت لها :

ـ أجل عندنا في الجامعة مطلّقة ينهش الطلاب اسمها . وأعتقد أنها تعيش في جحيم ، انتظار يائس ، ورغبة في تحدّي الناس . أنت تعانين المشكلة نفسها ، ولكن من وجهها الثاني .

رفعت رأسها للأعلى :

ـ سلّم عليها ، وقل لها .. قل لها .. كل شيء .. أشياء كثيرة .

ثم رمقتني بنظرة قصيرة ونهضت :

ـ أعطني كلساتك وقمصانك لأغسلها .

فقلت لها ضاحكاً :

ـ افرضي أنك أعطيته جرابي خطأ ؟ .

وكانت ابتسامتها تحمل كلّ النفي :

ـ هل تعتقد أني سأخلطها بكلساته ؟

فضحكت بقوة :

– هذه مقارنة شيّقة .. والآن اذهبي وإلاّ تأخّرت .

فابتسمت بعذوبة :

– لن أذهب إلاّ بثيابك .. أقسم لك بكل شيء أني لن أذهب بدونها . ألا تثق بي ؟ . ألا تريد أن تبهجني ؟ . ثق أنني لن أخطىء بها .

ولم يطل بها الوقت حتى بدت تعنّتي . وفي الحقيقة كان شعور بلذّة الطلب وطرافته يتقوى كلما ازدادت إلحـــاحاً . وهكذا أسرعت تجمعها وأنا أراقبها بغبطة فـــائقة ، حتى إذا انتهت وضعت الكلسات في محفظتها .

– لا أعتقد أن عندي الآن قصاناً وسخة . ثريا .. أنت هنا بأيّ عذر ؟ .

– أنا عند جارتي . آه .. لم أقل لك : تخانقنا لأول مرة ، فجئت الى بيت أهلي . عرفت دواءه . فجاء يصالحني ، وأخذ يبربر مع أبي فتركتهم وقلت إني ذاهبة عند رفيقتي . أعتقد أننـــا سننتقل فنسكن الشقة المجـاورة لبيت أبي . بسبب هـــذه الخناقـــة .

فتحت لها الباب فوقفت على العتبة تتأمّلني بغبطة ثم مدّت يدها وودّعتني . وعند نهاية الدرج التفتت تبتسم حتى بانت أسنانها .

٣

درجات المنتدى برغم قلّتها ، تشعر الساقين بخفّــة عابثة ، وهكذا غالباً ما أنزل عليها رملا . تفقّدت سحاب ، فلم أجدها، وعدت . عند آخــــر درجة رأيت « واحة » تسير اليها ، فخبطت رجلي بقوة ، ورفعت لهـــا يدي في تحيّة عسكرية أضحكتها ملء صدرها وقالت :

– ألن تشترك في رحلة بيروت ؟ .

فسألتها : « متى ؟ » فأجابت : « في أول السنة الجديدة » وهززت رأسي نفياً وقلت :

– منذ اليوم الثاني من الشهر حتى اليوم الأول من الشهر الذي يليه أكون مفلساً .. هيّا بنا الى البوفيه .

كانت تضحك باستغراق :

- ستكون مفلساً ! صحيح بشر ، اشترك .. يجب أن تشترك ، بيروت جميلة وأنت تحبها .

- أأنا أحتاج لرؤية بيروت ، وفي الجامعة جميلات مثلك أراهنّ ؟ .

فسعلت وقالت : - اى .. بس .. اسكت .. ألن تذهب ؟ قل لي .. يجب أن تذهب فالجميع ذاهبون .

شعرت بغبطة عارمة فسألتها :

- قولي لي .. متى جئت من اللاذقية ؟ تعالي نسير قليلا .

خرجنا من النادي الى الحديقة ، وأخذنا نسير بهدوء حول رصيفها . قالت واحة :

- إذن لن تذهب الى بيروت ؟ خذ الشبّابة معك ! .

أجبت مازحاً :

- ما الفائدة؟ ستذهبين الى كنيسة مار جرجس لتصلّي هناك .

فضحكت :

- لا ، سأذهب معكم ، وأصلّي في الجامع مع ذقون مشايخكم .

- الذقون نفسها عند الخوارنة والمشايخ .. كلها ملوّثة بزرقة الحياة الدنيا .

ضحكت واحة بعمق ، ثم امتزج ضحكها بسعال شديد . وهممت بأن أعلّق على هيئتها في تلك اللحظة . وقبل أن أفعل بدا لي سعالها أطول من المألوف ، فقطبت ونظرت اليها بإشفاق واهتمام .

بعد أن انتهت النوبة ابتسمت ، وإذ رأت ملامح القلق على وجهي ، ازداد ابتسامها وقالت : إنها نوبة سعال عابرة خلّفتها حمى ألمت بها منذ أسبوع . وأعلنت :

– أنا ذاهبة الى دار الطالبات .. باي باي .

ودّعتها ، رغم ابتسامتي ، بوجوم . إنها السعلة نفسها التي بصقت بعدها دماً : جافّة ، عنيفة البداية ، مبتورة النهاية ، يشعر الإنسان منها بأنها تحفر حلقه .

فكّرت قليلا ثم ابتسمت : ما أسخف حساسيتي ، إنها بقيّة حمى .

تذكّرت أني كنت أبحث عن سحاب ، فمضيت قدماً الى المكتبة . وعند باب قاعة المطالعة رأيتها جالسة الى طاولتها التقليدية . تقدّمت فجلست أمامها ، ووضعت دفتري فوق كتابها . رفعت إليّ عينيها النفاذتين ، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة ملأى بالافتتان . لقد كانت ابتسامتها وما تزال تحمل بذور تمرّد وإسعاد ، ويتوالد عليها السحر بديمومة رنقة فاتنة .

وطاشت في قلبي رعونة لعوب ، وهزّني من عينيها وميض أبديّ الانسكاب ، فأمسكت بدفتري وكتابها ، وطويتهما وأملت رأسي باتّجاه الباب . فتحت عينيها ونظرت حولها ، ثم إليّ وابتسمت . كان بعض الجالسين حول الطاولة قد صوّب الينا أعيناً فضولية ، فجلست على الكرسي محنقاً .

مكثنا حتى الظهر . كنت أعبث بساقيها فتسحبها الى

الوراء ، وتبتسم . وإذ تنظر إليّ بعض الاحيان بعتاب ، كنت أكوّر فمي وأهمس لها أن تخرج ، فتبتسم وتطرق فوق الكتاب، وأحاول أن أسحبه فأخشى وجود الحاضرين .

أدركت أنني لن أنجح في زحزحتها ، فنهضت متغاضباً . وشعرت بشيء من الضيق حين لم تلحق بي .

ذهبت تواً الى غرفتي ، وكان عليّ أن أتغدّى بربع ليرة ! تحيّرت : ماذا يمكن أن أشتري بربع ليرة ؟ وأخيراً قرّرت ألا أتغدّى . واستندت الى النافذة قليلاً ثم عدت الى الجامعة .

بعد الساعة الثانية اتّخذت طريقي الى المكتبة . ودهشت إذ وجدتها ما تزال تجلس الى الطاولة نفسها . لم يكن أكثر من عشرة طلاب في القاعة كلّها . أما طاولتها فلم يكن يجلس عليها أحد .

تقدّمت منها وقلت :

— ألم تؤلمك عيناك ؟ .

فابتسمت وهي تقلب صفحة من كتابها :

— لا يهمّني .

اعترضت : — أنا يهمّني ، انهضي .. حرام عليك .

فابتسمت ثانية وأطرقت دون أن تتكلم شيئاً . تركتها وقد استفزّني هدوؤها ، فذهبت الى قاعة كرة الطاولة . وهناك انسجمت مع اللاعبين ما يقرب من نصف ساعة ، ثم تلفّتّ بغير إرادة نحو غرفة الهاتف ، فوجدتها تمسك السماعة .

وأدركت أنها تشرح لوالدها سبب تأخّرها عن البيت حتى تلك الساعة .

شعرت بجمود يثبت قدمي على الأرض ويفصل عنها مشاعري. ولما تلفّتت ثانية بعد إطراقة طويلة لم أجدها . خرجت من القاعة فرأيتها تلتفت شمالاً وتخرج من مدخل الجامعة . سرت وراءها، وأخذت أسرع حتى أدركتها عند جسر الحرية على (بردى) . كانت الحرارة خفيفة ، والنهر على غير العادة صافياً ، ونفر من الباعة حولنا يهتف ويصيح :

– ألم تتعب عيناك من الدرس ؟

تبسّمت وقالت :

– أتعرف أنك ضايقتني ؟ .

فسألتها لماذا ؟ فأجابت أن أهلهـا لا يريدونها أن تسير مع أحد في الشارع .

قلت :

– الحقّ عليك .

فنظرت اليّ بهدوء أخمد شجاعتي ، وسألت عيناها: لماذا ؟ . السيارات على شارع بيروت كانت جدّ كثيرة. وأجبتها :

– دعيني أراك في الجامعة .

وحين بلغنا نهاية الجسر رفضت أن تسير ، فوقفت بجانبهـا وحولنا بائع عصير وبضعة أطفال متسوّلين .

نقرت برجلها على الأرض فاهتزّ جسمها اهتزازة خفيفة :

– لماذا ؟ ماذا تريد مني ؟.
– أنا أحبّك .

قلتهـا بهدوء وبشاشة ، لكن ريقي كان جافاً ، فأدارت رأسها بحزن مفاجىء ثم تأمّلتني في تحدٍ :

– أنا !؟ ماذا تعرف عني ؟

فوجئت بسؤالها فتلكأت .

– أعرف عنك ؟!.. أعرف أني أحبّك ، ألا يكفي هذا ؟

قالت مضطربة :

– أرجوك يا سيّد بشر .. لا يمكننا التحدّث ها هنا .. لا يسمح لي .

فقاطعتها :

– ولكن دعيني أراك في الجـامعة .. أنت دائماً بصحبة زميلاتك ، فهل أتحدّث اليك وأنت معهن ؟ . أنا لا يهمّني .

رفعت عينيها عن الأرض :

– اكتب إذن .. رسالة .. أشرح لك فيها وجهة نظرك .

– لا .. لا أريد أن أتفاهم معك بالرسائل .. لا أريد أن آخذ منك أية رسالة .. أريدك أن تتحدّثي لي بنفسك عن كل متاعبك وهمومـك ، وثقي أني أحبّك .. دعينا نتمشَّ إلى الرصيف الثاني ، فنتفيّأ ظلّ الشجرة .

– لا .. لن أسير معك خطوة واحدة .

– اذاً أراك غداً في الجامعة ، في درس اللغة .. فأنت لا

تحضرينه عادة . ألا يؤذيك الحرّ ؟ كما تحبّين ! لنبق على الرصيف، ولكن يجب أن أراك غداً حتماً .. وإلاّ لاحقتك في الشوارع .. لاتعتذري بأية حجّة .

وودّعتها فذهبت الى البيت ، وعدت الى الجامعة . مرت تحت الشجرات الضخمة المعمّرة بحديقة المتحف ، وأنا أحسّ أني لا أسير مطلقاً . شعرت أني أنساب في الفضاء نصف مغمض العين ، سابحاً ، ملء القلب متبعثراً .

ومضى النهار ، ونهار اليوم التالي دون أن تتكلّم معي ، أو تقترب من مكان أكون فيه . ورأيت نفسي مرغماً على أن أكتب لها رسالة : فذهبت الى غرفتي عند المغيب وجلست . لم أدر ماذا أكتب لها ، ومع ذلك لم أمزّق أوراقاً ، بل ولم أكتب مسودّة على الإطلاق ، وبعد ساعة كنت قد أنهيت هذه الكلمات :

« غاليتي .

مع سكون الليل الرطب ، وحيداً مع المساء ، وكلّ ما حولي يوحي بأكثر من خاطرة ووهم ، أكتب اليك .

بماذا يا حلوتي أبدأ ، وعندي من الهمس الكثير ؟ أأقول إني أحبّك ، إن هذا لجدّ قليل . هذا الاتّقاد العابث ، وتلك العاطفة المتمرّدة ، القلب في كل نبضة منه تخرج لك صلاة ، الخيال يعبّ من طيفك الآسر سحراً به يقتات ، وبديمومته يعيش .. كل هذا أكثر من أن تسمّيه حباً .. إنه عبادة .

أصحيح أننا لم نبتسم لبعضنا صباح أمس ؟ ما أبخلك !. لقد

عشت على أمل لقائك أحلى الساعات .. قضيتهـــا منتقلاً في شوارع دمشق فرحاً وغبطة ، أودّ لو أعانق كل ما يمرّ بي في الطريق . لقد تصوّرت أشياء كثيرة عن حياتنا المقبلة ، وتهيّأت لحديث طويل طويـــل . مستقبل عجنته بابتسام وأعصاب وأماني رغبة رائعة .. ولكن أسفاً . أنت تحضرين ساعة اللغة لأول مرة ، فهل كان هذا بسببي ؟.

لست أدري كيف يمكنني أن أتفاهم معك بعيداً عنك . أنا لا أستطيع أن أكتفي .. بالورق والقلم .. هـذه الخطوط التي أكتبها ، تثير أعصابي . أريدك بجانبي وجوداً يبرعم في صدري الحبّ فيعطيه الحياة .. فلا تهربي مني .

لعلّك تسألين ماذا أودّ قوله . ليس هناك مـا أقوله سوى أني أحبك . لقد وجدنا الأساس المتين ، وما علينا إلا أن نشيد البناء . إذا اتّفقنا وامتزجت أهواؤنا فتلك هي الجنّة التي تخضّب بالحبّ حياتنا .

لقد قرأت ما كتبته لك الآن فإذا به لا يعبر عن شيء ممـا أريده . أريد أن أتحدّث معك ، أن أسألك فتجيبي ، وأريدك بالذات أن تتكلّمي عن كل ما يعتمل بنفسك من مخاوف وشكوك . لقد لمحت في عينيك على الجسر قلقاً خفيـــاً . إني أريد هاتين العينين صافيتين كالبراءة ، متـألّقتين أبداً بذاك البريق الذي يضيء الدامس ، ويخلق باستمرار عوالم مسحورة الجمال .

يا حلوتي ، أمامك مستقبل جديد بأ كمله .. فلا تَدَعي قيود

مجتمعنا تفسده عليك . نحن جيل جديد وعلينا أن نبني أخلاقنا بنفسنا . لنتفاهم ونتأكد من حياة قادمة لا تشوّهها متاعب هذه النماذج البليدة من الأزواج التي أراها غالباً . كوني لي بكل وجودك وعواطفك ، زوجة وصديقة وملهمة ، وبعد ذاك ستسقط كل الاحتمالات وكل العقبات .

ثقي بي يا سوسنتي الناعمة .. ثقي أني لك أيضاً بكلّ جوارحي ومستقبلي . »

قرأت الرسالة فثقب نظري هول المبالغات التي ملئت بها . رميتها على الطاولة وتراخيت في جلستي . لماذا أكتب لها كلّ هذا ؟ . ألأقنعها أم لأقنع نفسي ؟. لم أستطع الجواب . سألت نفسي : ما هي النهاية ؟ إن سحاب تمارس على حواسّي عندما أراها نوعاً من السحر . تلك حقيقة يجب الاعتراف بها ، ولكن أهو حبّ أم ماذا ؟. يجب أن أحقّق لنفسي عاطفة ما ، وموقفاً معيناً .

هل تعني سحاب بالنسبة لي أكثر مما تعني ثريا ؟. لا أظنّ . إني مستعدّ من أجل ثريا أن أسجن مئة عام ، لكنني لست ، من أجل سحاب .

إنني لم أمش في شوارع دمشق ، وإن كنت أعيش بغبطة ، ولم أعانق أيّ شيء ، فقد كنت ألعب بالنرد . كما أنني لا أعتقد أن قلبي يخرج الصلوات ، ولا أنه يقتات من رؤياها ، فلماذا الكذب ؟ .

أهو حقاً كذب !؟ لا ليس كذباً ، لكنه ليس صدقاً .. إنني لا أدري ما هو .

هززت رأسي بمقت ، يجب ألا أعطيها الرسالة ، وألا أتحدّث اليها بالمرّة . إنه ليس الزواج ما يجعلني أتردّد ، فأنا لم أتحرش بها لأتسلّى معها ، وهي بمثل هذه الظروف ، ولكنني يجب أن أعرف لماذا تحرّشت بها !

إنه ليس من الممكن أن أتراجع ، ذلك أكيد ، فعلاقتي معها لم تبدأ لتنتهي بأن أثبت أني وغد وكذّاب .

دقّ الباب فجأة فتطلّعت اليه بجمود . وانتبهت بعد برهة الى أني يجب أن أفتحه ، فأخفيت الرسالة في جيبي ونهضت .

كان دريد وصالح على الباب ، فصرخنا بالتحيّات ودخلا الى الغرفة . سأل صالح :

– وحيد أبا البشر ؟. كأنك كنت تنظم شعراً .. ألم ترتو بعد .. يا غرانقي ، يا فاشل ..

ضحكت : هل يعلم صالح أني غداً سأعطي سحاب رسالة ؟.

– هل حدث شيء جديد مع غيداء ؟.

– أشياء جديدة .. تحدّثنا عن التحرّر ، والتخلّص من رواسب المجتمع ، ووجدنا أنا متّفقون في آرائنا . جلسنا في المقصف ، ثم ذهبنا الى المطعم فتغدّينا .. وعدنا الى المقصف وشربنا قهوة . تحدّثنا وكلّ شيء .. انسجام .

خفضت عيني وقلت :

– وصالح ، ماذا جرى ؟ .

كان صالح يعبث بالكتب ، فانتبه إليّ وقال :

– لا شيء .. تقصد مع سحاب ؟ لا شيء . أنا لا أحبها . لكني أريد ان أجتمع معها يوماً مع كأس غرانقي .. هكذا .. وفراش وثير .

شعرت بوخزة بين أضلاعي : صالح ، اقرب النـــاس لي ، لا يحترمها . سألته :

– صالح .. ما رأيك في أني سأتزوّجها ؟.

التفت إليّ الاثنان بدهشة بالغة ، وصاح دريد :

– غرانق .

بينما تأكّد صالح من كلامي عدّة مرات .

ورويت لهما كل شيء حدث بيني وبينها، وأخيراً قلت :

– وبعد زمن قصير ، لعلّه آخر هـــذه السنة الدراسية ، سأتزوّجها . سأعطيها الرسالة غداً .. لقد تردّدت في ذلك، لكن تردّدي كان سخيفاً .

سأل صالح : – كيف ؟ .. ألا تفكر .. أعني .. هـــذا زواج يحتاج ليرات كثيرة .

هززت رأسي بلا مبالاة وقلت :

– سأشتغل . وأكتب .. بوسعي أن أجمـــع خمسئة ليرة شهرياً ، وراتبي من الجامعة .

فضحك :

ـ غرانق .. مصمّم؟ . أعتذر إذن عن كلماتي .. أرجوك أن تنساها أبا البشر .. لقد كانت عابرة .

طلب دريد : ــ هات اعمل لنا عشاء أيها المقبل على الزواج، لقد سبقتني .. لكنني سألحق بك سريعاً . يجب أن تتحرّر من قيودنا . لن أصمت مع غيداء بعد الآن ، فأنا أعرف أنها تنتظر مني أن أحدّثها بصراحة .. يحرق شيطانك .. كيف لحقت بها حتى النهر !؟

تذكّرت الحزن المفاجىء الذي ملأ عيني سحاب عندما قلت لها أحبك . وشعرت بإصرار قويّ يخز ترددي .

غليت لصالح ودريد شاياً : لا أملك فرنكاً واحـــداً . أعفياني من العشاء .

بعد ما يقرب من ساعة ودّعاني وذهبا . أخرجت الرسالة من جيبي وقرأتها . أجل إن فيها مبالغات ، ولكنها ضرورية . فسحـــاب لن تصدّق بسهولة اني أحبها ، ولا بـــدّ لذلك من شدّة التأكيد .

نمت تلك الليلة نوماً عميقاً ، وفي عصر آخر يوم من أيام السنة جئت الى الجامعة وبجيبي رسالة لمن ستكون زوجتي .

ــ هذه ترجمة عن حياة سومرست موم التي طلبتها .. بعضها بالعربية .

تأمّلتني عيناها الفسيحتان قليلا ، ثم أغضت واحمرّ وجهها . وتناولت الرسالة فوضعتها في كتابها ، وتوجهت فوراً الى البيت،

فيا ركنت الى باب القاعة ، أتأمّلها وهي تسير بخفة واضطراب في الرواق البخيل الضياء . وأيقنت تلك اللحظة أني قد بدأت في حياتي شيئاً جدياً ، وأنه سينتهي بي الى أن أعيشها سعيدة مونقة . وشعرت حتى الثمالة أني أحب سحـاب حباً عظيماً هائـلا .

بعد أكثر من أسبوع استطعت أن أتحدّث معها على انفراد .

٤

بعد أن حلقت ، وسرحت شعري ، وارتديت ثيابي ، تنبّهت الى أن جرابي متّسخ . فتحت درج الخزانة فلم أجد شيئاً، وبحثت تحت الوسادة فوصلت الى النتيجة نفسها . نظرت فوق رفّ الخزانة فالتقيت بزجاجة نبيذ .

جلست على السرير في غضب مبتسم . ومرّ زمن حسبته دهراً . صببت ما في الزجاجة من نبيذ في كأس واستلقيت . لقد صرت أستلذّ التفكير ، فكلّ ما يرد فيه يوحي بأن سعادتي شيء خاص منفصل عن سعادة الآخرين ، لا أدري كم من الوقت انقضى ، إنما تنبّهت الى نقر خفيف على الباب ، فوجب قلبي . نهضت وفتحته ، فإذا بي أمام ثريا ! هتفت بها بسرعة وترحاب

ثم انفلتت داخل الغرفـــة . اذاً فقد حلّت المشكلة وسألبس جرابـــاً .

– الوقت نهار ، فكيف جئت ؟!

– أشياء كثيرة .. لأقصّها لك .. خذ أوّلاً الجرابات .

كانت تفور بالنشوة والروعة وهي تجلس على السرير .

– يا سيدي : اتفق بابا معـه أن نسكن قريباً من بيت أهلي وأن يسمح لي بالذهاب في حفلة نسوان للسينما كل أسبوع . وألا أتحدّث الا مع بنت الجيران ، وهي تسكن أمام غرفتك في الطابق الثالث . وهي الآن في السينما . عندما تعود ستدق على الباب ، فأخرج ، وتوصلني الى بيت أهلي في الطابق الثاني . والآن اذهب فاشترِ – اليوم ثالث يوم في الشهر ولست مفلساً – اذهب فاشترِ شيئاً من الباذنجان الصغير .. كيلو وأوقية لحمة هبرة ، وبعض البصل ، وعصعصاً ، وتعال فسأطبخ لك « شيخ المحشي » . والآن لا تعترض .. إني لن أذهب ولو أشبعتني ضرباً . الآن اذهب فاشترِ ما قلته لك وتعال . يا الله .. عجّـــل ، معي ثلاث ساعات فقط .

سرت الى الباب ، وقبل أن أغلقه قلت : «سوف تكرهينني خلالها » . وسمعت على زجاجه ضرباً محتجاً .

اشتريت هـــذه الحاجيات المفـاجئة مع السمن وبعض البندورة ، وجئت لثريا بأوقية كنافة .

عندما فتحت البــــاب أذهلني أن الغرفة قد مُسحت ،

والسرير قد رُتّب ، وأن ثيابي قد عُلّقت كلّها .

حدقت بما حولي شديد السرور ، بينما ابتسمت ثريا مبتهجة بعملها وبالكنافة .

– أين وضعت كأس النبيذ لأثبت لك أني لست مفلساً ؟

لفتت رأسها يساراً : – نبيذ ؟! أيّ نبيذ ؟ كان في الكأس بعض الشاي البارد ، فأفرغته في المغسلة وغسلته .

– لقد كان به نبيذ يا بنت الحلال .

قلت لها هـــامّاً . وفوجئت بها تعضّ أصابعها ، ويحتدم وجهها بين الضحك والبكاء .

هتفت بها : – كنت أمزح معك .. فالنبيذ فيها من يومين ، ولم يعد يشرب . كنت سأفرغه بنفسي .

– اذاً فأنت لم تغضب ؟ . أنت تحبّ النبيذ ؟.

كانت تبتسم . ونهرتها برفق :

– إه أعوذ بالله.. وافرضي أنه كان نبيذاً فعلا ، فهل أغضب لأجله ؟. انزعي حساسيتك عندما تكونين عندي ، فأنا لا أعاقب ولا أعاتب . بالعكس إذا تشيطنت أحببتك أكثر . والآن هلـمّي فاطبخي .. إني جائع ..

مددت الحصيرة في زاوية الغرفة ووضعت عليها الباذنجان وسكيناً وبعض الصحون . بعد قليل تمتمت ثريا :

– بشر ؟.

- هم هم .

- لقد سمعت شبّابتك كثيراً من وراء النافذة . وأنا الآن عندك بلا نافذة . أنا أعرف أنك لاتنفخ بها إلا إذا كنت حزيناً.. ولكن أي أغنية ، لفيروز مثلاً .. أي أغنية .

نظرت اليها مشدوهاً : - كيف عرفت أني لا أنفخ بها الا عندما أكون حزيناً ؟.

فضحكت وأجـابت متعابثة : - ملك ، كنا نتحدّث من المطبخ .

تذكرت النافذة وسألتها : - ماذا كان شعورك عندما تحرّشت بك ؟

ابتسمت : - تضايقت عندما غمزتني ، فقد حكت لي ملك عنك أشياء كثيرة جعلتني أهتمّ بك بشدة ، لا أدري ماذا كنت تحسبني ، ولذلك تضايقت إذ غمزتني ، لأنني أحببت أن تهتمّ بي كما اهتممت بك . ولو لم ألمح بعينيك جنيّة غريبة لما تحدّثت معك لكنني لم أقاوم كثيراً مقاطعتك .. إنني رخوة بطبيعتي وسريعة الاستسلام .

- بل أنت عاطفيّة تهزّك البسمة وتأسرك الكلمة الطيبة.

صمتنا لحظات ، وراحت تشقّ بطن الباذنجان ، فتفرغ بعض أحشائها وتحرّك اللحم فوق النار .

سألتها بلهجة سكونية : - ثريا .. ألا تخافين أن ينكشف امرنا ؟ .

فأسرعت تسكتني – هس .. دعنا نعش سعيدين دونما تخويف .. إني أموت رعباً .

أخذت أتأملها بشغف ، وقد ولج الى صدري شعور بسعادة غامرة . حدقت بشعرها الخرنوبي تدفعه برأسها بين الفينة والفينة لئلا يغطي وجهها التفاحي الفاتن .

أمسكت بالشبابة وأسمعتها « يا حنيّنة » و « اذكريني » و « بنت الشلبية » و « الى راعية » ، وعندما بدأت « بست الحبايب » أخذت تنشدها معي . كان صوتها ينبعث كجرس كنيسة مفرط العذوبة ويختلط بصوت الشبابة وشخير السماور ، متناهياً الى أذني أطرى وأرقّ من كونشرتو .

أخذت أكرّر بعض المقاطع ، وأخرج في الأخرى ذبذبات دقيقة حتى شعرت بنشوة فائقة . والتفتّ الى ثريا فرأيتها تبكي . سألتها ضاحكاً :

– من تأثير البصل أم من الشبابة ؟ .

فابتسمت حتى بانت أسنانها الصغيرة، ثم استندت الى الجدار ورنت إليّ والدموع تنحدر من عينيها ، وقد تلفلفت بصمت حزين ، فرح ، أهوج ، وعاقل ، ازدحمت فيه المعاني حتى لتحسبه وحياً .

– إليك هذه الأغنية وكفى بكاء .

– إني سعيدة جداً .. سعيدة لدرجة يصعب على قلبي احتمالها .

نفخت « عالعصفورية » فأغرقت في الضحك ، ثم أخـذت تغنيهـا : لم أحفظ كلمات الأغنية بعد فهي جديدة . أعطني السمنـة .

أعطيتها العلبة ورحت أنفخ لحناً رعوياً حزيناً فيه ترددات كثيرة أشبه « بالليالي » لكنها غير متناوبة ، تنخفض نغمتها بالتدريج ، وتعلو فجأة بطريقة جدّ بسيطة .

— يا الله .. ما أروع هذا اللحن .. لم أسمع به من قبل .

— هذه تسمى « دقة الجزائر » يعزفها الزمار قبل بدء الرقص في أعراس الريفيين ، او الراعي عندما يسوق غنمه .

— كاد يحترق الباذنجان .

شهقت هي ، فصمتّ مبتسماً ، واستلقيت على السرير .

واخـيراً انتهى الأكل ، فصبّته في صحنين وضعتهما على الطاولة ، ثم أجلستني على الكرسي ، ففرشت فوق ركبتي منديلا ، وأمرتني بالأكل. نظرت اليها متحيّراً ، فاطرقت خجلى ، وانسحبت الى المغسلة .

نهضت اليهـا باصرار طفولي ، وأشرت برأسي أن تأتي . فأقبلت ببطء وعلى وجهها تحوم ابتسامة مرتبكة ، وأمسكت بالكرسي ثم وقفت وتطلعت إليّ باضطراب ، وابتسمت راعشة الجفون . أشرت باصبعي « اجلسي » فجلست مطرقة :

- ارفعي رأسك وكلي كما يأكل الناس .. لقد كنت تضحكين منذ برهة ، فماذا جرى ؟!. استحيت مني فجأة ؟!

ابتسمت وازداد إطراقها ، فانسدل شعرها الغضاري حول وجنتيها وأخذت ترتعش .

أخذت لقمة ووضعتها بين شفتيها :

– لا تشعريني بأنك بعيدة عني .. أنت قريبة جداً .. يالله ..

فرفعت رأسها بتؤدة واضطراب ، ثم ضحكت بصوت مسموع . سررت لضحكها وأقبلت أنا الآخر على الأكل . وفيما كانت تأكل سقطت منها الباذنجانة على الطاولة ، فانتفضت مذعورة ، ثم أطرقت بانكسار أثارني .

صحت : – ثريا ماذا جرى ؟ لقد انقلبت كثيراً .. لماذا تعطين هذه الأهمية كلها للحوادث تافهة ؟ كلنا يوقع لقمته . أف .. سامحيني . اجلسي ولا تهتمي بأية حادثة .

جلست باسمة : – أنا أعرف أنك عصبي .. سأعمل كما تريد .

قلت لها مصراً : – اعملي كما تريدين أنت . ولكن لا ترتبكي ولا تبكي ، لقد بكيت بما فيه الكفاية اليوم .

فأعلنت : – لا أريد أن أشعر بمثل هذه السعادة ، إنها تكتم أنفاسي . والآن أرجوك لا تصح ، لقد شبعت والله العظيم ، وصلاة النبي شبعت . لست جائعة ، لا تقارني بك ، أنت تأكل أكثر مني .

وتحولت للمغسلة ، فانتفضت عن الكرسي ولحقت بها . سحبتها من أصابعها عنوة وأجلستها على الكنبة ، وعدت فتابعت الأكل .

شعرت بتعاطف غريب يسري في كياني كالرعدة . نظرت الى ثريا فرأيتها تحملق بي ، وهي تضع يديها في حجرها . ابتسمنا معاً ، ونهضت تجول في الغرفة ، وسألتها لماذا لا تجلس ، فأجابت : « الجلوس يضايقني » . وذهبت الى النافذة فوضعت وجهها قريباً منها .

انشغلت بالطعام بعضاً من الوقت ، ثم تسلّل الى أذني صوتها خفيضاً مليئاً بالحنان يدندن بأغنية شعبية .

وتركت الطاولة بسكون واستدرت أصغي اليها . ثم امسكت بالشبابة ورافقت بها صوتها ، فالتفتت إليّ بصورة فائقة النشوة ، وراحت تنفتل في الغرفة وتغني . كان قلبها يغني ، ورئتاها تذوبان صوتاً ، وحنجرتها تغرغر بالدمع . أخذت تدور ، تغني ، وتهزّ رأسها ، تقف ثم تنفتل من جديد .

اقتربت مني ويداها على صدرها ، رافعة الرأس مغمضة العينين ، وتعالى صوتها يرنّ بجرس ملائكي . وفتحت عينيها فتألقت فيهما مع الدمع سعادة غجرية الرؤي ، ثم انطرحت على السرير . ورحت أتأملها وأنا أحسّ رغبة بالتلاشي ، ودوّمت المرتسمات حولها في عيني ، فلم أعد أرى إلاّ انطراحتها على السرير ، وإغماضة عينيها العاتبة .

وأفقنا من هذه النشوة الشاعرة على صوت نقر يأتي من الباب ، فأحسست بما يشبه الارتكاس .

فتحت ثريا الباب ودخلت جارتها .

ـ لا تخافي .. مثل أخيك .. هيا بنــا نغسل الصحون ثم نودّعه .

وبعد وقت قصير ودّعتاني . وعند البــاب مالت إليّ ثريا وقالت بصوت أنثوي ضعيف : غضبت مني ؟.

ـ غضبت منك !؟ لماذا ؟.

ـ لأني لم آكل ؟.

فضحكت : ـ يجب أن تأكلي ... لكنني لم أغضب منك .

ـ أبداً ؟.

ونقرتها على أنفها بإصبعي وتأملنــا بعضنا قليلاً ثم ابتسمت وسارت .

٥

ـ هل أحضرت لي ترجمة ارنست همنجواي ؟.

ـ أجل .. تفضّل .

ومدّت يدها فتناولت من حافظتها الصغيرة وريقة أعطتني إياها ثم همّت بالانصراف .

ـ هل أعجبك القسم العربي من ترجمة موم ؟.

نظرت حولها بوجل :

ـ ليس الآن وقته .. انظر ، إن نوال تتطلّع الينا .

ـ حسبتها تعرف كل شيء .

ـ أجل ولكنني خائفة .

تركتها حتى انسحب الطلاب من القاعـــة ، ثم سرنا معاً .

أعطيتها الورقة ، وطلبت منها أن تقرأها لي متعللاً بأني لم أستطع أن أقرأ خطها . أمسكت بها ففتحتها وأطبقت فوقها ، ثم تصنّعت الإصغاء حتى مرّ الطلاب .

– لا أدري ماذا أقول لك .. ماذا تعرف عني أنت ؟.

ظهر بعض رفاقنا فأسرعت تدسّ عينيها بين السطور ، حتى عبروا الرواق . كنت أشعر حينذاك أني أعبدها .

– لماذا تسألينني هذا السؤال ؟! . أأنت معادلة رياضية أريد فك مجاهيلها ؟.

وارتبكت فأسرعت تقول :

– لكنك لا تعرفني ؟ .

وشعرت بالغضب لكني أخفيته ، وسألتها ماذا تريدني أن أعرف عنها ، فسألت باصرار :

– ماذا تعرف عني ؟.

ابتسمت بعصبية وأجبتها هادئاً :

– أهناك شيء يجب أن أعرفه ؟.. أعندك شيء تقصّينه لي ؟.

وغمغمت بكلام متقطع : « لا .. لا أدري » .

ووقفنا عند أول شباك ينفذ منه الى الرواق الضياء ، فأدارت له ظهرها ، ووقفت بجانبي وقد تغمّست عيناها بذاك البريق الغريب ، وتخضّب وجهها بجرأة متحدّية .

– أتعرف شيئاً عن حياتي ؟.

– هم هم .

– أتعرف أني تزوجت ؟.

أومأت أن أجل .

– ولي بنت ؟.

فأطلقت الاشارة نفسها ، وسكبت شوق عيني على وجهها بصمت بعيد . ورأيتها تضطرم وقد تدلّت شفتها السفلى حيرة وتفاجؤا ، فبدت بذلك الشكل الفاتن الذي يطير لباب الوعي وقشوره .

– لكني لست مستعدّة للزواج ؟ .

فقرّرت باشّاً :

– سوف تستعدّين قريباً .. اعتبري نفسك منذ الآن خطيبتي . واذا رأيت أنه يصعب التفاهم معك فعرّفيني بوالدك .. وأنا أتفاهم معه . سوف أشتغل فوراً ، وأعتقد أني سأحصل في الشهر خمسمئة ليرة .

فردت متلكئة : – لا .. نحن نتفاهم معاً . يبدو أنني الآن لا أستطيع تقرير شيء من هذا النوع .. يجب .. أو يلزمني بعض الوقت لأنسى الصدمة .. وهذه تجربة جديدة تخيفني .. أعتقد أنك صادق ، فلنبق أصدقاء الآن .. إني مرتبكة . لقد تشاجرنا منذ الأيام الأولى ، وعظم الشجار بسرعة هائلة ؛ بعض الناس برغم تخنّثهم ، وضآلة وجودهم ، وحوش لا يعرفون غير أنفسهم .

تسرّبت كلماتها الى صدري مؤلمة وحزينة ، فلاحت لي

وراءها قصّة مفرطة العذاب .

– أنا أقدر مشاعرك وأحترمهـا ، وسأتصرف كما تريدين ، لكننا سنتزوج سريعاً ما أمكن .

فابتسمت وسألت :

– ألست صغيراً للزواج ؟ .

ورددت بنشاط :

– أنا ؟.. أنا أعمر منك .. كم تقدّرين عمري ؟..

فمطّت شفتيها ببسمة لم تفصح .

– مهما يكن . مهما امتدّ بنا الزمن فتأكّدي دائماً أني أحبك. ليكن كل شيء بيننا طبيعياً.. منذ أيام لم تبتسمي لي.. وهذا ضايقني. خلّنا نقل مرحبا ، صباح الخير وابتسمي ، وامنحيني منك نظرة .. فهذه النعم هي الأشياء الوحيدة التي أعيش عليها . لنذهب فنفطر .

سارت بجانبي واعتذرت أنها أفطرت ، ثم أعلنت أنهـا ستذهب الى المكتبة . كان الجوّ شاحباً فقالت :

– ما أجمل الطقس اليوم .

وبالرغم من أن الطقس لم يكن يعجبني قط ، فقد انطلقنا يلفّنا ربيع أخضر حلو النسمات ، كان أجمل ما فيه اضطرابها.

بعد أن ودعتها عند مدخل كلية الحقوق ، التقيت بصالح ، فسلّمت عليه :

– لقد تم كل شيء بسرعة غريبة .. سأتزوجها .

– أبا البشر .. كنت تتحدث معها الآن !؟

هززت رأسي إيجاباً فتفحّصني ملياً وقال :

– بشر .. أتحب الصراحة ؟ . كنت أود أن أعمل مثلك فلم أستطع ، أنا أعرف أن الحكاية من أولها ميدان سباق ، الفائز فيها يفوز بجدارة ، لكنني انهزمت فيها سلفاً ، فلم يكن بوسع « اللديدة » أن تنتصر ، أما أنت فيجب أن تتابع . يجب أن تستمرّ فيها حتى النهاية . إني أُحبّ التحدّي ولكن ليس في هذا الميدان .. إني أبارك هذه العلاقة من كل قلبي .

وصمت قليلا . ثم رفع يده بانفعال وأتم :

– إذا كان قدراً أن نستمرّ دائماً بتعاطي مخدّرات مجتمعنا فلا أقل من أن نحاول الثورة عليه . وأقول لك إني لم أحسن الظنّ بسحاب ، ولا أحسن ، ولكني أحترمها الآن لأجلك. لقد لقنت أن أعتقد أن مثلها غير سويّة ، وأنها بعد البكارة لا تساوي نحاسة . غير أني كنت أدرك من هنا .. من قلبي ، أن هذا نفاق ومحاولة لغشّ النفس . ومع يقيني التام بأنه كذلك ، فقد كنت كلما حاولت تحدّيه أشعر به يوقفني إيقافاً اعمى . لقد شبّ في داخلي اشبه بطبيعة بشرية . إني أحسدك قليلاً ، لكنني سأبقى معك دائماً . ويجب أن ينتصر واحد منكما أنت ودريد ، لقد انسحبت أنا ، اذ لا مجـال للحبّ في حياتي . انظر هـا هي « واحـة » .. لا تنسحب مهما حدث .. اعتقد أن سحاب وواحة في مستوى من الجمال واحد .

وصلت واحة الينا فحيّتنا .. رددنا تحيّتها وسألتها :

– كيف كانت رحلة بيروت ؟ .

فهزّت رأسها ، ورمتني بنظرة تقريع :

– لقد حكمت عليها بالنحس والإفلاس ففشلت .. لم نذهب. أنت مفلس بكل شيء .

قلت لها ضاحكاً :

– لقد ظلمتني يا آنسة ، فأنا غنيّ بالحب والافلاس .

وضحكت بقوة ثم انتهى ضحكها الى سعال .

وهتفت بها بصوت متهدّج : – واحة ، ابصقي .

لكنها لم تفعل : – كيف أبصق ؟ أمامكم ؟.

قالت معاتبة . فوضعت يدي على جبهتي وتمتمت :

– يا إلّه السماء .. عندما تسعلـــين ، مرة ثانية ، ابصقي وانظري ما لون البصاق .

–أي بس . لا تخفني .. ولا تكثر الكلام ..بخاطركم .

هممت أن أتكلم فانسلّت مبتعدة ، وحملقت بها مرعوباً : كنت حتى ذلك اليوم أحمل بقايا تسفّن في الرئة .

٦

اذا كان ثمة ما يُذكر بعد أن خطبت سحاب ، فهو أن طلاب الصف ومعظم من يعرفونهم علموا بأمر هذه الخطبة . وكانت النتيجة أنني صرت منبعاً ومصبّاً لكثير من التعابير . الذين لم يكترثوا ، قالوا إنني مغفّل ، والذين اكترثوا ، كان شعورهم الإشفاق . أما أن يكون أحد منهم قد شجّعني فهذا لم يحدث قط . وكان هناك فريق ثالث اغتنم هذه الفرصة ليشعرني بطريقة او بأخرى ، أنه ما كان ليفعلها أبداً ، ليس لأنه متزمّت ، بل لأنه أرفع مستوى . . أرفع مستوى بحيث يحملق بي بتسامح ويتابعني حتى أختفي .

كنت أعلم أنهم يشتهون سحاب ، وأنها تحتقرهم . ولم يكن من الصعب أن أفهم إشاحتهم عنها . كانت نوعاً من رد الفعل

خلقته استحالة صلتهم بها ، ومستوى هذه الصلة .

ومن جانب ثانٍ : فقد عيّنت محرراً في جريـــدة دمشقية ، براتب مئتي ليرة ، وهكذا فقد تضاءل الوقت الذي أقضيه في الجامعة ، وكثرت مشاغلي بعد أن تسلّمت الإشراف على صفحة أدبية اسبوعية ، ومارست كتابة بعض القصص القصيرة لأعود منها بدخل احتياطي .

لكنني كنت سعيداً . وكان يملأني الشعور بزهو الكفاح من أجـــل سحاب ، والعمل لبيت أبنيه سريعاً وأنا ما زلت في العشرين من عمري . كنت أُسرّ عندما أمسح عن جبيني العرق وأنا في كانون الثاني ، وأجلس في الليل ليعرق ذهني بدوره من أجل قصة قصيرة .

وعندما آتي الى الجامعة كانت تسعى اليّ وتحيّيني ونقضي معاً بعض الوقت . كانت دائماً خائفة ،وبرغم عتابي لهـــا ، لم تستسلم يوماً الى اليقين بأني سأتزوّجها . ولقد جعلني خوفها على كل شيء من التحاشي المقصود ، لذلك لم نكن نظهر معاً إلا برفقة نوال أو بعض الزميلات .

وإذ ظهرت أوّل قصة قصيرة لي ملأت الدنيا فرحاً . كان يعتريني الشعور بأني قدمت شيئاً أشبه بانتاج الأولاد . ولقد طلب مني رئيس تحرير الجريدة بسببها أن أكتب في الصفحة الأدبية ، قصة لها مكافأتها الخاصة . فلم أتردّد . ولم يبق لي من الوقت ما يكفي لأن اسأل عن سرّ هـــذه الطفرة اللامعقولة

وأحلّهـــا .

وبعد ظهور القصة الثانية في الجريدة ، جئت الى الجـامعة وكان مساء . كانت سحاب ونوال وزميل لنا في الصف ، طويل أجدع الانف يــدعى « فائز » . دخلنا المقصف معاً فتناولنا « شاتوه » . ثم رقينا الدرج الى قـــاعة الموسيقى لنحضر ندوة اجتماعية تشرف عليها لجنة من مجلس اتحاد الطلاب .

ورأيت بدهشة بالغة التأثير سحاب تتّجه الى البيـــانو ، وتجلس اليه فتضع قدمها على نابه الأيمن ، ثم تبدأ أصابعها الطويلة بعض الموسيقى الكلاسيكية . اقتربت منها مأخوذاً بالمفاجأة والموسيقى حتى قاربت طرف البيانو المتقعّر . فوضعت كتبي ، وأصغيت بانتباه عميق . سحاب تلعب بيانو !! إنه أروع من أن يُصدّق ! إن عندها فيما يبدو أشياء كثيرة وكلها رائعة .

طفقت تنقل أصابعها وتتفقّد المفاتيح ، ورحت أتفقّد هذه الأصابع الغالية بنظرة وابتسامة وانفعال ، وشرعت أتمثّلهـا في كل خطوة وكل حديث ، وهي تتجوّل في بيتي فتملأ الدنيـا رقصاً من عينيها ، وسحراً من ابتسامها ، وحيوية من حركاتها . وأنهت العزف فصفّقنا لها بشدّة ، وتأمّلتها بإمعان .

تحوّلنا نناقش موضوع الخجل في علاقات الجامعيين فعرفه فائز نفسياً ، ثم قالت سحاب إنه ليس غريزة .

وفتح قولها الباب للجميع فتسلّلنا الى النقاش . سأل بعض الحاضرين :

– ليس غريزة .. كيف ؟

فأجابت : – لا ليس غريزة .. لولا الرقابة الاجتماعية والحظر الديني ، وقد دأبا منذ بدء الخليقة على تعقيد طبائعنا ، لما كان هناك خجل ، وإذا كان قد أصبح غريزة بفعل الزمن ، فهو ليس بالفطرة .

وفسرت نوال : – لا أعتقد أنني أخجل لأن شيئاً في غريزتي يخجل ، بل ببساطة لأن الموضوع المخجل شيء يخجل منه المجتمع لا أنا .

سأل أحد الحاضرين بحفيظة ملحوظة :

– وهل المجتمع والدين يا آنسة شيء وأنت شيء آخر ! ؟

قلت : – إن المجتمع والدين لا شيء . الشيء الوحيد هو أنا: عني تنبع المثل العليا ، وبالنسبة لي تقدّر قيم الأشياء .

سأل آخر هادئاً :

– عفواً .. هل تستطيع أن تنفصل عن المجتمع بهذا الشكل ؟ .

فأجبت :

– الانفصال عن المجتمع ليس معجزة ، ولا شيئاً خارقاً . إنه لا بد لكل من يملك مخاً ومخيخاً وبصلة سيسائية أن ينفصل عن هذا المجتمع الذي نعيش فيه عقلياً ، وروحياً ، وينقلب ضد كل شيء . ولست أعني بالانفصال الانقطاع السلبي ، بل الوجه الثاني لمحاولة التغيير .

سأل ذو الحفيظة وهو ما يزال على حفيظته :

– وماذا يفعل الدين ، أعني ما الفائدة منه في مثل هـــذه الأحوال ؟ .

فقرّرت سحاب :

– الدين موضة قديمة . ألا تعترف بأن مجتمعنا في منتهى الحاجة للتغيير ، وأن الدين لا يهيئوه له ؟ . الشيء نفسه بالنسبة للخجل ، المرء لا يخجل الا بمقدار ما يستسلم لظروفه ويركن لمرتسمات مجتمعه .

أعلن المتكلم الثاني فجأة :

– أشهد أنكما انقلابيّان خطيران ، وأعتقد أن مجرد المجاهرة برأيكما يثير الرأي العام .

فقلت بحميّة : – إن الرأي العام يثور لأن إيمانه جزء من شخصيته ، ولو فهم أنه فوق مستوى العقائد ، وبالتالي انفصل بهذه الشخصية من الذوبان في أية فكرة ، فسيقف على أدوائه ، ومن ثم يعالجها .

ونددت سحاب :

– إن الرأي العام عندنا يؤمن إيمـــاناً قطيعياً بقيم ومعايير وجدت لمجتمع سابق ، ولا يعرف لماذا يؤمن بها . ولذلك عندما تهاجم إيمانه يشعر بأنك تهاجمه شخصياً .

واعترض المتحدّث الأول وهو لا يزال على حفيظته :

– هناك دين يا آنسة وإلـه . ألا تشعرين بأنك خلقة قدرة

ما وأنك لم توجدي اتفاقاً ! ؟

– كلا .

ندّت عن الحـــاضرين دمدمة سريعة ، وتعالى لغطهم ، فأسرعت الى القول :

– لا تفترض حلا ميتافيزيائياً . هذه مشكلة لا تعرف حلّها . ليس من الضروري أن تعرف سرّ خلق الإنسان .. الضروري أن تعرفه هو : أن هناك زوجات تُجلط رقابهن ، وأُمّهات يشلّهنّ الروماتزوم ثلاث سنوات ، وشباباً يبصقون دماً وهم في السابعة عشرة ، ورجال دين لا يمكنهم الزواج ، إنهم عقيمون ما عادوا يصلحون للحياة . المهمّ أن تعرف أن في العالم أحراراً يحا كمون وشعوباً تذلّ ، وفي الجزائر أبطالاً لا زالوا يموتون باسم الحرية . أليس من حقارة القرن العشرين أن يوجد فيه حتى الآن بعض من يموتون من أجل الحرية ؟.

ردّد المتكلم الثاني ذاهلاً :

– حقارة !! الموت من أجل الحرّية حقارة ؟ .

ففسّرت نوال :

– يعني أن البشر لم يتعوّدوا حتى الآن على الحريـــة ، بينا تعوّدوا على أربع زوجات ، وملاءة سوداء تصبغ الدنيا أمام المرأة بلون قاتم ، لا تراه أبيض الا عندما ينحصر في جدران أربعـة .

أعلن المتحدث الأول بترفّع :

– اذا كنتم ستواظبون على إهانة الدين هكذا، فالأمر لا يحتمل . يجب على الأقل أن تراعوا بعض التهذيب في حديثكم عن عقائد سماوية ..

كان كلام المتحدّث بعدهذه الفقرات غاضباً وبذيئاً، فنهضت اليه ، ونهض هو الآخر فتماسكنا استعداداً للضرب . وهرع الينا الحاضرون ففرّقوا بيننا . قلت :

– لا أعتقد أنك تدافع عن الدين بهذه الطريقة . إن الدين الحقيقي ما لبّى حاجات الناس ، لا ما منعهم عنها .

انفرطت الحلقة مباشرة ، وخرجنا من القاعة : سحاب تمسح صدغها ، والزميل يمشّط شعره ، ونوال تصلح من شأن ثورتها ، وانا أشد بنطالي الى الأعلى ، وكلّنا نبتسم .

التقينا بواحة فسارت معنا . وبعد قليل انتهيت الى أن انفصلت بسحاب ونوال ، وانفصل فائز بواحة .

كان رأسي يطنّ ، وعندما جلسنا حول طاولة في البوفيه ، تسلم الحديث فائز . لم أتابعه ، خاصة أنه كان مملّاً ، بل ولم أنتبه الا الىواحة تكحّ بسعال جارح. صرخت بها : «واحة ابصقي!» وتنبّهت الى مجانية صراخي وطلبي للأدب ، فاعتذرت ثم أضفت :

– يجب ان تستشيري طبيباً يا واحة .. استشيريه فلن تخسري شيئاً .

طلبت سحاب دفتر الشعر مني ، لتأخذ عنه بعض الأمالي

ثم تناولته بنفسها من بين كتبي .

بعد قليل لم يكن ثمة ما يبرر بقاءنا ، فانطلقنا حتى مدخل الجامعة . وهناك سارت الفتيات معاً ، وسرت مع فائز .

وعرفت منه أنه يحبّ واحة ، وأنه أكثر من ذلك ، مدرك حبي لسحاب .

سألته عن رأيه فيهافلم يجب. وأثارني صمته فألححت بالسؤال، لكنه لم يتكلم ، وشعرت من إلحاحي بشيء من الخفض، فامتنعت بدوري عن الكلام . ترى ماذا يودّ أن يقوله لي ويمتنع ؟.

٧

ودعت فائز وقصدت مبنى الجريدة فبقيت حتى الثـــانية صباحاً . وبعد إرهاق شديد عدت الى غرفتي ، فوجدتها مرتبة ومنظفة بصورة لا يمكن أن تفعلها سوى ثريا. ابتسمت مغتبطاً، وانطرحت على السرير .

استيقظت في التـــاسعة ، فأسرعت انسخ القصة القصيرة وأرسلها في البريد ، ثم اتخذت طريقي الى الجامعة . وهنـاك رقيت الدرج الى المنتدى ، فرأيت واحة جالسة بجانب طاولة ، منزوية في الركن الغربي منه . « إن واحة فتاة دافئة » خطر لي أن أفكر فجأة ، وجلست على كرسي ثان وحيّيتهـا ، فابتسمت وسألتني للتوّ :

– أتسمع الأذان ؟. هذا أذان من الجامعة .. لماذا لا يبنون لنا كنيسة صغيرة هنا أسوة بكم ؟.

قلت مازحاً :

– الدين المسيحي انتهى، فقد نسخه الإسلام، وينبغي أن تصلّوا بعد اليوم بالركوع والسجود وبعض السور .

فنبرت مترفزة : – يا عيني ، نسخه ! صلاتنا أحسن .. فنحن نجلس فنستمع للصلاة : باسم الآب والابن والروح القدس ، إلّه واحد آمين .

قلت مازحاً ايضاً :

– يا له من إلّه واحد . في صلاتنا رياضة تفتقرون لها ، لهذا تجدين أمة الاسلام أقوى عضلياً من الأمة المسيحية .

ضحكت بصفاء : – اسم الله .. طالب جامعي ويقول أمة إسلامية وأمة مسيحية . شعوب مسيحية يا أستاذ .. شعوب .

فاعترضت : – اذا كانت هناك شعوب مسيحية ، لا بأس فهم متفرّقون ، لكن عندنا نحن أمة إسلامية .

صاحت : – اي .. لأجل يسوع اصمت، لا تتكلم حرفاً ثانياً.

ضحكنا معاً ، ونظرنا الى النافذة . كان الأذان قد انتهى وأخذنا ندرس ما يقرب من نصف ساعة .

شعرت أني متعب مكدود ، فتراخيت على الكرسي ، وأخذت أتمطّى . تفحّصتني واحة بفضول فابتسمت ، والتقت أعيننا برهة وحدّقت في عينيها ملياً ، فقد كانت تلك أول مرة

أكتشف أنهما جدّ حلوتين .

قلت لها : – أنا اعرفك منذ سبع سنوات .

فاستغربت . وأضفت :

– كنت ألاحقك في الشوارع .

ضحكت وهزت رأسها . ثم سألت :

– لماذا لا تشتغل في الصيف ؟.

فقلت مازحاً :

– افرضي أني اشتغلت مع الوالد المحترم في الكنيسة، وكنت أنت مسؤولة عن الشؤون المالية ، فكم تعطيني في الشهر ؟

ضحكت : – إن اشتغلت جيداً .. مئتين ، وإلا مئة وخمسين .

كان شعرها الشفقي يتجمّع ساحراً في تسريحة خلابة .

قلت لها فجأة وبلهجة جادّة :

– واحة ، معي بطـــاقة ثنائية لحفلة تنكّرية راقصة ، فهل تذهبين معي ؟.

فنبرت مغضبة : – يا إلهي كم تحلم !. كأنك تعيش في الحيّ اللاتيني .. أنت تعرف أن أبي لا يقبـل أن أمشي مع مسلم خطوة واحدة .

قلت لها :

– أتعرفين أني أحترم أباك كثيراً ، أعتقد أنه يحبك ، وأنا أحترم كل من يحب ابناءه ، خاصة اذا كانوا صغاراً مثلك .

فضحكت ضحكة مهزومة :

– لا بأس ، سوف أردّها لك في المستقبل . والآن لندرس .

تقيّدنا بالدرس نصف ساعة أخرى ، أقبل بعدها فائز فجلس معنا .

– الآنسة واحة ، تعبانة من الدرس .

وضحك لوحده . ثم آثر الصمت ففتح كتابه .

تمطّيت ثانية ، وتحمحمت ، ثم أطرقت متوقّعاً أن تعلّق واحة ببعض التقريع على تصرّفي . ولم ينتظر فائز بل سألها :

– ستذهبين الى اللاذقية في العطلة ؟.

فردّت أن أجل . وغمز بعينيه وسألها ثانية :

– ماذا ستحضرين لنا معك ، شيئاً من منتجات اللاذقية مثلاً ؟ .

فتطلّعت اليه جادة : – كنافة ؟. ماذا تريد ؟.

وتضايقت من سؤاله فقلت : – احضري له جبنة مسنرة .

فضحكت : – ما أكثر ما تتكلم .. وماذا تريد أنت ؟.

وبعد أن تقلّصت ابتسامتي رفعت أصابعي بشرود وقلت :

– أحضري نفسك سالمة . فلست أريد شيئاً . خذي دراسة « حدّ الموسى » لموم وأرجعيها لي عندما تنتهين منها .

وفيما تناولت الدفتر قالت لفائز :

– هكذا يتكلمون .. ليس مثلك .

مرّت نصف ساعة أخرى قرأت واحة الدراسة خلالها ،

ثم اقترحت أن أرسلها مترجمة لمجلة عربية .

وشعرت أن فائز تضايق ، فاستأذنت منهما وذهبت . تجوّلت في النادي قليلاً ، وعندما هممت بالخروج منه رأيت واحة تسير خارج الجامعة . وأقبل فائز فاصطحبني من جديد . رفعت عيني الى جبهته وقلت :

– أترى .. إنها تحضّك على مغازلتها . قل لها كلاماً لطيفاً فهي رقيقة الشعور .

أجاب وهو يتحاشى أن ينظر إليّ :

– لا .. فهذا يضعف من شخصيّتي عندها .

ثم غيّر الموضوع بأن لكزني بيدي وقال :

– هل ستشترك بالرحلة للإقليم الجنوبي؟.. لقد اشتركت سحاب .

وشعرت أن فائز يخزني بكلامه ، فقطعت عليه الطريق :

– إنني أعرف ، فقد أخبرتني بذلك .. لتذهب ، فليس في الأمر حرج ... يجب أن نحرّر عواطفنا من الوهم .

فكرت لحظة وسألته : – لماذا لم تقل لي رأيك بسحاب ؟ .

لكنه استمر صامتاً ، ولم يرد عليّ بشيء . فصحت به غاضباً :

– فائز ، انزع عن وجهك هذا القناع الصفيق السخيف .. قل لي ما رأيك ؟.

فأجاب بهدوء : – طوّل بالك .. طبيعتي أنني لا أتدخل في أحوال غيري . ماذا يهمّك رأيي ؟.

قلت له بإصرار : – أنا اعرف أنك مثل غيرك .. ولا تظن

أن رأيك يهمّني في كثير أو قليل .

فأطلق ضحكة متوددة وقال :

ــ يخرب بيتك، كم تثور بسرعة ! لماذا تظن أني أعرف شيئاً؟. افرض أني أريد نرفزتك . هناك أقوال كثيرة ولا يمكن أن يصغى لها دائماً .

طلبت بإصرار أقوى : ــ قل لي ما رأيك .. كفاك تخنّثاً . ما رأيك ؟ .

وارتدى وجهه قميصاً جدّياً فصمت لحظة وقال :

ــ ليس هناك شيء ، تأكّد .. ولكن سحاب لا تناسبك .. أنت من الريف وهي من المدينة .. وهي من دمشق ، ليس فقط من المدينة .. أنتما تختلفان .. هل جرّبت النساء بعد ؟. تصور كيف ستجتمع بها .

حدّقت به برهة ثم شرحت له :

ــ فائز ، اذهب فانتحر فوراً . الجبنــــاء مثلك يسألون هذا السؤال .

فندّت عنه قهقهة عالية وصاح :

ــ يخرب بيتك .. حكمت عليّ بالإعدام .. اسمع ، دعنا من سحاب ، قل لي فأنت من اللاذقية، هل تعرف عن واحة شيئاً ؟ إني أدرس معها ، ولكننا لا نتعرّض لشيء . فأنا لست انتهازياً للفرص مثلك لأغازلها . قل لي هل يمكن أن أحدّثها بصراحة ؟.

نهرت به : – يخرب بيتك .. انتم المسيحيين آباء التحرر ، وتأتي فتسألني هذا السؤال؟ أنا أقول ما تريد .. إذا كنت تقبل.

فطوّق فائز كتفي بيده وقال :

– لا ليس الآن .. فيما بعد . لنتعرّف أكثر . إني أريدها جدّياً ، ولكنها تبدو شيئاً ما مترفّعة . أليس كذلك ؟

فأجبته منتهراً أيضاً : – لا، لا تبرّر لنفسك، إنك لا تجرؤ على أن تكلّمها .

وودعته وتوجهت الى الجريدة .

٨

بعد بضعة أيام ذهبت الى المكتبة . كان الوقت صباحاً والجوّ مليئاً بغيوم رمادية خفيفة . ومن بين الموجودين العشرين فيها كانت سحــاب ونوال ، فقصدت طـاولتها وجلست على كرسيّ قريب .

نادتني سحاب فأقبلت نحوها مشوقاً . ولمـا وصلت فتحت دفتري على صفحته الأخيرة وأخذت تسألني بعض الـكلمات التي لم تستطع قراءتها . وقد مهّدت لي أسئلتها الطريق لأن أطلب منها ومن نوال أن ترافقاني الى المقصف ، فوافقتا ، وخرجنا من المكتبة .

كنت مكدوداً من عملي بالجريدة فلم أشأ أن أتكلم ،

وتركت لهما الحديث . كان جلّ كلامهما عن الطعام وبعض المأكولات الغريبة ، ثم انتقلنا للنوادي والرقص والحفلات . تـذكّرت البطاقـة التي معي ، فأعلنت لنوال رغبتي في أن ترافقني للحفلة . كنت أعلم أن في رغبتي هذه تجنياً ، ومع ذلك فقد أبديتها . واعتذرت نوال بأنهـــا ستذهب مع أخيها ، وأشارت لسحاب أن ترافقني . وردّت سحاب بهـــدوء : «سأذهب مع بابا » .

كنت أعلم أيضا أنها لن تذهب معي، وفي هذه المرة لم أطلب منها بل اكتفيت بالابتسام. وكأنما أدركت حرج رفضها، فأشارت أن أدعو حسناء . وكان لا بدّ لي من أن أتذكّر أن لحسناء هي الاخرى ، أخوين وأباً وأماً وأخوات .

سحبت البطاقة من جيبي فمزقتهـــا ، وسرت صامتا . عاتبتني نوال :

– كان بوسعك أن تذهب مع كثيرات .

وسألت سحاب : – لماذا مزقتها ؟

فأجبتها أن لم يحن بعد الوقت الذي أحضر فيه هـــذه الحفلات :

– سأحضرها كصحفي ، اذا استطعت ، بلا نساء .

جلسنا حول طاولتنا المعتادة فأحضرت « شاتوه » وأخذنا نتحدّث بوجوم . شعرت أني تصرفت أبعد ممـــا ينبغي وأني خلقت بتصرفي جوّاً مقبضاً ، فتحيّنت فرصة أبدّد فيهـــا هذا

التكاثف الثقيل . وحين شكرتني نوال للشاتوه ، قلت :

— أنا من ينبغي أن اشكركما .

فابتسمت بعذوبة وسألت: «لماذا ؟ » فأجبتها موزّعاً نظرتي بينها وبين سحاب :

— ألا ترين أني سعيد بالجلوس مع أجمل فتاتين ؟.

فابتسمت سحاب ، بينما تابعت نوال :

— هذه مجاملة .

فقلت وقد دبّ بي بعض النشاط :

— اذا اعتبرت ديواناً من الشعر يثيره وجودكما مجاملة ، فأنت تظلمين العاطفة .

فسألت وهي ما زالت تبتسم :

— ماذا اسميه اذاً ؟.

— تجلياً .

كانت سحاب تبتسم مطرقة فتعبّئوني بتحسّس عاطفي .

ورفعت اليها عيني وقلت :

— سحاب .. أنا أعمل الآن بجدّ .. أعتقد أن دخلي الشهري سيبلغ عدا راتبي في الجامعة خمسمئة ليرة . أي أننا نستطيع أن نخطب في الصيف ونتزوّج في الخريف ، فما رأيك ؟ . إني لا أعرف بيتك حتى الآن ، ولا أحداً من اهلك ، وأنت كذلك. لكن هذا لا يهمّ. أنت تعرفين أني أريدك بإخلاص، وهذا يكفي. إن حبي لك من القوة بحيث يمنعني من التفهّم العملي لطبيعتك ،

وهذا أيضا لا يهمّ ، فأنا أريدك ولو كنّا طرفي نقيض . أما بالنسبة لك فأرجوك ان تجدي بي في المستقبل شيئا تحبّينه . أعلم أني أبدو مراهقاً في علاقتي بك ، ولكني أملك ثقة كبرى بنفسي ، بل وأعتزّ أني أُحبّك حبّ مراهقين ، وأنت في الواقع أول حبّ حقيقي لي ، نما بالاحتكاك ، والتجربة الحياتية ، فهذا الحب سيدوم ، ولا أعتقد أنك تحتاجين لشيء قدر احتياجك لإنسان يحبك .

كانت تمسك بطرف الطاولة ، وقد سرحت على وجهها ظلال تأثّر عنيف ، ففتحت فمها قليلا وتمتمت :

- إني لا زلت خائفة .. إن علاقتنا غير طبيعية ، ووجه المنطق فيها ليس على ما يرام .. ارجو ألا أجرح شعورك بكلامي ، ولكننا يجب أن نبقى أصدقاء فقط . إن الناس مليئون باستعداد ضخم ليتقيأوا مبادىء التحرر الفكري والاجتماعي بسرعة مذهلة ، وهم ينهشون ببراعة سمعتي ، فيتهمونني ويقضون عليّ . إن اكثرهم تحرراً ينتكس أمام أول تجربة تحرّر يمرّ بها . وأنا لا استطيع أن أعيش كما يعيشون . اعرف عني هذه الناحية منذ الآن . أنا لست متحرّرة فقط بل متحلّلة ، متحلّلة بعرفهم طبعاً . اذا تزوجنا ، فلا يمكن مثلا أن أخلص لك بدافع الواجب ، ولا أقبل بك مصلّياً او صائماً ، او ذاكراً الله في كثير أو قليل .. ما علينا .. الآن يجب أن نظلّ أصدقاء .. لا أكثر . ولا تقل لأحد أيّ شيء تبغيه .

ـ إنني أشرب كل حرف تفوّهت به.. وأعبده . سوف نبقى كما تريدين ولن أطالبك حتى بمشوار ..

كلماتها الهادئة الرصينة تسلّلت بعمق وروعة من فمها الى صدري ، جعلتني أؤمن بأن شيئاً ما في هـــذا العالم لن يمنعني عنها .

ونهضنا من مجلسنا ندور حول الحديقة . كان القطار ينساب فوق القضبان ، ولكن بلا صفير .

وبعد قليل ودّعتها وأنطلقت الى مبنى الجريدة .

٩

في الثانيـــة صباحاً ، تركت العمل وعدت الى غرفتي ، فاستلقيت مجهداً . وعند العاشرة استيقظت ، ولمـا حاولت النهوض ، شعرت بجبهتي تنحز ، كأنما تمـــزّقها مدية رهيفة . انقلبت على الفراش برهة ، ثم حاولت النهوض ثانية ، فدوّمت الغرفة في ناظري . وشعرت بأن شيئا ما أشبه بمـــحّ البيض ، ينفصل داخل رأسي عن عظامه ويتقلقل بثقل عظيم .

أدركت أني مصاب بالحمى ، وأنه إن كان لا بدّ لي من النهوض فقليلا قليلا . شربت كوباً من الماء وعدت أتقلّب فوق السرير . وأحسست أن ريقي جاف ، وأن قوتي توشك أن تخور .

بعد ساعة اخذت أئنّ ، وكلما انقضى بعض من الوقت كنت

أحسّ باندفاع حـــادّ يمرق كمزراق من رأسي حتى نحري .
كانت عيناي متراخيتين عندما نقر الباب نقراً خفيفاً فنهضت متثاقلاً وفتحته . ولما رأيت ثريا أمامي استحييت من أني لا أزال بالمنامة ، اما هي فدخلت تتفحّصني باستغراب :

– مريض ؟. يا إلهي .. كم مضى عليك وأنت مريض ؟. هل أخذت اسبرين ؟. هل شربت شاياً ؟.. ارجع الى السرير واسترح .. سأصنع لك الشاي .. يا الله ، يا الله .. استلق على التخت . يا إلهي كيف يجلس وحده .

أسرعت ثريا تهيّء الشاي ، ثم تغسل الأكواب ، فتنتقل في الغرفة مرات لا تحصى . وبعد قليل سحبت كرسياً حتى السرير وجلست عليه ، ومدّت يدها فوضعتها على جبهتي . أغمضت عيني أغالب مزيج الإحساس بالمرض ونشوة الدفء في يدها ، كانت حرارتهـــا الخفيّة منفصلة التأثير عن ارتفـــاع حرارة رأسي . تناولت يدي ما يقرب النصف دقيقة ، ثم أمسكت أصابع قدمي ، واعلنت :

– لا بأس .. لا بأس .. الآن ستشرب الشاي ويزول المرض .

قلت لثريا إنها يجب أن تبتعد ، فقد خشيت أن أكون مصاباً بالأنفلونزا ، وأفهمتها انها ستصاب بها مثلي . لكنها لم تصغ لي ، ولم تتكلم ، بل استمرّت تتلمّس أطرافي ورأسي . ثم نهضت فتفقّدت الشاي ، وأطفأت النار . وبعد قليل أحضرت لي

كوباً ينفض أبخرة حلوة التمنّي ، وهرعت الى حافظتها فتناولت بضع حبات من الاسبرين وضعتها على ناصية السرير .

– لا تتكلّم حرفاً واحـــداً . اشرب وارتح ، ونم اذا استطعت .. تغطّ باللحاف جيداً ، لتتعرّق وتزول السخونة .

ابتسمت متعباً وتمتمت :

– ثريا .. سأذهب بعد أيام الى اللاذقية ، فماذا تريدين ان أجلب لك معي ؟.

أجابت ببشاشة طلقة : – لا شيء ، سلـّم على أمك كثيراً ، وأهلك . استرح ولا تتكلم .

فألحفت أنه يجب أن أحضر لها شيئاً ، لكنها رددت بسرعة : لا ، لا ، لا أريد شيئاً .. فقط سلّم على أمك .

وخيّل لي أن في صوتها غصّة فالتفتت نحوها بتساؤل، ولكني لم اكتشف شيئاً فقد تحولت تتشاغل بترتيب الطاولة .

وأغمضت عيني متعباً ، فأسرعت تلفّني باللحـــاف . وبعد قليل تميّعت الرؤى والتصورات في ذهني فانكمرت جيداً ونمت .

عندما استيقظت فتحت عيني على ثريا جالسة بجانبي ، وبين يديهـــا مجلة أسبوعية . أسرعت تغطّيني بإحكام ، وتمتم بعض الجمل . لم أفهم منها شيئاً ولكني حدست أنها تأمرني بالاستمرار لأزداد تعرقاً .

لم أستطع أن أبقى تحت اللحاف كثيراً ، فرميته عني ، ثم عدت فتغطيت به حتى رقبتي خوفاً من احتجاجهـا . تلفّتت

نحوي مبتسمة ، وتأملتها بدوري : إنها دائماً رائعة . قلت لها :

– ثريا ، عندما يأتيك ولد هل ستعتنين به أكثر مني ؟ .

فازدادت ابتسامتها اتساعاً وبهجة . قالت :

– لا أريد أن أرزق بأولاد منه .. لا بأس، إذا جاءني صبي، سأسميه بشر .

أغمضت عيني بجبور صميم وسألت ، إن كانت ستحبه فيما لو جاءها قبيحاً مثلي . فضحكت ، وصبّت لي كوباً آخر من الشاي ، وناولتني معه حبة اسبرين .

بقيت ثريا حتى الظهر ، ولم تكن تتحرّك عن الكرسي ، إلا لكي تحضر لي مجلة او كوب ماء ، او تتلمّس أطرافي . وفي الثانية عشرة والنصف أمرتها بالذهاب ، فنهضت بدون اعتراض ومدّت لي يدها .

أمسكتها بيدي ، ورحت أقبّلها ببطء قبلاً طويلة ، ثم غمرت بها وجهي ، وأغمضت عيني متعباً . هذه الأصابع التي تغسل الثياب وتجلو الصحون لا تزال ناعمة طرية لدنة ، لا تزال تثير الشفقة والشعور ، وتوحي بأن صاحبتها امرأة ، وأخيراً سحبت ثريا يدها خجلى دامعة ، ثم تحوّلت لحافظتها فحملتها وخرجت .

مكثت في الفراش حتى العصر . كانت الحمى قد زالت ، لكن رأسي بقي مثقلا . ولبست ثيابي ومضيت الى الجامعة .

كان الجوّ غائماً والضوء المنتشر في الفضاء ظليلا ، يوحي بكآبة عميقة . مثل هذا الجو تحبّه سحاب حباً قوياً .

تسرّب إليّ شعور بالنشوة وعدم الاكتراث ، وتقدّمت الى الحديقة ، فجلست على أحد مقاعدها .

بعد قليل أقبل دريد وصالح فجلسا بجانبي دون كلام . وتضايقت لذلك فقلت لهما :

– ماذا ؟.. هل أصبتما بالحمى ايضاً ؟.. ماذا جرى لغيداء ، دريد .. هل تحدّثت اليها من جديد ؟

أنزل دريد حنكه ، ورفع شفته السفلى ، ثم نقر برجله على الأرض . حدقت به كالعادة لأستحثّه على الكلام ، فنشم وقال :

– لم أجلس معها مرة وتصرّفت كما فعلت هذا الصباح معه . جلسا على المقعد ساعة كاملة ، وأنا أراقبهما ، ولم تنقطع عن الابتسام. وكانت دائماً تنظر اليه، وتبتسم، وتضحك وتستفسر . ماذا كان يحدّثها ؟ لست أدري . إني أحدثها كثيراً ، وأعتقد أن أحاديثي طريّة ، الأدب ، وأسطورة الجنوب عند وليم فولكنر ، ومدارس النقد الحديثة ، برادلي وغيره . موضوعات تستطيع بواسطتها أن تتفهّم طبيعة محدّثك ، ودوافعه . كانت تسمع لكنها لم تكن تبتسم ، ولا تتكلم ، وتوافق على كل ما اقوله . فكنّا ، تلك هي طبيعتهن: لن يفهمننا أبداً، لو سكنت في فيلا فسيبقى ذهنها في الحرملك .

ازداد صداع رأسي فطلبت منه أن يصمت .

– تلك هي أحسن طريقة .. الصمت .

هز صالح رأسه وهو يتأمل شجرة عارية . كنت أعلم أنه

يشعر ، بضآلة عميقة . لقد قضى صالح في سجون الجنوب شهوراً متعدّدة ، كنا ننظّف المراحيض ، ونحرم من طعـــام تقبله النفس .. استلقيت على المقعـــد وأغمضت عيني . ونفخ صالح بقــوة :

— الكآبة تقتل أعصابي .. سأشرب بيرة .. او نبيــذاً ، لعله يطفيء التهاب صدغي . لا يأت أحد منكم .

وذهب دون وداع .

— أنا متأكد أنه لن يشرب بيرة ، ولا نبيذاً ، بل سيتجول في الشوارع حتى ينهك ويعود الى غرفته .

فتح دريد رجليه وتفّ بضع مرات : الحياة لا تطاق في كل مكان . عندما يبحث المرء بكل تشوّقه ونجعته عن فتاة ، فإنه في الواقع يبحث عن انعكاس نفسه في صورة أنثى . عندما تقول لفتاة بيتاً من الشعر يملأ دماغك ، فيعجبهـا ، تجد أنك إنسان حقاً . المشكلة أنه ليس هناك أبيات من الشعر ، وليس هناك من يسمعها .

كنت أفكر في سحاب .

استرخى دريد على المقعد ، وغطّى عينيه بأصابعه ، ثم طفق ينشم وينف ، وأخيراً سكن . قلت له :

— أعتقد أني سعيد هذه الأيام ، دريد .. إني أتعب كثيراً ، ويرهقني العمل .. وأنا سعيد لذلك : سوف ترى في المستقبل أية زوجة سأتزوج ، أية روعة ، واية ألوهية ، فتاة يتمجّد في فمها

البعث ، وتمحي من وجودها العقد وعفونات التاريخ .

كانت أصابعه لا تزال فوق عينيه . وبينا جعلت أنظر الى السماء وأبتسم ، أخذ يعصر جبهته ويقول :

ـ أعتقد أن علاقتك بها طفرة . وما ينقصني حتى أخلق هذه الطفرة ، إنني أؤمن بالاحتمالات ، وأحسب حسابها . وإني كثير التفكير ، كثير التحليل . تبتسم فتاة لشاب ساعة كاملة: معنى هذا أنها تحبّه ، ومعنى هذا أنها لا تحبّني .

مطّ دريد شفتيه للأمام ، وأصابعه لا تزال تعصر جبهته : « معنى هذا أنها تحبّه .. »

واستغرقته تأملة سكونية كسلى ، وطفحت على وجهه سحبات شعورية كئيبة ، ثم تقدم نحو النافذة فالتصق بجفافها ، وبعد قليل عاد فأمسك ديوان « ابي القاسم الشابي » ، وراح يقرأ لنفسه .

ـ قم بنا دريد ، يجب ان أذهب الى الجريدة .

الفصل الرابع

١

من جديد أعود الى اللاذقية، مدينة ما عرفت فيها غير الألم ، وفقدان الحب ، ولا يزال فيهـا مع ذلك ، شيء من عـاطفتي وكثير من الذكريات . لقد عشت فيها وحيد النفس والحياة . وتتلمذت بين شوارعها على مشاريع المستقبل وأفانين الطموح .

الحديقة العامة ها هنا ، ونسيم البحر الرطب لا يزال يخضلّ بالرذاذ السابح كالأحلام . هنا كنت أجلس ، كما أجلس الآن ، أنبش من بين غيوب المستقبل ما أحبّه ، وأودّه من الحياة . وها أنذا أجلس على هذه الصخرة وحيداً ، لا أزال أنبش ، ولكن ذكرياتي طريّة الملمس والوقـع ، وابتسامـات كنت أوزّعها على الموج الصاخب شغفاً ، وانتظاراً لمستقبل ، كأن

أيام الحرمان عزائي الوحيد. هذه الأزهار الجرداء، والشجيرات الغضّة ، والصخور المخرشة تعرف كل شيء مما حدث بيننا .

تركت الحديقة الى حانوت أخي ابراهيم . كان المـارّة على عادتهم ، يسيرون بخمول وبطء ، كأنهم يتوقّعون شيئاً يعرفون أنه لن يكون . وهم مع ذلك ، يسيرون وكأن همّ الدنيا كله على قلوبهم ، وكأن مسؤولية لا تطاق قد أنيطت بهم ، لا يريدون التخلص منها .

لم يكن الشارع يحوي أياً من المفـارقـات ، ولقد رحت أتأمّل أصحاب الحوانيت والمخازن بإمعان ، لعلي أكتشف بعد غياب سنة ونصف عنهم تغيّراً ما، او شيئا جديداً . لكنه لم يكن غريباً عندما دخلت حانوت أخي أن كان الانقباض يغضّن جبهتي ، ذلك لأني لم أجد علامة تستحقّ الذكر، اومنظراً مثيراً للانتباه .

دخل إبراهيم فلم يحيّني ، واتجـه الى الطاولة يفصّل رزم الأقمشة المتكوّمة عليها . لقد استقبلني أمس بفتور شديد . كانت الكلمات تخرج من بين شفتيه باردة بطيئة مكرهـة ، مصحوبة بنظرة شاردة ، لم تستقرّ على وجهي ابداً . وفيما عدا ذلك فقد استمرّ يقرأ الآيات التي حفظهـا من القرآن منذ ثلاثين عاما .

ولا بدّ من الاعتراف بأن غيظاً عميقاً طفا في صدري . لقد كنت أختلف وإبراهيم كثيراً فيما مضى ، لكنه لم يستقبلني قط

بمثل هذا الجفاء . وزاد في حنقي أنه ، حتى تلك اللحظة ، لا مبرّر له .

نهضت عن الكرسي وخرجت من الحانوت دون أن أتكلم . ولكنني وقفت ، فقد تكلم إبراهيم :

— لا تعد ثانية الى الحانوت .

شعرت بما يشبه الصدمة من كلماته ، فأخذت أتأمله باستغراب ثم تابعت مسيري صامتاً . الطريق ينفسح أمامي عن رؤى رمادية كئيبة ، والعمارات تنتصب أمامي صلعاء في صمت الأبد وتهويمة البقاء .

على بعد بضع خطوات وقفت على إفريز الشارع صبية حلوة السيماء ، وتثاءب الى جانبها بيت « منيرة » في ملل . نظرت الصبية الي ، وأدارت ظهرها ، وسارت بضع خطوات ، ثم التفتت . كانت عيناي متعبتين ، فعزّ عليّ تميزها . لكنها تقدّمت نحوي وقد انفرجت شفتاها الثرّتان عن سحر وفتنة وشوق يقال لها ابتسامة . إنها منيرة .

سرت اليها ذاهل اللبّ والخطى ، يتراقص في عيني سؤال لا جواب له ، وتتبدّد على شفتي تكشيرة مرة .

كانت ابتساماتها تتّسع ، وتتّسع ، فتنفتح عن محار فضي ، وعيناها تسبحان في تألّقة نديّة الشعاع .

صافحتها ، فابتسمت . وبينما أخذت تسألني أسئلة لا عدّلها ، رحت أراقبها ببسمة هازئة بالحياة .

– ألا تأتي فتزورنا ؟.

رفضت ببضع هزات من رأسي ، وبصري لا يزال عالقاً بصباح عينيها ، إنهما لا تزالان ترشحان رقصاً ونداوة .

– لا تزال عنيداً .

وابتسمت . كانت يدها لا تزال في يدي ، فرحت أتحسسها ببطء وذهول ، وأضغط أصابعها .

– أنت صامت على غير العادة ؟. أين كلامك العذب ؟.

تأملت صدرها المنبثق ، وذكرت الأمسيات التي كنت أضمه فيها . يدها في يدي ذكرتني بوردة بين جناحي فراشة . لم أستطع أن أصدق انها تزوجت ، وبالرغم من أني كنت أعلم أننا سنفترق ، فلم أحسب لمرارة اللقاء الثاني حساباً ، وما فكرت بأني إن رأيتها ثانية سيخفق قلبي بشيء غير الوجيب .

– أتذكرين كلامي ؟

فأغمضت عينيها في نشوة :

– أوه .. شد ما أذكره .. لقد كان يفتل رأسي ..

ابتسمت ، انا الآخر ، وقد لعبت بي الذكرى :

– أتذكرين كيف كنا نتأمل بعضنا ، ونبتسم في مرآة الخزانة ببيت أختي ، اذ يعج بالزائرين فيستحيل علينا أن نتبادل النظر في وجودهم ؟.

ضحكت منيرة بصفاء وبرقت عيناها المسليتان :

– أجل إن الذكرى تفعم قلبي .

– وعندما كنت ترقصين وتدورين في غرفتي حتى تنهكي ، فترتمي على السرير ، وآتي اليك فأرفعك عليه جيداً ثم أقبّلك ؟.

هزّت رأسها بنشوة فائقة :

– ثم ثرت علي لأني ذهبت أدرس على حساب الدولة في الجامعة ، ولم أذهب للكلية العسكرية فأتزوجك ضابطاً ، وكانت النتيجة أنك تزوّجت تحدّياً ..

أطرقت منيرة كسيرة الخاطر محزونة :

– لاتكن قاسياً .

تذكّرت سلوك ابراهيم ، وشعرت بحمامة تتزحلق عـــلى صدري .

– كلا .. أنا لا أحاول لومك ، لكني أحاول أن أفهم . كنت أعلم أننا لن نتزوّج ، ولقد سلكت أنت طريقاً منطقياً معقولاً ، غير أني لا زلت أرى كل شيء غير مقبول . لقد أحببنا بعضنا ، ولم يكن ثمة مبرّر لان تتزوّجي غيري .. من يدري؟.. هذه القضية برغم بعدها عن المنطق انتصرت . وأما الآن فكل منا مرتبط بإنسان آخر .

كانت يدها لاتزال في يدي ، وقد أسلمت أصابعها في حنان، فشددت عليها بقوة وبطء . وأنا أعلم أني أؤلمها .

– بخاطرك .

وودّعتها .

الجدران لا تزال تنتصب في صمت الأبد ، وتهويمة البقاء ،

وعلى بعد قليل مني فتاة تحبني ، وكنت يوماً أحبها . وعجبت كم تعبث بالقلوب الحياة ! . كان الهواء يتدافع فوق الأرصفة ، كل شيء كما عهدته ، إلا منيرة فقد تزوّجت !! .. لقد كانت تأمل أن تتزوّجني ضابطاً، وما أكثر ماشرحت لها أنني لاأستطيع التطبّع بحياة الجيش ، وأن نظـامه فوق مستوى فوضى الروح التي تعيش بي .

لم أسر كثيراً حتى وصلت الى بيت خزامى . وطفقت تبكي اذ رأتني ، وتنعت ابراهيم بصفات غاضبة :

– اذا كنت ستتركها لأجله ، فلا تتكلّم معي .

عاد إليّ سلوك ابراهيم الغريب ، فعجبت . قلت لخزامى ، إني أرى امامي مجرّد ألغاز فرددت :

– سحاب . إنه يريدك أن تتركها لأنهـا مطلّقة ، ويقول ، لان سمعتها .. ليست طيبة .

مططت شفتي ونكست رأسي « هكذا اذاً !! » وشعرت بخنق بداخلي كبير . رويت لخزامي كيف تصرّف معي ابراهيم باختصار . وضحكت ضحكة . شعرت أن برأسي فجوة .

ارتقيت الدرجات القليلة الى غرفة طفلهـا ، فرأيته يستند على يديه ، ويتناهض من فراشه . فتح عينيه جيداً وتأملني .

– هالو ؟!.

– أجل خالو ، تعال عندي .

بعد قليـل جاءت خزامي بالشاي وجلسنا نشرب . وراح

طفلها يشرب من فنجانينا ، ويتدحرج بحيوية فائقة على الأرض .
ولما لم نجد شيئاً للحديث نهضت لأذهب الى بيت سليم .

لم يكن استقبالي ببيت سليم ، أبهج منه عند ابراهيم ، فقد جرى مسرف الحزن . استقبلتني بناته على السلم ، وتعلّقن بي ، فحملتهن على كتفي وظهري ، وبين يدي . وما ان وصلت حتى بدأت شفيقة شكواها وبكاءها من تصرّفات سليم وإفلاسه . وقد أعلنت اخيراً أنها متأثرأن مني لأني خطبت فلم أخبر أحداً .

إن الحياة مع إخوتي لا تطاق .

قلت لها إني لم أخطب بعد ، وسأفعل ذلك في الصيف . فلم يخف عني وأنا أحدّثها ، أنهـــا وسليم لا يحبّذان هذه الخطبة . وهكذا أخذت أداعب الصغيرات وأقبّلهن ، وهن يتصـــايحن حولي فرحات نشطات . وبعد أن انقطعت عن الحديث مع شفيقة ، وقفت فتحية وسألت برزانة بالغة :

ــ ان انقطعت عن الحديث مع شفيقة ، وقفت فتحيــة وسألت برزانة بالغة :

ــ عمو .. ستتزوج واحدة مطلقة ، وعندها بنت ؟.

وأقبلت فايدة تسأل هي الأخرى :

ــ عمو .. حلوة عروستك .. حلوة ؟.

فانتهرتها شفيقة ورحت أقبّلها .

ــ متى تذهب لرؤية أمك ؟

ــ غداً .

٢

استقبلتني ليلى عند المحطـــة بكثير من القبل والدموع ، وأصرّت أن تحمل عني حقيبتي . عندما سرنا معاً ابتدأت تتعثر في مشيتها .

أمعنت النظر اليها ، بثوبهـــا الريفي البسيط وكندرتها المطعجة ، والمنديل الأصفر الباهت على رأسهـــا . وهممت أن أسألها عن حالها ، فامتنعت . إني أعرفه جيداً ؛ أما قدماها فقد حفرها البرد بأخاديد كثيرة .

وصلنا الى البيت ، وتقدّمت من أمي مطروحة على السرير ، تمدّ لي يدين مرتعشتين ، وهيكلا عجز عن النهوض ، ووجهـــاً يترعّش فرحاً وابتساماً ، فعانقتها بحرارة . ضممتها الى صدري ،

فأغمضت في استسلام إغمائي ، وتراخت بين يدي قليلاً ، ثم أسرعت تشدني اليها . وأخذت عظام يدها تتحسّس وجهي .

– اغسل يديك ، وتعال اجلس بجانبي .

انتقلت الى صحن الدار ، فأقبلت ليلى تصبّ لي الماء: عندما تسلّم عليها لا تشد يديك .

تفرست بها ، فأدركت ما تعنيه ، وأطرقت أغالب شعوراً بالايلام .

– عندما آخذها للمرحاض ، لا اجرؤ على لمسها ، انما تستند عليّ ، ومع ذلك تؤلمها عظامها .. يا إلهي ما هذا الروماتزم .

شرقت ليلى بالدمع ، فأخفت وجهها . ودخلت الى البيت ، فجلست على طرف السرير . وأخذت أمي تتأمّلني بحنان وبشاشة ، وتمدّ يدها فتلمس يدي دون أن تتكلم . وكنت أتوقع منها في كل لحظة أن تسألني عن سحاب .

وفجأة امتدت يدها الى ظهرها وقد تقعّر بعنف سريع وتقبضت عضلات وجهها ، فأغمضت عينيها ، ومطّت فمها ، ثم شرعت تصرخ ، والحروف تتمزّق بين أسنانها وتنسحق .

هممت أن أمسكها فمنعتني ليلى : « ستزيدها ألماً » ، واستدارت تتشاغل بإيقاد المدفئة . نظرت الى امي فوجدتها تتلوى كنبات زاحف ، والكلمات تندغم في حلقها ، وشيئاً فشيئاً أخذت تتهاوى ، وحركتها تتخامد ، ثم ارتمت على السرير فاقدة الوعي ، خامدة أشبه بالموتى . لبست معطفي

وتركت البيت . كان المطر يسقط مدراراً مع هزيم الريح البشع . إنه لا يعقل أنني بعد غياب عام ونصف عام عن أمي لا أستطيع معانقتها !. لقد كنت أرفعها عن الارض كل زيارة ، وأدور بها ما استطعت .. إنه لا يطاق .

سرت شرقاً حتى بلغت « البيدر العام » المليء بالقبور ، ثم توجّهت الى تلة رطبة باردة ، نهضت عليها ثلاثة نصب حجرية ، لأبي وأخوي الشابّين ، ينحدر الوادي بجانبها حتى يصل الغابة ثم تنبسط بعده سهول غضارية لا تكاد تتبين . جلست بين النصبين الجنوبيين ، ورحت اتأمل المطر : كان يغسل الفضاء .

نهضت أجرجر نفسي نحو البيت ، وقطرات الماء تنزلق عن معطفي ، ومررت على الطريق الأبيض الموحش ، المليء بالحجارة والوحل : نفسه ، الطريق الذي كنت ألعب عليه صغيراً ، وأعود الى البيت بقدميّ الحافيتين إلا من كتلة طين .

دخلت البيت فرأيت أمي مفيقة . واستغربت إذ وجدتها تجلس وحدها على السرير ، فجلست بجانبها ، وراحت تعانقني وتغرقني بالقبل والدموع وبعض الأنين :

ـــ آه .. أحس أني عدت شابّة .. إنها يا بني فيقة الموت .. سأموت قريباً . ربما كان من الأفضل أن ترسل لأخوتك كي أودّعهم . أسندني فأني سأذهب للخارج .

لقحتها فوق ذراعي ومشيت بها ، فشعرت كأنني أحمل كيساً من العظام . أدخلتها المرحاض ، وأمسكت بيديها

حتى انتهت ، ثم حملتها من جديد . كان حزن صعب المراس يلتحف بأضلاعي .

بعد زمن قصير ذهبت أزور جيراني ، لبضع ساعات ، ثم عدت مثقلاً بهذه العاطفة التي يكنّونها لي ، والتي لم يستطع أن يضعفها الزمن .

ودخلت البيت فرأيت أمي مسجّاة ، وقد تميّعت مرضاً ، وتحلقت حولها بعض النسوة . انقبض قلبي بسرعة ، وأسرعت الى جانبها . كانت شفتاها تتحركان ، وعيناها مغمضتين بعنت وتعب ، وهيكلها هامداً ساكن النبض .

اقتربت ليلى مني تكظم حزناً غالباً ، فربّت على كتفها ، ولكنني جلست عاجزاً عن أي عمل . وبدا أن أمي تموت ، كانت ليلى تبكي فأسندت رأسها على صدري : « لا تبكي ، هذه نوبة عادية » .

اقتربت النسوة منا واقترح بعضهن أن أرسل لاخوتي فيأتوا ، لكنني طمأنتهم الى أنها لن تموت ، وعدت فالتفتّ اليها . كانت تعضّ شفتها السفلى بعنف وقد تيبّست يدها تحت ظهرها ، واستقرّت على وجهها غيمة من عذاب كافر سحق ملامحها .

لم أكن أشعر أنها ستموت ، لكنني في تلك اللحظة بدأت أخشى . ورحت أحملق بها ، والفكرة تتعاظم في صدري ، حتى أصبحت جرساً ضخماً ، يطن فيعمي بصيرتي . كان رأس ليلى لا يزال

على صدري ، ودموعها تنحدر بحرقة .

وانقضى الليل ، وذهبت النسوة ، ونحن لا زلنا جالسين : أمي يخترها الألم ، وليلى أغفت على صدري ، وأنا أغالب نعاساً فظاً . عند الفجر ، سرحت فيما يبدو ، أكثر مما ينبغي ، فأغفيت. واستفقت على أمي تئنّ وتصرخ ، فوجدت أني ملت عليها . كان يتمركز في عيني نعاس شديد . أسندت ليلى على إفريز السرير ، وفتحت فراشاً لفحتها عليه ودثرتهـــا ، ثم طفقت أجول في الغرفة وأنا أشتهي لأول مرة لفافة أدخنها .

ترى ماذا يحدث عندما تتغلب الطبيعة على إرادة الانسان ، فتغفو ليلى وتتألم أمي أو تحتاجها فلا تستطيع إيقاظها ؟

وكلّت ساقاي عن المسير ، فجلست على كرسي من خشب ولم أدر متى أغفيت .

استيقظت عند الضحى ، ورأيت ليلى بفستانها الكتاني البسيط تنتظرني وفي يدها إبريق ماء . التفتّ لأمي فوجدتها تنظر الي بابتسام حنون . أقبلت اليها ضاحكاً ، فتهلّلت أساريرها وقالت : « تقبرني .. لم تنم البارحة » .

– لا يهمك .. أنا معتاد على السهر .

٣

اغتسلت ولبست ثيابي ، ثم خرجت أزور أصدقائي. الوحل لا يزال يملأ الطريق بصلابة نسبية ، والماء يركد في حفر لم تتغيّر منذ تسع سنوات . هنا كنت ألعب بالدحل ، وبالكرة أصنعها لفقري من قماش . كان زملائي في المدرسة الابتدائية يخاصمونني ، ذلك لاني لم أكن أملك استعداداً للمزاح وتبادل النعوت .

ها هنا ينتصب دار « ام علي بدرة » وهناك دار « أبي فهد ريحان » وهنا وهناك .. البيوت نفسهـا لم تتغير . منذ ثلاث سنوات لم أرها ، ومع ذلك فهي لم تتغير !. كيف ينعزل الناس عن العالم ضمن هذه القواقع الأبدية ؟. لم أكن أدري ، ولم أكن راضيـاً . الأهالي ، والوحل ، وهواء القرية النقي ، ما زالوا

يسبحون الله ، ويحلمون بجزر الواق الواق . « وكامل رشيد » ما زال يعرج ويتنبأ للناس بمصائرهم . لقد أخبر أمي وهو يجلس على الدكة الطينية أمام البيت ، أنها ستموت قبيل الربيع . وقد ابتسمت وأجابت أنها تتمنى أن يكون الكلام صحيحاً .

شارع القرية الرئيسي ، خالٍ كالعادة الا من الدجاج . وسور البستان الصغير على اليسار ، ما زال متهدماً ، وعلى عهده ، ينبح صوت المطحنة من وراء جدار مرتفع بتقطع دوري .

وصلت المدرسة الابتدائية ، ورأيت التلاميذ ينتشرون على ساحتها الواسعة لاهين عابثين . هنا درست خمس سنوات . سلمت على الاستاذ علي ووقفنا معاً نتحدث عن مدرسته . « تعال بعد الظهر نلعب شيش بيش » .

على الطرف الأيمن للساحة – او للبازار كما نسميها في القرية – جثمت غرفتان ملطختان بألوان ناصلة كئيبة : المقهى . دخلت المقهى فوجدت بعضاً ممن كنت وإياهم في المدرسة الابتدائية ، يلعبون الورق والنرد بسراويلهم الكتانية السوداء ويتصايحون . هبّوا فسلموا عليّ ، وجرّوني الى طاولتهم ، وسرعان ما اشتركت معهم بلعب الورق .

بعد حوالي الساعة خرجت من المقهى . كانت الشمس تفرش الساحة والأشجار العارية الفارعة ، بأشعة باردة . سحاب في القاهرة الآن . إنها في كثير من تحركاتها وسيمائها تشبه أمي قبل أن يهدّها المرض . كانت أمي فتية وثابة ، سريعة الغضب

دافقة العاطفة ، بالغة الحيوية ، لكنها كانت تنتهرني عندمـــا كنت أخطيء او أتشيطن . وكنا نحب بعضنا حباً متخطياً ، عنيفاً ، حاداً ، ومنذ صغري درجت على النوم معها وازددت بها تعلقاً بعد وفاة أبي . وبعد ستين عاماً قضتها في العمل المضني داهمها المرض . لماذا وجد المرض في حياة الناس ؟. مـا الحكمة من ان أبصق دماً ، ويشلّ الروماتزم مفاصل امي ؟ لو كنا بلا مرض لوفرنا الكثير ، ولكان للحياة طابع شديد الاختلاف . إنه من ضرورة المنطق ألا يوجد مرض .

الحياة في القرية لا تطاق .

٤

قاربت العطلة أن تنتهي وأنا لا أزال أجلس قرب المدفأة. والمدفأة عندنا نفق يحفر في الجدار، تشتعل النار عند قاعدته. الشيئان اللذان كنت أفكر فيهما أكثر هما سحاب فالجريدة. ولعل من الغريب أني لم اكن اجرؤ على التفكير بأمي. كنت مثقل الذهن من رؤياها، مكدود المشاعر. ولم يكن تألمها يثير من الألم بي أكثر مما أثار من سخريتي بالحياة. من المؤكد أن انتهاء الإنسان الى هذا المصير سخيف، بعد أكثر من نصف قرن قضاه يعطي الحياة حيويته ونضارة صباه.

وهكذا كلما فكرت بأمي، ركدت على هذه النتيجة، ترضّ مشاعري، وأنتقل ذهني الى سحاب، فأزداد عزماً على

محاورة الحياة بهـــا . كنت أحس أنه لا بد من الانتصار على شيء ما . إن أمي في حكم الميتة ، إنها لا تأخذ ولا تقدم شيئاً ، وإذا كان من المنطق بسبب ذلك أن تموت ، فإنه لمن المحير ، ومن غير المقبول بالنسبة لي ، بطريقة ما، أنها لا زالت تعيش . امـا المحيّر أكثر فأن تعيش وهي لا قيمة لها : إن أمي لا قيمة لها . بعد أكثر من نصف قرن أعطت امي فيه الحياة أضعاف مــــا أخذته ، يحيلها المرض الى شيء لا قيمة له. حتى وجودها كإنسانة اصبح لا يطاق .

إنه ليس معقولاً أن تموت أمي ، كما انه ليس معقولاً أن تعيش . ومع ذلك فلا المرض يقبل بالرحيل ، ولا أنا أقبل بأن تموت : رفضان لا يمكن الاستفسار عن سببها مطلقاً . إنهما موجودان بصورة قدرية وتلك هي المشكلة .

لم تحدثني أمي عن سحاب ، لأنها ببساطة ، لم تعرف عنها شيئاً بعد . هكذا قالت ليلى ، وطلبت مني أن أخفي خلافي مع إبراهيم عنها . ولم أدر بالطبع كيف أبرّر لنفسي أني لم أقـــل لأمي : « إني خطبت » . لقد جئت اللاذقيـة وأنا أشعر ، أن هذه الأم التي قدمتني للحياة منذ عشرين عاما ، لا يمكنها أن توافق على خطبتي .

وهكذا مضت أغلب ايام العطلة . والشيء الوحيد الذي فعلته هو أنني ، بسبب ازدياد حدّة المرض على أمي ، أرسلت لأخوي واختي في اللاذقية أن يحضروا الى القرية . وأما بقية

الساعات فلم يكن لها معنى . وهذا الوجه الذي اخضلّ بكآبة غضارية ، وجه النهار ، يكاد يخلو مما يشعرني بوجودي . إنه نفسه الذي حفر بي صغيراً أن لمس الفتاة جناية ، وأن السؤال لماذا فعل الله هكذا ، يودي لجهنم مباشرة .

كانت ليلى تدور في البيت بنوع من العبودية الذليلة لفراغ أيامها ، فراغ لا تعرف له سبباً ولا نهاية . إنها تبحث عن عمل تؤديه في البيت فلا تجد ، وليس ثمة ما يعمل . وهكذا فهي تسحب الكرسي من زاوية لتضعه في أخرى ، وتشرب دون أن تكون عطشى ، وتحاول إشعاري بأهميتي دونما مبرر ، ثم تنتقل الى عتبة الباب ، فتقف وتتأمل المطر معقودة الذراعين : إنه يغسل الفضاء .

دكشت في المدفأة عود حطب ضخما ، فأقبلت اليه النار ، وسرعان ما اشتعلت فيه .

استيقظت أمي من نوبتها الأخيرة ، فأقبلت وليلى اليها ، وجلسنا على طرف السرير ، ولقد راحت بعد ذلك تتكلم بخفوت ، كلمات لم نكن نسمعها ، لكننا أخذنا نبتسم لها . كان لا بد من أن نكذب عليها قليلا ، وكانت العملية تتمّ بيسر وسهولة ، وبلا تفكير .

سمعنا أمام الباب جلبة ، ثم دخلت خزامى ونديم زوجها ، وسليم وابراهيم ، فشفيقة والصغار . نهضت فسلمت عليهم ، الا إبراهيم فقد تخطاني قبل أن أمدّ يدي نحوه . وتجمّعنا ثانية حول

سرير أمي ، التي راحت تتأملنا بغبطة فـــائقة ، ثم تتفقدنا واحداً واحداً .

– بقي هلال .

وشعرت من كلمتي أمي أنها كلمتا وداع .

عند المساء أعلنت أن شيئاً خفياً ينسلّ من قدميها ، وأنها تفقد الشعور بوجودهـــا بالتدريج . وبعد قليل امتلأ البيت بالنسوة، وأعلن ابراهيم أننا يجب أن نوجهها الى القبلة ، فشاركت بالعمل آلياً . لم أكن أدرك ماذا يحدث . ولست أدري إذا كان من المخجل أن أعترف أن الحزن لم يكن شعوري الغالب في تلك اللحظات . كنت لا أفقه شيئاً مما يدور حولي : بعد قليل سيتحول إنسان حي ميتاً ، وهذا الانسان امي ليس غير .

تقدّمت اليهـــا كتلة من العظام مسجاة على فراش ومغطاة بلحاف . إني أشاهد عملية موت ، وأعتقد أن من الواجب أن أظهر بعض الحزن .... لكنني لم أستطع ! لماذا وجد الحزن في حياتنا ؟.

فهمنا من أمي ، ببضع إشارات وغمغمات متعبة ، أنها تريدنا أن نقترب منها ، ففعلنا . ومدّت يدها فمددنا أيدينا ووضعناها عليها . سحبت يدها الثانية ووضعتها فوق الأيدي كلها . في تلك اللحظة كان لا بد أن نكذب أنا وإبراهيم أيضاً .

ولم يعد بوسع أمي أن تحرك أطرافها . كما لم يعد بوسع ليلى وخزامى وشفيقة أن يرفعن رؤوسهن عن اللحاف . اما سليم فكان

يبكي بانكسار ، وابراهيم يضع إصبعه المكوفة بين فكيه ويبكي بهدوء . وفي تلك اللحظات ايضاً ، شعرت بالدمع يطفر من عيني، وبإدراك غريزي هائل يجتاحني ، وبأنني أنطلق ضمن دوار عميق يبتلعني كلية .

لا أذكر ما حدث بعد ذلك ، لقد مرت دقائق يستعصي عليّ تذكّرها . كل ما بقي في ذهني منهـا ، أني كنت أبكي ، وأبكي بصورة لا إرادية ، لا شعورية وليست واعية .

عند الفجر ماتت أمي ، بكل حتمية . ماتت وهي توصينا ألا نختلف ، وتلفت رعاية إخوتي لي باعتباري أصغرهم .

لقد تجرأ الموت وسأل أمي لمـاذا تعيش ؟. ولا بدّ من أن يكون الإنسان سخيفاً ليسأل الموت عن علاقته بنـا . غير أنني صرت سخيفاً لحظـــة من زمن . وفي هذه المرة ، عندمـا نظرت اليها ، تستلقي في استقرارة أبدية ، بلا عيون ، سألت لماذا تموت أمي ، وأدركت أن السؤال قدري ايضاً .

لقد انتهت أمّي ، وما أضيع الشقـــاء الذي تكبّدته طيلة أكثر من نصف قرن !

٥

ودفنّاها في التلّة الشرقيّة الباردة . ثم مررنا بتلك التشكيلات المرهقة من طقوس الموت في القرية ، مع تعديل بسيط ، هو أن إبراهيم لم يحدّثني أبداً ، وأن سليماً لم يحدّثني الا غراراً . وأخيراً اجتمعنا وحدنا .

ـ أظنّك ستترك هذه العاهرة بعد الآن ؟

تركت المجلس وذهبت . الحياة مع إخوتي لا تطاق .

لم يكن ما حدث بعد ذاك مما يحلو للإنسان تذكّره . لقد كانت الخلاصة أن أعلن إبراهيم وسليم مقاطعتي . وفي اليوم التالي أقفلنا البيت في القرية الى الأبد ، وركبت مع خزامى وليلى سيارة وذهب أخواي في سيارة أخرى . ووصلنا اللاذقية

بوجوم ، فدخلنا بيت خزامى أكثر وجوماً . وأقبل نديم فجلس بجانبنا ساكناً .

– هالو ؟ .

وحملت ابن اخي ورحت أقبّله بغزارة، وأخذ يعبث بشاربي حتى أُغفى .

بعد قليل اندفعت فتحية وفايدة لاهثتين الى الغرفة وارتمتا على حضني ، وهما تتصايحان :

– عمو .. عمو .. صحيح زعلان منك بابا ؟

أمسكت الصغيرتين وصرت أسلّيهما ، لكن فتحية أبت الا أن تعلم : أحقاً « زعلان بابا ؟ . »

أحسست بسخريّة الموقف ، واضطررت ، هذه المرة على الصغار ، أن أكذب فأخفي عنهما كلّ شيء .

ونهضت أتجول في الغرفة ، ثم هممت بالخروج ، فلحقت بي فتحية .

– عمو .. رايحة معك .

ولما وافقتها لحقت بي فايدة :

– وأنا عمو .

ذهبنا الى الحديقة العامة ، فجلست على مقعد ناءٍ فيما راحتا تلهوان حولي . وأخذت أتأملهما ، فبعد الآن لا أعتقد أنني سأرى هذا الحب ، ولا ألتقي به . وعند العصر عدت بهما حتى

العمارة التي يسكن فيها أخي ، ولما هممت بتوديعهما أصرّتا أن أدخل معهما . لكني قبّلتهما وألويت أسير الى خزامى .

لقد قاطع سليم وابراهيم خزامى وليلى بسببي ، ولم يكن عملهما بالحقيقة إلا تهرّباً من مسؤوليتهما الجديدة أمام ليلى .

ولقد مكثت في اللاذقية يومين آخرين لم أرَ فيهما أخوي . كنت حزيناً حتى أنني ، يوم الرحيل ، ودّعت أختي بالصمت والدموع .

الفصل الخامس

١

كان الجوّ الضبابي الكئيب الذي توجّهت فيه الى الجامعة يفتتح صباح آخر يوم من أيام العطلة . لم يكن ثمة أحد ، فعبرت الحديقة الى المكتبة .

وتقدّمت الى سحاب باسماً متفائم الوجيب ، وصافحتها بشوق وقوّة فالتمعت على تخوم عينيها تألّقة لا تنضب .

ـ هيّا بنا الى النادي .

وخرجنا . كانت ترتدي تنورة نيلية في منتصفها مثان شديدة الجاذبية ، وفوق القميصة البيضاء تنطرح كنزتها الرمادية الجميلة . خرجنا من المكتبة وسرنا معاً ، وأخذ رنين كندرتها يطنّ في أذني كوقع بيانو .

– أنت غاضب ؟.

– حدّثيني عن رحلتك .

– ذهبنا بالباخرة ورسونا في بورسعيد . كان القبطان رقيقاً جداً ، وأحد الطلاب الذاهبين معنا ، يعزف كمنجة تذهل اللب .. يا الله .. ما أروعه . وبعد بورسعيد الى القاهرة . زرنا المتحف ، وقصر النيل والأهرام ، وحديقة الحيوانات ، ثم القناطر الخيرية . القناطر الخيرية أحلى مكان في الدنيا ، وقد ذهبنا في الجانب الثاني – وهو مليء بأشجار عالية نخيلة – وتوغّلنا فيه ، وكنا مجموعة من الشبان والبنات . آه .. نسيت ان أقول لك .. ذهبت من هنا مع ابن خالتي .. وبالطبع ، أنت تعرف ، لو لم يكن معي لما استطعت الذهاب . بقينا في القناطر ساعة من ألذ الساعات ، وكان معنا صاحب الكمان .. كان هناك بعض الثقلاء .. وأعتقد أنهم لم يوفروني .. ولكني طبعاً لا أبالي بهم . كانوا يتأمّلونني بعيون منحرفة ، ويمشون ورائي بخطى غبية كأن في أرجلهم خدراً .. المهمّ : عشنا في مصر أياماً لا تنسى ، نسي واحدنا نفسه . وقد ذهبنا للأقصر ، فرأينا معبد الكرنك العظيم ، وركبنا هناك زورقاً نيلياً أكثر من ساعة .. يا إلهي ما كان أحلى تلك الأيام . ولقد زرنا إسكندرية أيضاً ، وسهرنا في نادي الصيد ، وحضرنا فيلماً في سينما أمير .. ولست أدري .. ولقد عدنا بالباخرة نفسها ، ودعانا القبطان الى عشاء عنده .. كان القبطان قبطاناً فعلا .

وابتسمت سحاب وهي تطلق من فمها أمأمة استعذاب . قلت لها :

– حسناً .. اذاً فقد قضيت أياماً حلوة .

كانت منتشية ، فائقة الحيوية ، وفي عينيها يتألّق البريق الأبدي الروعة ، بظلاله التي لا تنسى . رأيت أن من غير المنطق أن أشقّ قلب هذه البشاشة بسكين الحداد ، وأعلن لها أن أمي قد ماتت . ماتت قبل أن تعرف أني خطبت .

– ام .. أحسّ كأني لا زلت في مصر .

وأغمضت عينيها . وشعرت ببعض الانقباض ، لكني لم أدر سببه . نهضت عن الكرسي ، فنهضت معي ، وعند الحديقة ودّعتها وخرجت .

ضربت بناتيء من الارض ، فدمدمت بشتيمة عابرة وسرت . قصدت بيت فائز ، ولما وصلت كنت قد أنهكت . رأيته في البهو يسمع بعض الأغاني الامريكية ، واستقبلني بترحاب شديد ، وأشار الى كنبة وثيرة . فغطست فيها .

ابتسم فائز من جديد مرحباً بي ، وسألني عن الصحة ، وعن أيام العطلة ، وأرسل ترحيباً آخر ، وسؤالاً عن أهلي ، لم ينتظر جوابه ، ثم انتقل لواحة بحيوية بالغة .

– رأيتها في اللاذقية .. كم اشتقت لها في مصر .. يا الله كم اشتقت لها . إنها مثال العفّة ، وديعة ، عاقلة ، مهذّبة ، يندر أن يوجد مثلها . المهمّ أنك تلقى فتاة كواحة مثلاً ، تثق بأنها شريفة ، وتنتهي مشاكلك .. فتاة مثل واحة تناسبني وتناسب كل شاب . أقول لك هذا الكلام ، يجب أن تفهمه ، يجب . إن

واحة لا تقبل بأن تعطي شفتيها لإنسان .

كانت ذقني تستند على أصابعي . سألته بدون اكتراث :

– ما رأيك بتصرّفات سحاب في مصر ؟.

هزّ رأسه متأفّفاً ، ورمقني بنظرة متخلصة :

– ها قد سمعت من غيري ، وتكلّمت أنا ، فلا تتّهمني بالجبن والتحيّز .. قلت لك إن المطلّقة لا يمكنها أن تبتعد عن الرجل أكثر من أربعة اشهر .. والآن سنة ونصف . ها قد سمعت من غيري ، فلا يمكنك أن تتكلم . هل تعتقد .. بشر اتركها .. واحة أحسن منها . أنت محتاج لفتاة مثل واحة ..

صمت فائز كأنما شعر بأنه أكثر من الكلام في مسألة لا تخصّه ، وقد يتحمّل بسببه مسؤولية ما في المستقبل .

طلبت منه أن يتابع ، ولما تلكأ : « أنا لا أتكلم في مشاكل غيري » لمح في عيني تصميماً لعله كان حيوانياً ، كنت أحس به أشبه بالتنويم . ونهض فوضع بعض الأسطوانات ، ثم جلس. طلبت منه ثانية أن يتحدث عن كلّ ما رأى . فغمغم بضحكة متحرّجة بضع كلمات ، ثم فرك أصابعه كأنه ينتقي الحروف :

– انطلقت الباخرة من اللاذقية .. وبقينا في البحر يومين .. فأصبح الرفاق ، هذا يتكلّم من هنا ، وهذا ينتقد جهراً .. عن القبطان . ولقد رأيته بنفسي يمسك ساعدها فيقودها الى ظهر السفينة ، ويشير لها الى شيء لم أعرفه ، فتغرق في الضحك ..

أنت تعرف ضحكتها .

أجل.. إن ضحكتها أشبه ببريق الأمل اذ يندلق في الفؤاد .

– ومن بور سعيد إلى القاهرة، فزرنا أجمل ما فيها: المتحف ، الأهرام ، قصر المنيل ، وغيره .. والقناطر . وفي القناطر ، بعد أن تجولنا قرب السدّ الصغير الذي وقفت عنده السيارة .. اجتزنا جسراً في الأول ثم لفتنا على الشمال فوصلنا جسراً ثانياً ، تحته السدّ .. تجولت مع هذا ابن خالتها قليلاً ثم غابا مع شاب وفتاة أخرى بين شجر السرو ... وهناك ، في ذلك الموضع ، شيء طبيعي أن يأتيك أحد أبناء البلد ، بجلبابه الواسع ، ويقول لك « عايز حاجة حلوة » .. وما أحلى تلك الحاجات.. بنصف جنيه . المهم بشر ، لن أحلف لك ، ولكن صدّق بأيّ قسم أنها لم ترجع كما كانت .. وخاصة بعد حفلة القبطان في العودة . أنا أتكلّم لك جاداً .. لست أدري ما الذي يجذبك اليها .. و..

صمت فائز قبل أن يتم ، ونهض فغيّر الأسطوانات ووضع أخرى إيطالية . قلت له :

– اذا كنت أقبل بسحـــاب بعد أن عاشت مع رجل من الكويت سنتين .. فكيف أرفضها اذا عاش معهـا قبطان يوماً او اثنين .. العملية نفسها ، سوى أن الأولى تمّت بورقة ، أمـا الثانية ، فبالإرادة ... اسمع فايز : دعك من سحـــاب ، فأنا أريدهـا ولو كانت بغياً . اذا افترضنا أن تخميناتك صحيحة – وأنت تحكم عليهـا بمقاييس لم أعد أقبلها – فالمهمّ في الموضوع

أنها تمت بإرادة . وأنا الذي سيجعل سحـــاب تمتنع عن هذه الأعمال ، ولكن حباً بي ، لا بسبب من هذه المقـــاييس . نحن نختلف فائز ، منبعاً ومصبّاً .. أنت تصلّي وأنا لا أصلّي .. أنت تؤمن بوجود الله ، وأنا لا موقف لي تجاه هذه الناحية ، ولا يهمّني أن أقف موقفاً ، لكني أعرف أننا يجب أن ننفض هذا المجتمع ، ولا بد من أن يشقّ أحدنا الطريق الأول بأعصـــابه .. وقد يكون بكرامته ولكن ينبغي أن نشق طريقاً .. ينبغي .

انسدل الصمت فجأة ، وأخذ كل منا يتعابث بشيء قريب منه ، وبعد حين اقترحت عليه أن نذهب ودون أن أنتظر منه الموافقة ، نهضت . وأوقف البيك آب ، ثم نزلنـــا الى الشارع وهو يمسك بساعدي .

عند باب العمارة كدنا نصطدم برجـــل يسير متأبطاً ، هو الآخر ، ساعد زوجته . انتبهت الى أن فائز يقبض على ساعدي بالطريقة نفسها : بصورة لا شعورية ، ولا قيمة لها على الإطلاق.

لقد أمسك القبطان بساعد سحاب هكذا . وضع أصابعه الغليظة على امتداد يدها من الكتف حتى المرفق ، وسار معهـا بضعة أمتار ، ثم رفع أصابعه . إنها ما كانت تسمح له لو أرادت.

ترى هل أشعر القبطان سحاب بأنه رجل ؟..

– فائز .. أحسّ أني بحاجة لكأس من النبيذ ... تعال الى هذه الخمارة لنرى .

وسرت فساروا ورائي . اشتريت مرة بطاقة مزدوجة لحفلة

رقص تنكّرية، ثم لم أعثر على فتاة تشاركني حضور الحفلة فمزّقتها. اشتريتها من سحاب ، فقد كانت مكلفة ببيع البطاقـــات في الجامعة . ولم يدر بخلدي أن أصرّ على ذهابها معي – لتذهب أمها مع ابيهـــا مثلاً .. لماذا لا تذهب – فقد كنت أدرك بصورة قبلية أنها سترفض ، لقد كانت في دمشق .

يبدو أن الانسان في مصر شيء آخر .

أحسست أني شديد العطش ، فرفعت رأسي وقلت لفائز :

– نخب واحة . للقاع .. لا ترجعه .

وأفرغت الكأس في جوفي كلها .. وقد انسكب في حلقي بطعم جديد لم أتبيّنه من قبل .

فكرت أني سأثمل ، فتابعت الشرب . لماذا أخشى أن أثمل؟. يجب أن لا أخشى شيئاً .. بل لا بدّ في بعض الأحيان من الثمل كي يفكر الإنسان بعيداً عن رسوباته ، وتحكّم معاييره الاجتماعية اللاشعوري برقبته ؛ يفكّر من منطلق جديد .

لقد ماتت أمي ، ماتت وليس لها قيمة . لم يبك عليها أحد الا أبناؤها وأصدقاؤها ، وهؤلاء بكوا بدافع الحب ، وكلهم كانوا يقولون إنها ارتاحت . إذا كان الموت راحة بالنسبة لأمي – لقد كان راحة فعلاً ، فهي تأمل بعد الروماتزوم أن ينتقيهـا الله للجنة – فهو بالنسبة لي انتهاء لا مبرر له .

ولقد تزوجت منيرة .. ما أكثر ما أحببت في حياتي .. لقد أحببنا بعضنا .. سحاب المرة السادسة فيما أظن ، ولكنها

صادقة وعميقة .. لقد أحببنا بعضنا ، تلك كانت المرة الأولى ، وكان بيننا شبه اتفاق على أن نتزوج. لو التحقت بالجيش لتزوّجت منيرة . لكن حبنا أيضاً لا مبرّر له ، لو كان .. لانتهى بالزواج، لكان ينبغي أن أتزوجها .

فائز يحدّثني عن واحة . إن من المؤسف أني لم أع كلمة واحدة منه ، فواحة فتاة رائعة يطيب عنها الحديث .

يبدو أنه كان يحدثني من زمن طويل ...

ــ ... الى ان واحة أصلح الفتيات لي ... ولذلك أحبها .

ــ هل تريد أن أقول لها ذلك ؟.

فضحك ولم يجب .

٢

أطلقت تنفّسة قوية ، وأخذت أعبّ النظر الى الحديقـــة . ما يزال إرهاق العمل في الليل يستقرّ في عروقي .. إن الصحافة متعبة . لقد انبثقت البراعم فوق رؤوس الأغصان .

ـ مرحبا .. أراك مكشراً ؟.

كان الصوت الناعم لواحة ، فنهضت عن كرسي مرحباً بها ، وقدمت لها كرسياً آخر ، فجلست بجـــانبي . سألتها بتشوق هادىء عن أهلها وأبيها ، وعن أيام عطلتها . فأجابت ببشاشة وغبطة ، ثم أسرعت تقول ، كأنها تخشى ألا تحـين لهـــا فرصة الكلام ..

ـ أتدري ماذا أحضرت لك من الكنيسة ؟. من عند أبي ،

فهو يحتفظ بأشياء قديمة ، قد لا يكون لها علاقة بالدين .

وأعطتني صورة لستة رجال رياضيين عراة ، يتمطّون بجوّ كامد الضوء ، قاتم اللون ، قاعدته حمراء غامقة ، وحفافــــه سوداء إلا من وهـــج صاعقة تهوي من فوقهم . هززت رأسي باسماً :

– النيتان .. أشكرك من كل قلبي . ولكن هل تتوقّعين لي نهايتهم نفسها ؟.

فرفعت حاجبيها :

– ألم تقل إنك تحبه ؟ حسبت أنك ستسرّ به .

فأسرعت أطمئنها الى غبطتي القوية بالرسم . وشكرتها ، ثم سألتها إن كانت قد أحضرت لفائف كنافة . فضحكنا معاً ثم أعلنت أنها لم تحضر شيئاً .

أمعنت النظر الى عينيها فجأة فأطرقت ، وحوّلت نظري الى قاسيون تنحدر عن سفوحه بيوت دمشق وتتجمّع في القاع ، ثم أطلقت زفرة غير واعية . وعدت أحملق بواحة من جديد ، فتطرق وتعبث بكتابها . سألت فجأة :

– أخبرنا عن تكشيرك يا أستاذ .. اسمع بشر ، هل نراجع البرنامج معاً ؟. قل لي ماذا وراء غضبك !!.

– ماتت أمي في العطلة .

أدركت دون أن أنظر الى وجه واحة أن تقبّضاً سريعاً قد عجنه ، وتسلل الى أذني صوتها العميق حنوناً ، شديد التأثير .

– الله يرحمها. لقد ارتاحت من مرضها .. وأنت لم تعد بحاجة لأحـــد .. ومع أنـــك .. تحبّهـــا حقاً فمثلك من يتحمّل فقدها بصبر .

جاشت نفسي ، فالتفت نحو واحة ببسمة صفراء – ما أندر ما يمر المرء ببسمة صفراء ، وما أشنع – فرأيت عينيها ترتعشان تأثراً .

– لقد ماتت أمي . أجل ، مات جذر الطهر والحب الذي يربطني بالعالم . كيف استطاعت الحياة أن تكون مقفرة بهذا الشكل ، أن تجعل أحدنا يشعر أنه كل إنسان في لا إنسان ؟ . لقد ماتت أمي التي أُحبّت كل شيء : الله والفقر والألم، والناس، ماتت بالروماتزم جلداً مجعداً ، وعظاماً ناتئة زرقـــاء . لقد ماتت ببطولة ، ودفن حبّها بلا احتفـــال . وستنضمّ الى قائمـــة الموتى من أسرتي على التلة الشرقية البـــاردة . يشعر الإنسان أنه كان بطلا ، ويشعر أيضاً أن هـــذه الصفة ، قد رحلت منه الى الأبد ، لانه يدرك أنه لا يملك بنفسه قوة حقيقية ، أنه كل إنسان في لا إنسان ، أنه لا يسعه سوى أن يموت ، كأمي ، موتاً صامتاً مغلوب البطولة ، يموت بلا تحدّ .. التلة الشرقية الباردة ، ما أشنع التلة الشرقية الباردة !

كانت واحة مطرقة . وخيّم السكون من جديد ، فنظرت الى سفوح قاسيون .

ومن بعيد أقبل فائز فتفحّص المنتدى قليلاً ، ورآنا فجـــاء

وجلس قريباً من واحة . وأخذ بلا مقدمات ، يستفسر عن صحتها وأبيها ، والعطلة ، برزانة مغلّفة بالحنان والاهتمام ، ويحاول أن يتقصّى ما أمكن من التفاصيل .

وران الصمت من جديد ، فالتفت الي ضاحكا :

– أراك صامتاً أيها الإباحي .. على غير العادة .

فغمغمت واحة :

– كنا سنخرج الى الحديقة .. هل يمكن أن نترك الكتب بضع دقائق ؟.

أكد فــائز : – طبعاً .. لقد جئت لأدرس . اتركيها ساعة .. لا عليك .

نهضت واحة ، فنهضت معها بصورة آلية . واستحييت أن انظر الى فائز ، فتابعت تقطيبتي وسرت .

نزلنا الدرج صامتين . وعند الحديقة قلت لها :

– واحة اعتبريني أخاً .. فائز يحبك ، ويريد أن يتزوّجك ، وهو يملك بيتاً فاخراً . ولعله يريد أن يتأكد من ردّك قبل أن يصارحك .. وهو مستعدّ للانتظار . ولكن – اسمحي لي – إذا كان هناك غيره فأشعريه بذلك .

هزّت واحة رأسها نفياً : ليس هناك أحد بعد ..

سألتها مستغرباً « أبداً ؟ » فهزّت رأسها ثانية .

انعطفنا نحو مدخل الجامعة صامتين ، وخرجنا ، لم نكن ندري أين نذهب ، ولم نفكر أين . كان كعبها العالي يدقّ على

الرصيف برتابة ، وهيكلها الرخـامي الجميل يتمايل بهـدوء وانسياب .

– واحة .. هل .. كلا . هل تذهبين معي الى السينما ؟.

لم تنظر الي واحة ، بل خفضت رأسها موافقة .

شعرت بالحرج من صمت خيّم ولم أستطع تبديله ، فأخذت أتكلم ، ثم اكتشفت أني ثقيل فصمتّ .

– لا ضرورة لأن تتكلم .. أنا أعرف انك لا تفتح فمك الا لتلقي نكتة . إني مسرورة لوجودي معك ، فلعله يقـــدم لك بعض السلوى . وإني مسرورة ايضاً لأننا نسير بصمت ، فهو أبلغ تعبيراً ، لكنني أعترف لك انك تدهشني ، وما كنت لأظن أن أثقال العالم كلها ستحزنك .

التفت اليها أسألها إن كانت تظن أني حزنت بسبب أمي ، فقالت إنها لا تدري .

– لا أظن .. لست أدري .. أنا ايضاً لست أدري . أي فيلم تريدين ؟.

هزّت يدهـــا هزة قصيرة لا مبالية ، ولم تتكلم . وسألت نفسي : ما الفائدة من الذهاب الى السينما ؟

– هل نذهب الى غرفتي ؟.

ولم تنظر لي ، مرة أخرى ، بل خفضت رأسها بالموافقة .

وهكذا مضينا الى الغرفة قدما ، واذ وصلنا الى بـــداية الدرج نظرت حتى أعلاه ثم سارت .

فتحت لها الباب ، وكانت تلهث ، ودخلنا . وبعد أن أغلقته أخذت تكحّ بطريقة خشنة مخرشة ، ثم وضعت يداً على صدرها ، وأخرى على فمها . اقتربت فوقفت بجانبها حائراً متضايقاً . وفي هنيهات انتهى السعال ، ونظرت اليّ بابتسامة تشق طريقها وسط الدموع .

قلت لها بتأثر عميق :

– واحة ، ألم أقل لك استشيري طبيباً ؟. لقد كنت أكحّ مثلك – لا تخافي – ولكنني في النهاية صرت أبصق دماً . أنت لن تبصقي دماً طبعاً .. ولكن يجب أن تستشيري طبيباً . لا يمكن أن تبقي هكذا يا واحة ..

ابتسمت : – لا تحزن .. سوف أستشير طبيباً . والآن .. أنت عندك غرفة مجهّزة ، حلوة غرفتك ؟ من رتّبها لك بهذا الشكل ؟. حلو ، حلو ،. سأصنع لك شاياً ، سأصنعه بطريقة خاصة ، وستحبّها كثيراً .

وأسرعت تهيء النار ..

جلست على السرير ، واذ رحت اتأملها أدركني شعور غريب جعل نظراتي تركد على تقوّسها بجانب السماور . هذه ساعة لم أعش مثلها منذ سافرت ملك وهلال . إن أحداً ما ، من جديد ، يعتني بي بصورة غير معقولة ولا متوقعة .

حملت واحة الصينية وعليها قدحان من الشاي ، وتقدّمت الى السرير فوضعتها عليه ، ثم تناولت قدحاً وقدّمته لي ،

وأمسكت القدح الثاني ، وابتسمت . رشف كل منا شيئاً من شايه وتأملنا بعضنا .

ابتسمت ، وشعرت أني يجب أن أُقبّل واحة ، فنهضت اليها وهي تتأملني بترقب باسم ، فأخذني بعض الارتبـاك . لكنني تقدّمت منها وتناولت القدح من يدها ، فوضعته على الطاولة . ورفعتها من يدها عن السرير وقبّلتها .

كنت أظن أني سأعود الى مجلسي ، لكن يديهـا تدلتا من فوق كتفي ، وارتمى رأسها على نحري ، ثم تهدّل جفناهـا فأغمضت ، وراحت تتنفس أشبه بالنائمة .

كان فمي – بطريقة ما – يلثم شعرها لثمة طويلة ، بدأت ولم تنته . مددت يدي بهدوء وطوقتها ثانية وسكنّا . وبقينا واقفين بعض الزمن .

وسعلت فجـأة ، سعلة حادّة جافّة ، فسحبت يدها بسرعة ووضعتها على صدرها ، ثم رفعت الثانية تضعها أمام فمهـا ، فانلفظت منه بصقة استقرّت عليها .

أسرعت تمدّ يدها الأخرى الى جيبها وتغلق الثانية، فقبضت عليها ، وفتحت أصابعها بالقوة ؛ كان البصاق أصفر كقمح أيار ، فنظرت إليّ برعب . سحبت منديلي ومسحت يدها ، ثم قدتها للمغسلة ، فغسلتها ، وأتيت بهـا الى الكنبة ، وناولتها قدح الشاي باسماً :

– لا تخافي .. أنت لست مريضـة بشيء ، ولكن يجب أن

تراجعي الطبيب غداً . ستستعملين بعض الأدوية .. استربتومايسين فيما أعتقد دواء يعطى للتقوية ، ويستعملونه لأيّ طارىء صحي . لا تخافي شيئاً ، لقد كان لون بصاقي أحمر .. أما لون بصاقك فأصفر .. اشربي الشاي ، لقد صنعت شاياً رائعاً .. وأنا أشربه دائماً هكذا : مغلياً حتى تتفصّد مرارته وتمتزج مع السكر بحيث يشعر الحلق ، او مؤخر اللسان لا أدري ، بالمرارة والحلاوة معاً .. تلك هي الحياة .. مصيبتها أنها إما مرّة وإما حلوة .

ابتسمت واحة ، وأحاطت القدح براحتيها ، وأخذت ترشف منه باستغراق وسعادة .

– هل تذهبين معي الى الجريدة ؟.. تحرّرين ريبورتاج مثلاً ، او تكتبين زاوية في الصفحة الأدبية ؟

فازدادت ابتساماً :

– كلا سأذهب الى الطبيب .

ونهضت عن الكرسي ، فوضعت القدح على المغسلة ، وأصلحت من شأن ثيابها .

– أنت أنيقة تمام الأناقة يا واحة خانم .

فهزت رأسها ضاحكة العينين ، ثم وقفت كمن تذكر شيئاً سحيق البعد :

– نسينا الكتب عند فائز يا خواجه ! ماذا سيقول ؟! لا بأس سأذهب أنا اليه . سرّح شعرك وتوجه الى الجريدة .. وغداً في العاشرة .. لا ، بعد العاشرة ، فقد تكون تعباً من

الشغل ، أنتظرك في المنتدى .

نظرت الى واحـــة ، رغم شغفي ، باستغراب مقطب . وتذكرت فجأة ، معنى أن أكون في مكتب الجريدة ، وأعود من الشغل متعباً . وحمجت بعينيها فاذا بهما تدليان بلا شيء .

ــ واحة، تعرفين شيئاً عن حياتي الخاصة، في الجامعة مثلاً؟.. أتعرفين لماذا أعمل في الجريدة ؟

ــ لتنقذ نفسك من الإفلاس .

قالت ضاحكة ، وجعلت تمشّط شعرها .

هممت أن أخبرها كل شيء عن سحـاب ثم امتنعت . ليس من الضروري أن تعرف إذا كانت جاهلة حتى الآن .

وإن لم تكن ، فلا بد أنهـــا صمتت بهذه الطريقة لتتجنّب الاستماع .

وكان لا بد أيضاً ، من الاعتراف بأن واحة تحمـل شعوراً معيناً ، غير أنه لم يخطر لي ، ولست أدري – دائماً لست أدري– لماذا لم أصحّح لها اعتقادها منذ البداية . وسألت نفسي متى كانت البداية ، فلم أستطع أن أتذكر .

٣

فتحت الباب لثريا فدخلت ، وانبعثت في الغرفة منها حيوية مفاجئة ، إذ أخذت تتكلّم بلا هوادة ، تسأل عن أهـلي ، وعن ترحيبهم بي ، وتجيب بنفسها على الأسئلة ، ثم تنتقل الى ملك وهلال ، فـترتّب السرير ، وتهيء السماور ، وتعلق ثيابي في الخزانة ، وتدخل حذائي تحت السرير ، ثم تبحث عن الكلمات تحت الوسادة فتضعها في الدرج ، تتكلم عن الفوضى ، وبقاء قدحين بلا غسيل ، واخيراً تهزّ رأسها مؤنبة ..

جلست على السرير وقلت لها :

– ثريا .. سأخبرك بشيء ، ولكن لا تغيّري من سلوكك ، فأنا نفسي لم أتغير ، سمعت ؟. لا تغيّري شيئـاً من بشاشتك ،

وتفتّحك هذا الصباح .

وقفت ثريا قرب المغسلة فاغرة الفم ، منتظرة العينين ، فقلت لها إن أمي قد ماتت .

— .... ولكنك كنت تحبّها !..

امتدّت يداها الى الصنبور ففتحته وعيناها لا تزالان عالقتين بي . نهضت فأغلقت عينيها ، وأدرت ذقنها نحو المغسلة ، ثم نكست بيدي رأسها :

— اغسلي الكوبين .

فطفرت من عينيها دمعتان ، ووقفت بجانبها محزوناً جامداً .

اسرعت تقول : لا . لن أبكي .. ولكن كيف لا .. إنني أبكي فعلاً .

— أعتقد أنه ما كان يجب أن أخبرك .. فنحن سنحزن بلا فائدة . شباط يقترب من نهايته ، والربيع يــدقّ الأبواب بأصابعه الخضر .. لا فائدة من الحزن ، وأنا نفسي لا أدري إن كنت حزيناً . هل تريدين أن تبكي عيناك ؟.. أنا أريد .

ابتسمت ثريا وسألت :

— أشعر كأني كببت لك كأس نبيذ ، ترى أعندك نبيذ ؟

فأجبتها بهدوء طلق : — اذا كان هناك بائع ، فهو شعرك . اسمعي .. لم تخبريني كيف قضيت هذه العشرين يوماً من شباط .. لا يهم ، ليس من الضروري أن تخبريني .. ماذا سنفعل الآن ؟ . أراك استلقيت على السرير .. هل تشربين نبيذاً ؟ . سأذهب

فأشتري . بضع دقائق وأعود .

كنت أريد إرادة لا أعلم مأتاها من ثريا أن تترك موت أمي جانبا ، فتظاهرت بأني ذاهب ، وسرت باتجاه الباب . لكنها انتفضت ملتاثة وأسرعت تقف أمامي :

– كيف تشتري نبيذاً !؟

فابتسمت وقلت لها ، إنني بكل بساطة اذهب الى الخمارة فأبادل بعض النقود بزجاجة وأحضرها . ثم أمسكت زندها أحركها من طريقي فأبت أن تتحرّك . شددت عليها فقاومت ، وأخذنا نضحك .

تركزت حواسي فجأة من زندها . ماذا كان شعوري بالضبط خلال اللحظات التي مضت ؟..

حاولت أن أتذكّر فلم أستطع .

– لماذا عبست ؟ هل تعتقد أني سأشرب نبيذاً !؟

لم أستطع أن أتذكّر : كنت أضحك.. وكنت أحاول نرفزة ثريا.. المزاح معها بالضبط . ولكنني أمسكت زندها منذ دقيقة

أخذ إحساس أشبه بإحساس المستيقظ من التخدير يـنـزّ في أصابعي .

– لا ، لن أشتري نبيذاً .

ولم تتحرّك بل راحت تتأملني بحدقتين جامدتين .

– هل تريد أن تشرب نبيذاً ؟.

سألتني بخفوت وضعف .

ــ لا ، إصنعي لنا شايا . وسنشربه مع شيء من الجوز ، وسيكون للاثنين تأثير النبيذ .

أقلتّ زندهــا ، فتقدّمت نحو المغسلة ، ورفعت القدحين بيدها . سقط أحدهما فجأة ، وحاولت أن تلتقطه فسقط الثاني . تطلعت اليّ بجمود مشوب ببعض الاعتذار ، فنظرت اليهــا ببعض العصبية : هل قامت القيامة ؟.

واستمرت في تهيئة الشاي .

عندما طأطأت حدّقت ــ ولعل ذلك للمرة الأولى ــ بامرأة . كان ثمة قوس ملتحف بالشهوة والتشهّي .

لقد اعتادت ثريا أن تأتي الى الغرفة ! واعتدت أن أستقبلها كل أسبوع .. إن ذلك يبدو عجيباً .

تقدّمت فوقفت بجانبهادون أن تشعر بي . كان شعرها النبيذي يتموّج فوق وجههــا وهي ترقب الشاي يغلي ، وتخفّف توقّد النار تحته .

نهضت ، فشهقت عندما رأتني بجانبهــا ورفعت يديها الى كتفها ، ثم حلقت بي قليلاً وابتسمت ابتسامة بطيئة .

أذكر أني كنت أبتسم ، ولست أدري بأية طريقة . تأبطتها ، فرفعت ذراعيها آلياً ، وقبّلتها وهي تلتصق بي بكل استسلام .

ــ هاتي الشاي وتعالي .

أحكمت إسدال الستارة على النافذة ، وأحضرت كيساً من

الجوز ، ثم جلسنا على السرير . وبينما صبّت الشاي ، أخـذت أكسر الجوز وأقصصه ، ثم ألقمها بعضه ، وأتناول البعض ، ونشرب من الفنجان .

بعد نصف ساعة ، عندما كنت أُقبّلها ، شعرت أن تكثّفاً موهناً يعتصم بصدغي وعيني . وأخذ إحساسي بالعالم الخارجي يتقلّص ، فنظرت الى ثريا . . . واستغرقنا السرير .

وبعد دقائق أخرى – قد تكون كثيرة – استلقيت على ظهري ، وأخذت يدي تلاعب عنقها بطريقة خالية من الإحساس .

– رأسي ثقيل .

– ورأسي ايضاً .

– متى ستذهبين ؟

– يجب أن أذهب الآن .. وسأعود قريباً .

نهضت فتمشّطت ، وسحبت من حافظتها مرآة صغيرة وشغلت نفسها بها قليلاً ، ثم لبست ثيابها .

كنت مسروراً ، ورحت أراقبها بغبطة . تمطّيت ، وتثاءبت ثم انقلبت على جنبي . ثم سألتها :

– ثريا ، مبسوطة ؟ .

فانفرجت شفتاها – كنت أقبّلها منذ لحظات فيما أعتقد – وقالت :

– تمام .... من زمان بعيد وأنا أترقّب هذا اليوم .. لا أدري لم تأخرت ، ولا يهمّني أن أعرف ... لكنني أرجو أن يكون ضميرك قد مات .

سألتها متثائباً : — هل تعتقدين أن ما فعلناه له علاقة بالضمير ؟

فغردت وهي تبحث في الغرفة عن شيء لا أعرفه .

— ضمير ، ما ضمير ، لا أعرف ... أعرف أني سررت وتلذذت ، وشعرت أني امرأة ، وكل شيء . وسآتيك كلما استطعت حتى أرزق منك بولد .

انتفضت من السرير وتأملتها باستغراق ودهشة ، ففتحت عينيها تعجباً ، ووقفت عن الحركة .

— لا أريد أن تحبلي مني أبداً .. ما أحلى أن يأتيك ولد مني وينسب لصلعة هذا الأجدب ؟

فنبرت مؤنبة : — يا حبيبي .. الولد سيكون .. ولن يكون إلا منك .

ثم أضافت :

— أعتقد أن هذا الأجدب عاقر .. وقد يكون حيواناً . لا يهم .. لا يهم .. سآتيك في مرة قادمة ، فأودع ضميرك بالبنك منذ الآن .. بنك الضمائر الذي يديره زوجي .

وفتحت الباب . ووقفت عنده برهة ، ثم ابتسمت وودعتني .

وفجأة أصبحت الغرفة ساكنة !. هذه الشيطانة ، متى نظفت وأزاحت الشاي والجوز ، ورتبت كل شيء !! ما عدا السرير .. إنه ما يزال فوضوياً ، تتكبده نضارة ثرة بقيت منها .

تلمظت شفتيّ الدبقتين .. لم يبق من القبل شيء ! وامحت كل الآثار .. لبست ثيابي وانطلقت الى الجريدة .

٤

– هل أخذت ملاحظات عن الأستاذ ؟

– كنت أتمتّع بالنظر الى فستانك الجديد ، كيف يلتصق بك كأنه يغتنم فرصته ، وكيف تبعدينه عند الصدر مرغما ، وعند المنتهى طواعية ، وتشدّينه اليك بين بين كأنما ليحفظ سراً .

– أترى أن الطقس جميل اليوم ، يا إلهي ما احلاه !

سعلت قليلاً ، وتأملت الغيوم الخفيفة تسرح تحت السماء ثم قلت :

– لقد عوّدتني على الإعجاب به .. لم أكن أحبه سابقاً .

فضحكت ، ولمع بريق عينيها الخـــالد . ومرت سيارة

كاديلاك ، وتأمّلناها معا حتى اختفت .

– سأشتري لك سيارة كاديلاك .

– يا الله ، اشتغل ... ولكن لماذا تشتريها لي ؟.

غمزتها بعيني فضحكت .

– وبيانو .. وآخذك معي الى الولايات المتحدة ؟

ضحكت ثانية : – متى تذهب للولايات المتحدة ؟.

– الفلوس كل مشاكلنا . ولكن عندما نتخرّج من جامعة دمشق العتيدة ، سنذهب .. سنكون متزوجين حتى ذلك الوقت.. وقد يكون لدينا ولد .. ما رأيك؟ هل نمتنع عن إنجاب الأولاد بضع سنوات ؟ . أم أن ذلك سيكون صعباً ؟.. أجل ، فكلانا نحب الاولاد . قولي لي متى سأخطبك ؟. لديّ الآن ما يقرب من ثمانمئة ليرة ، بعد شهرين ستكون حوالي الألفين .. أوه .. سحـــاب خانم ! سأخطبك بعد شهرين .. بعد شهرين ستكونين لي ، ونذهب لحفلة .. تنكرية .. راقصة ، ناقصة .. وأمسكك من شعرك ، فأجرّك كما تجر الحريم .. ستكونين طبعاً ديكولتيه .

كانت سحاب تبتسم وتنظر من النـافذة بشرود . تأملت هذا الهيكل الحلو بنظرة موشورية وقلت :

– سحاب ، أتعرفين أنك كعبة أنوثة ؟

فغمغمت دون أن ترفع عينيها عن النافذة :

– تلك هي مصيبتي .

شعرت بكلماتها تبشر أذني فقلت :

– ولكني أحبك لأكثر من ذلك ، لطبيعتك ، ونوع تفكيرك في الحياة .

وهزّت رأسها نفياً ، وجمجمت ببعض الكلام ، ثم تنهدت وأعلنت :

– أما أنا فلا أستطيع أن أحبّ .. قلبي ميت .. إنه أسود من الفحم .

وكانت نظراتها لا تزال تشرد عبر النافذة .

– لا يهمّك ، الفحم يتأثّر بالحرارة ، سوف أحرقه من جديد بعاطفتي .. اصبر عليّ شهرين فقط ، بعدئذ أتوّجك .

وتقلّصت ابتسامتي اذ وضعت يدها تحت ذقنها ، وتبسّمت بشرود مستمرة في تأمل الشارع .

وتعالى فجأة صفير القطار الحاد يمزّق السمع . وعندما انقضت ضجّته كان فائز قد جاء فحيّا وجلس أمامي . ولم يضع الوقت عبثاً فبدأ يسأل عن « صحة الآنسة سحاب » وتمتّعها بالرحلة ، ولم ينس الدرس فانعطف نحوه . وأراد اخيراً أن يتظرّف فشتم بعض الأساتذة ، واتّهم الآخرين بالغباء .

شعرت حينذاك أن فائز حقير .

– أعتقد أن الآنسة سحاب قد قطعت شوطاً كبيراً في الدراسة .

وأكدت له الآنسة سحاب أنها ذاكرت البرامج ثلاث مرات ،

فما كان منه إلا أن أخذ يطري نشاطها من ناحية ويبين من ناحية أخرى صعوبة الموادّ مركزاً على «تاريخ اللغة الانكليزية» .

أمس كان فائز يتّهم سحاب بخرق ما يدعوه بالحرمات . وأمس خرقتها بنفسي . عاشرت امرأة ليست زوجتي لمجرّد رغبتي في ذلك . سوف يعده فائز انتصاراً عندما يسمع به : هذا الخرق . ذلك لأن قانونه قد سنّه رجل مثل فائز .

وتقدّم فازداد انسجاماً مع سحاب . كان يسألها كمتحرّر ، وينصت كمصلح ، ويعطيها فرصة كافية للكلام كمن يعطيها بذلك حقاً .

– الفيلم جيّد .. لقد رأيته بنفسي .. وأعجبك فيما أعتقد؟.

رفعت سحاب رأسها نفياً ، فاستدرك :

– أعني هذا النوع من الأفلام اذا راعينا أنه خاصّ ، ونظرنا له كمستمتعين ، يقدم لك شيئاً مسلياً . ألم تشعري بذلك ؟

فهزت كتفيها :

– انسحبت منه ، ولم أتمه .

غمزت بعيني لسحاب فابتسمت ، وعلقت :

– بلاغتك فاشلة اليوم يا فائز .. عندما تتكلم مرة ثانية يا صديقي عن فيلم ، فلا تمدحه لمجرد أن حضرته فتاة تجلس بجانبك .. ربما كان عليك أن تذكر أنها انسحبت منه ولم تتمّه .

فجمجم محمراً : – إذن فأذواقنا مختلفة .. فأنا قد أعجبني الفيلم ...

وأنقذه أن واحة حضرت فجلست بيني وبينه في بشاشة مستحيية . وكان لا بد أن تشتبك الاثنتان بحديث ، ونحتفظ نحن بالصمت حتى يحين تدخل فائز بينهما ، فيسأل واحة عن الصحة وأيامهـا « وكيف الدرس » . وسرعان ما أفلح فأخذا يتحدثان .

قربت جذعي من سحاب مليباً نظرة عينيها . فوشوشت :

– لماذا كنت قاسياً مع فائز ؟.. أنت غاضب لا تزال؟.

فابتسمت وهمست :

– إني أحتقره وقد أغاظني .

فردّت باستياء ساخر :

– أنا أعلم أنه يغتابني.. ولذلك عاملته بهـــذا الأسلوب .. ولكنك تضايقت منه لأنه كان يحدّثني وأنت لم تكن.. لاتنكر. سحنتك مقلوبة : . ماذا جرى .. منذ حدثتك عن الرحـــلة وأنت متضايق . وقد انزعجت انا نفسي يوم ذاك ، فلم أسألك عن أحوالك .

أملت رأسي يساراً وقلت :

– لقد ماتت أمي .

فهزت رأسها قليلاً :

– البقية بحياتك.. أنت حزين ؟. لوماتت أمي لما حزنت .

وددت أن أسألها عن شعورها تجاهي ، مع أن سؤالاً كهذا ليس لائقاً . وفتحت فمي ولكن لأسألها عن رحلة مصر ، لعلي

أكتشف بعض الحقيقة عن اقوال فائز : اذا كان ثمـــة شيء فلتخبرني به ، فليس أهون من الغفران ، لقد ارتكبت أمس نفس ما ارتكبته في مصر ، ولم يكن ثمة من حساب . ولكنني أغلقت فمي .

قطع انفرادنا سعال عنيف من واحة ، فالتفتّ نحوها بسرعة لأراها تنظر اليّ بخشية ، نظرة من يتوقّع عقاباً . واذ هدأت مدّت يدها الى كتابها وسحبت منه ورقــة ، تبيّنت فيها وصفة طبية ، أعطتهـا لي . سألتها عن الدواء فقالت إنهـا ستشتريه . أعطيتها الورقة وطمأنتها ، وطلبت اليها أن ترتاح ، فلا تسهر ، ولا تتعب ، ثم قلت مازحاً : « ولا تشربي » ، فضحكت . كانت سحاب تنظر الينا بعينين هادئتين ، وفائز يتأمّلنا بجمود . أعلنت واحة أنها ذاهبة لتتمضمض ، فاقترحت سحاب أن تذهب معها .

كان عليهما أن تنزلا الى المقصف . وخلال غيبتهما سألني فائز برصانة بريئة :

– بشر .. أين ذهبت وواحة ذلك اليوم ؟..

فنظرت اليه مؤنّباً وقلت :

– هل تعتقد أني آخذها الى بيتي ؟ ها قـــد أصبحت تشكّ فيها كما شككت بسحاب ، فماذا جرى لك ؟.. أنا لا أشك بعفاف سحاب رغم أكاذيبك كلها .. يا سيدي لقد ذهبت بها الى دار الطالبات ، لأنها كانت متعبة وقلت لها إنك تحبها

وتريد أن تتزوّجها . والآن هل أرضيت نفسك ؟. انبسطت ؟.

نهنه فائز بسرور مكتوم :

- يخرب بيتك ، ما أقوى عصبيتك !.. هل يعقل أن أشكّ بواحة ؟. لكنني رأيتكما تخرجان معـــا .. ماذا قالت لك ؟. أعني ماذا كان ردّها عندما أخبرتها عني ؟.

حاولت أن أتذكّر ، فلم أستطع . لقد مرّت الحادثة دون أن أنتبه لما قالت . وأعلنت لفائز أنه لا يمكنني التذكّر .

وأقبلت سحاب وواحة ، فأخـذت أتأمّلها حتى وصلتا . سحاب أطول وأملأ وأحسن ، وأروع عينين . اما واحــة فشقراء ، أرشق وأبيض ، و... هناك صفة لا يمكن حصرها بالجسم والروح ، ولا يمكن التعبير عنها ، تلقاها لديها . وأخذتــا مكانهما ، فبادر فائز ، كأنما سرّ مما أخبرته عن واحة ، يفتتح حديثاً اجتماعياً ، لم يطل بي الوقت حتى مللته ، فنظرت من النافذة ، كانت سيارة اولدزموبيل ، طويلة سوداء لامعة تقف قـــرب درج النادي ، فحوّلت عنها طرفي ، وتأمّلت سحاب تصغي لفائز بانتباه ساخر ، تستند على راحتهــا بذقنها المدبّبة الناعمة . شدّ ما هي جميلة ! ترى هل يمكن المقارنة بـين « فعلها » و « فعلي » ، وهـــل يمكن بعدئذ المقـــابلة بينهما ، ومحوهما ؟ . ولكن سحاب لم تفعل شيئاً . من المؤكد أن إرادتها تتحكم بها ، ولكن نزواتها لا تتحكم بتلك الإرادة .

ولكن لماذا أدخل من باب جانبي ؟. إن الإرادة نزوة ، ذلك

لأنها عند سحاب ، متحلّلة من مفاهيم الإرادة التي يعرفها الناس .

هل تمكن المقارنة ؟. مـــا الفائدة من إمكانها ، ما دمت لا أستطيع ابتلاع حكمها ! إنها طبعاً ممكنة . ولكن هذا المجتمع المليء بالتشويهات وعقد النقص قد صاغ حكمه على هذه القضية لصالحي ، وعليّ أن أعتنق هذا الحكم ؛ وها هو الآن يغدو حكماً لا يمكن قبوله ولا التخلص منه .

إن علاقه القبطان بسحــاب ، بغضّ النظر عن كل تحليـل ومنطق ، علاقة لا يمكنني أن أقبلها ممن ستكون هذا العــام زوجتي . غير أنه لا بد من الاعتقاد أنها لم تتعمّق فتصل لمستوى ما وصلت اليه علاقتي بثريا . ها قد عدت للمقارنة . لا بأس ، لتكن علاقة سحاب بالقبطان كاملة ، فما هو موقفي ؟.

سقط في أذني فجأة صوت مؤذن الجامع يتعالى « الله اكبر .. الله اكبر » ، فهززت رأسي . إنه لا يمكن الحكم بهذه الطريقة ، ولو علم زوج ثريا بما وقع لها معي ، فلا شك أنه سيشوهـــا ، وسأكون أنا السبب ، وستكون معارضتي لكل ما يتصرّف به مبادرة وعنيفة وقطعية .. لا أعتقد أن ما فعلته مع ثريا جريمة ، ولا أعتقد أن ما فعلت بنفسها – لا : ما فعلته معي ! – جريمة أيضاً . إن ما حدث بيننا – هذا الحادث العذب الذي لا ينسى – قد تمّ بعيداً عن القسوة والإرغام .

كانت سحاب لا تزال تصغي الى فائز بانتباه ساحر . وخيّل إليّ أنها تنصت بطريقة ما لما كنت أفكر فيه . ترى هل تعرف

أن ما أفكر فيه مرمض وأنه بسببها ؟ . وما هو موقفها مما فعلته .. لا .. لا يمكن أن تكون قد فعلت شيئاً .

قد تفكر بتحرّر ، لكنها لن تستطيع تنفيذه .

هتفت بفائز فجأة : – هل انتهى العلاّمة من محاضرته ؟.

فردّد باقتناع باسم : – صحيح .. المجتمع لا يتقوم بغير أخلاق . لا بأس في أن تكون متحرّراً ، ولكننا شرقيون ، نعيش مجتمعاً خاصاً .. عندك الآنسة واحة مثلاً .. نموذج كامل ..

زفرت سحاب وقالت :

– أنت تتكلّم كمشايخنا . كأنك لست مسيحياً .

كنت حينذاك أنظر الى رجل طويل ، كثّ الشاربين ، اكتنز باللحم وما يقرب من خمسة وثلاثين عاماً ، يتقدم نحونا ويخص أحدنا بابتسامة مطمئنة . وازداد اهتمامي به عندما ازداد اقتراباً . وتبيّن أن من الضروري أن أقتنع أنه جاء الينا .

نهضت سحاب ببشاشة مفاجئة :

– اهلا .. اهلا ... تفضل . ياجماعة . أقدّم لكم ابن خالتي : المهندس موفّق ، مدير السكك الحديدية .. هذه الآنسة واحة .. والسيد بشر .. والسيد فائز .. زملائي في الصف .. أهلا ، ماذا جرى للصور ؟.

جلس القادم الجديد بيني وبين سحاب . وبدوت بجانبه ، كأنني ابنه . طرفت عيناي بعيني فائز فقرأت فيهما معنى شديد الخصوصية . وحولت نظري للمهندس فرأيت يده تخرج من

جيبه رزمة ، ظهر انها مجموعة صور .

تناولت سحاب الصور من يده ، وسحبت أولاها ، فناولتها لفائز ، وفائز لواحة ، وواحة لي .

كانت الصور الاولى عاديّة . بالنسبة لي ، لكن سحاب علقت عليها واحدة واحدة . ولما نزح ما يقرب من نصف المخزن ، وصلتني صورة شحنت صدري بالتوتر .

إنها أصابع ضخمة تمتّد فتمسك امتداداً من الكتف حتى المرفق ، وتتصل حين تختفي خلف هيكل جميل بديع ، بيد غليظة ، ملتصقة في أعلاها بجسم ضخم ، حمل على رأسه عمرة مائلة ، أما الامتداد فصاحبته سحاب .

رميت الصورة ونظرت الى الحديقة . كانت الاولدزموبيل ، لا تزال جاثمة قرب النادي . ثم تلفّتت عيناي الى واحة فرأيتها قد رمت الصور هي الأخرى . وراحت تتفرّس بي بوجد عميق.

ابتسمت ، فابتسمت وسرعان ما ارتبكت ، إن لواحة شعوراً لم يعد يخفى عني ، ويجب أن أنبهها الى أني لا أملك ما يقابله ، ولكن بطريقة لا تجرح شعورها .

نظرت ثانيه الى السيارة السوداء الكبيرة ، وابتسمت لواحة فسألتها :

– هل اشترى لك سيارة كاديلاك ؟.

فابتسمت بجبور ، وعبثت بالصور أمامها .

– يالي ، يالي ، ما أحلى هذه الصورة . لم أكن اظن أنها

ستنجح ، ايه ما أحلى النيل .

تناول فائز الصورة ، ثم ناولها لواحة ، ثم انتقلت لي . ما أحلى النيل فعلاً : زورق محفوف بالمـــاء والهدوء ، ومبطن بالروعة ، يضم السيد موفق ، وعـــازف كمان ، وفتاة اخرى ، وسحاب بينهم ، وفي عينيها نظرة شريدة حالمة ، تمخضت عن ممتزج من الحزن والفرحة والذكريات .

شعرت بتقلص مفاجيء في صدري ، وتأملت واحة بنظرة مقرفة ، فرأيتها تبتسم . حولت عنهـا عيني متعب الجبين ، وتفحّصت فائز قليلاً . كان قد انسجم مع سحاب يتأمل الصور .

أما المهندس فقد اشرأبّ من تحت رأسه تكتّل ضخم ، وراح يحملق بكل صورة تمسك بها سحاب باسماً ، مرتكزاً على مرفقين جثما على الكرسي الحديدي تحته .

كان حتى ذلك الحين كل شيء عادياً ، غير أنه كان من الضروري أن أصرف هذا البخار المغيظ ، الذي احتدم في صدري وأخذ يتجشأ في حلقي .

نهضت بلا كلام ، فرفعت سحاب عينيها متسائلة ، والتفتت واحة بدهشة آسفة . ثم استدار رأس المهندس نحوي ، فطلب مني أن أجلس فنواصل الاستئناس ببعضنا .

ودّعتهم بابتسامة خامدة . وما لبثت واحة أن طلبت مني الانتظار ، ثم ودّعتهم ، ولحقت بي :

– تعال خذ كتبك من دار الطالبات .

ابتسمت ووقفت حتى لحقت بي ، ثم خرجنا الى الحديقة معاً.

قلت لهـــا بكثير من التحاشي والتغطية : - واحة ، ألا تعتقدين أن فائز سوف .. يتضايق لأننا خرجنا معاً ؟.

فهزّت رأسها بغضب :

- الحياة قد تستطيع فرض بعض الأشخاص علينا ، لكن هذا لا يعني أن نتقبلهم ..

ابتسمت حين علت نبرة صوتها ؛ ثم تابعت بهدوء سادر :

- بعض الناس يحبّون لا شك ، لكن حبّهم يكون أبداً مقايضة. إنهم يريدون أن يستولوا على شيء ما ، دون أن يحقّ لهم هذا الاستيلاء. ويدركون ذلك بأنفسهم . فيشعرون أنفسهم بأنهم يحبّون ثم يقتنعون بأنهم يحبّون . وهم بهـذا الحب لا يشعرون بأي نوع من الإنسانية ، ولا بأي إحساس يرقى بهم عن مستوى سوق الحميدية . وعندما يتأكدون أنهم قد أعطوا بديلا لمـــا يريدونه ، يطمئنون ، ويحاولون فرض إرادتهم بطريقة ما ، لا تلبث أن تفقد جاذبيتها وحيويتها لأنها لا تجد في قلوبهم نابضاً يعطيها الحركة . إنهم يشعرون بزيفها ، ولذلك يتردّدون ، ويرتبكون ، كما يفعل فائز معي . وقد يقاومون هذا الزيف ، فيغازلون ، لكن غزلهم يخرج من أفواههم ، كما يخرج الهواء من المنفاخ ، وينطلقون مع ذلك ، فلا يشبهون بانطلاقهم الا قطاراً يسير على قضيبي حديد . وهكذا تخرج كلماتهم خالية من كل نكهة ، مليئة بالبرودة والغريزة . الى أقصى ما يمكن أن تحركه

في فتاة : غريزتها .. ولو كان فائز على قليل من الإحساس لفهم كم ..

كان مسيل الكلمات من فم واحة البندقي يولد بي زخماً شعورياً ضخماً . من المؤسف أن فتاة كهذه لم يعد بإمكاني أن أحبها .

بلغنا دار الطالبات ، فدخلت واحة ، وبعد قليل عادت تحمل لي كتاباً ودفتراً :

– لا يمكن أن أدعوك للدخول ، طبعاً .. مع السلامة .

فاعترضت :

– و كذلك لا يمكن أن أذهب بهذه البساطة .. سأدخل قليلاً ، فألقي نظرة سريعة ثم أذهب .

وهممت بالدخول فصاحت .

– يا يسوع .. يا إله السماء .. أين أنت قادم !؟.

ثم ضحكنا ملء صدورنا .

٥

الباصات تعجّ ، وجرس الترام يقرع فوق قضيبي الحديد ، والرصيف يزدحم بالمعاطف ، وبائعي اليانصيب العراة . كل شيء في حركة ، حتى أصابع الجالسين في مقهى « الهافانا » التي لا تني تمسك النرد أو الحجارة .

— ألعب .. شيش بيش يلعب .. والفكر يقدح دخاناً .

— الحبّ مات ...

تدحرج النرد على الطاولة المربّعة المرصوفة بأربعة وعشرين مثلثاً تشبه المسلاّت .

— العب .. لقد أرسلنا حبّنـــا إلى مقاهي دمشق . هل تحركت من الخضراء ؟.

– من البيت .. مخفر الشرطة بجانب بيتنا .

تدحرج النرد مرة أخرى . وصرخ النــدل السمين المدوّر العينين : « واحد حلوة .. واحد وسط » . ما أشدّ تعب العمل في الجريدة !

– ايه .. متحرّرة وبس؟! .. لقد كان القبطان قبطاناً فعلاً ..

كان يأتيني الصوت من وراء ظهري . التفتّ ببطء ، وتأمّلت قامة تتحدّب فوق طاولة نرد أخرى ، وتدير لي ظهرهـــا . الشعر خفيف ، والبذلة بنية ناصلة ، والحذاء أحمر صقيل .

– أنت لم ترَ شيئاً .. لقد كان عازف الكمان يعزف على أوتار قلبها .

بدأت العقد تتكلّم .

– وعندما ركبا في زورق ، زورق طويل مثل الجندول ، جلست تصغي كأنّها تتلقّى وحياً .

القامة المتحدّبة لا تزال تدير ظهرها لي .

– لقد سئمت حيـــاة التشرّد .. كلما جئت للجنوب أو أردت الخروج منه ، ضيّعت خمسة أيام في استجوابات تمزّق الأعصاب ، إذا لم أضيع اكثر منها في السجن .. شيش جهار .. تصوّر أنه لكي تأتي من الخضراء لدمشق ، يجب أن تخرج جواز سفر ، بينما لا يفعل أبو البشر ذلك ... يعود الإنسان بعد ثلاثة أشهر الى قرابته ، فيفاجأ بأنه ، حفظاً لنفسه ولقرابته ، مضطر أن لا يزورهم . وعندنا في « اللديدة » يعيش الشعب بعيداً عن

هذه الضرورة : إذا لم تزره فأنت تعاديه ، وإذا عاديته خرجت على المألوف فكسبت دفعة واحدة كثيراً من الأعداء ... بيش دورت .. غلبناك .. رح انكبّ .

– عاهرة .. وأبداً عاهرة ..

متى يكون الإنسان شريفاً .. وكيف يمكن ؟ .

بعض الألحان ، برغم شيوعها واعتياد كل الناس عليها، تبقى في الذاكرة رمزاً لأشياء ألصق بالانسان من مجرّد لحن أو أغنية، وقد يحاول أن يحبّ غيره لحناً جديداً ، وقد يحبّه ، غير أن وزنه النوعيّ يبقى دائماً أقلّ من وزن اللحن الأول . كان المتحدّب ورائي ما يزال يعزف لحنه المفضّل . وكلما عزف أحدث في نفسي تضايقاً عنيفاً ، وهزّني حتى جعل هذه الغلائل العمياء من العاطفة تبدو شبكة غبارية خانقة .

يمرّ اليوم حافلا للدرجة التي ينسيك فيها أن البارحة لم تمض إلا منذ ساعات ، وأن هناك غداً سيأتي بعد بضع ساعات ، ويشعرني أن سحاب لم تعد خطيبتي ، بقدر ما صارت سحاب الإمساخ الذي أصاب وجدان الناس حولي .. ليتركوا غيرهم يعش كما أراد هؤلاء الذين يهاجمون الرجعية ، وينادون بالتحرّر والبعث .

نهضت أكظم غيظاً هادئاً ، فوقفت بجانب القامة المتحدّبة .

انتبه دريد وصالح فأسرعا اليّ ، وأمسكاني بساعدي ، واضطراني الى الخروج : لن يكون شيء سوى الفضيحة .

سرت صامتاً ، وكذلك سارا هما الآخران . أخذت أضيق ذرعاً بالشارع ، وأشكو من ضوضائه ، فاقترح صالح أن نتناول غداءنا في غرفتي . وهكذا قادتنا أقدامنا الى طابق ثالث على رصيف أحد الشوارع ، أسكن في غرفة منه .

فتحت الغرفة لهما وعدت الى مطعم « أبي عيسى » . وفي طريقي مررت بحانة فابتعت بعض النبيذ ثم عرجت للمطعم الصغير . كان مزدحماً كالعادة ، والطلاب يقفون في طابور طويل واحداً واحداً ينتظرون أن يأتي دورهم فيأكلوا . ناديت أبا عيسى عدة مرات ، فلم يردّ . أخذت من جيبي ورقة وكتبت عليها بعض أسماء المآكل ليرسلها مع « علي » الى الغرفة . ومددتها له ، فتناولها تناولاً آلياً .

– مجنون .. والله لا أقبلها ولو انقلبت ذهباً .

تلفتُ جهة الصوت فرأيت صاحبه يشعل لفافة ، فاقتربت منه وأنا أحس بين عيني ظلاماً كثيفاً .

– ما هذه التي لا تقبلها ؟.

فشرح لي :

– هذا الأهبل ، يقول إن صاحب المطعم أمس قد أرغمه على أكل صحن ملوخية ، وهو لا يحب الملوخية .

تراخت عضلات وجهي : « عفواً » واستدرت لأبي عيسى فأشار لي أن انتهي كل شيء .

عدت الى الغرفة فوجدت دريد وصالح يقفان بالباب ، كل

على رجل واحدة . تأملتها باستغراب ، فصرخا معاً :

ـ أبا البشر .. عندك عشيقة يا ملعون دينك .. يا بورجوازي .. يا منحل .. يا عدمي ..

سألتها ما الخبر ، فوصفا لي ثريا ، وقالا إنها جاءت تسأل عني . ثم ألحّ صالح أن أحدثها عنها وعن حقيقة علاقتي بها .

ـ لاشيء ، نمت معها في أسبوعين متتاليين مرتين . وماذا قلتما لها ؟.

فأجاب :

ـ قلنا إنك ذهبت تحضر غداء ، كنا نودّ أن نرى وجهها على الأقل .. لكن جسمها فخم .. فقالت إن الماء سيقطع بضع ساعات وأوصتني أن أقول لك لتأخذ الحيطة ، ثم عادت تتعثّر في مشيتها . أبا البشر عندك واحدة مثلها وتتزوّج ؟. أقسم لك أني أقبل بها يوماً فقط عشيقة بدلاً من سنة أتزوّج بها غيرها أياً كانت .

قلت معاتباً : ـ لا تنضمّ للقائمة صالح .. هناك كثيرون يعرّضون بي وبها . لا تعتقد أني سأنسحب .

قال دريد : ـ لكنك سمعت ما يشاع عنها ، ألم تسمع ؟. ما رأيك بعد هذا كلّه ؟.

ابتسمت بسخرية وتقدّمت للصنبور وغسلت يدي . وتابع دريد :

ـ إنهنّ لن يفهمننا بشر .. كلهنّ يبحثن عن عريس .. إن أحلامنا وأبيات الشعر لم تعد تجدي . اتركها بشر ، ولا تكن

عنيداً .. واحة أحسن منها . صحّ أن واحة مسيحية ولكن لا ضرورة لأن تتزوّجها .. الزواج لا قيمة له ولا ضرورة . ألم تقل إن المجتمع صفر ؟..

هززت رأسي موافقاً وابتسمت :

– أنت تنسى أني أحبها ، وتنسى أنك تجهل مدى حبي لها ، وتعلّقي بها .. إنها بالنسبة لي أبو هول جديد يقف رابضاً أمام المسوخ ، فيتحدّى الزمن أربعين قرناً أخرى دون أن يستحيل او يتغيّر .

وغمزت لدريد بعيني : – إذا كانت غيداء قد خُطبت ، فهذا لا يعني أن سحاب ستخطب .. إنها لا تستطيع أن تعيش مع غيري .. أنا أعرفها حقّ المعرفة ، ولنفرض أنها فعلت أيّ شيء ، فهذا لا قيمة له . إذا لم يستطع وجودي أن يمنعها حتى الآن بأن تعتقد أنها لي ، فهي معذورة . وتأكد أنها إذا خانتني بعد أن نتزوّج ، فلن أعترض عليها .. لكنني سأتزوجها مهما حدث .. حقاً .. بل ما أحلى ان المجتمع صفر . سأرى غداً ماذا يقول هؤلاء المسوخ عندما تتأبّط ساعدي ، وتسير بجانبي كالبطّة ، سعيدة ، مترفة الخطى .. ولن نطيل المكوث في الجمهورية ، بل سنسافر لأمريكا لنكمل دراستنا ، ونعود لهذه الجامعة أساتذة . المجتمع صفر .. لا تخف عليّ ، إنني أفهم كل ما يدور حولي .

ذكّرني صالح متلعثماً : – لكنّها لا تحبّك بشر .. هل لهذا

علاقة بالمجتمع صفر ؟.

هززت رأسي بلا مبالاة . كنت موقناً أن صدقي قد هزّها . وأن هذه ناحية لن يدركها صالح ولا غيره .

أقبل (علي) بالطعام . فوضعناه على الطاولة ، وجلسنا حوله .

– إنها لا تحبّك بشر .. يجب أن تعي هذه الحقيقة . لو كانت تحبك لما فعلت شيئاً في مصر .

ضحكت بعناد وبساطة :

– هل يعني أنني لا أحبها بعد أن اتخذتُ كما تقول عشيقة ؟. مرحباً محافظين .. حتى كلمة عشيقة غير مقبولة . صالح ، يجب أن تقترح أسماء جديدة ، لان المسمّيات تغيّرت ، أنا لا أعيش بورجوازياً ، ولا في ترف عاطفي ، لأتخذ عشيقة . هذه التي أعشقها فعلا ، وتمنّيت أنت لو رأيت وجهها ، تحسّ بوجودها وتحسّ أنها تغتصب منذ خمسة أشهر .. خذ هذه زجاجة لكل منكما . لنشرب نخب المجتمع صفر .

استلقيت على السرير ، وبعد ثوان جاء صالح فاستلقى بجانبي ، أما دريد فقد ذهب الى المغسلة أوّلاً فصوبن يديه وفمه ، ثم جاء فاستلقى بجانبي الثاني .

أمسك كل منا زجاجته ، ووضع فمها بين شفتيه . وأخذنا نمتصّ منها بهدوء واستغراق ، حتى شعرت بعد قليل بتحسّس غير طبيعي يعمر صدري . تمتم صالح بخفوت :

— يا إخوان ، لست أدري لماذا يحدّثني قلبي .. ثمة شيء ما في عالم الغيب .

أفقت عند المساء وكانت زجاجتي على صدري . نظرت الى صالح : كانت زجاجته مستلقية على صدره أيضاً ، وقد اندلق كل ما فيها عليه . والتفت لدريد ، فعجبت أني لم أجد زجاجته. فركت عيني جيداً ، ومددت يدي تحت الوسادة ، فاصطدمت بالزجاجة الثالثة .

نهضت وأنا أحسّ أن بصدغي تكمشاً ، فغسلت يدي وتمضمضت ، وجلست أعدّ الصفحة الأدبية حتى استغلق الليل . كان شعور طبيعيّ ، لا يزال يعمر صدري .

استيقظ صالح فرمقني بزاويتي عينيه ، وضحك ، ثم نهض :

— قم أبا الدرد ، درد ، قم .

ففتح دريد عينيه ، وتشم ، ثم ضرب أنفه باصبعه ، ونزل عن السرير .

— وستختماه ، يا ملاعين ، ماذا ستقول ثريا ؟.

ابتسم صالح وهو يهز رأسه هزات قصيرة حالمة :

— قل لها إن ثوريين عرباً قد ناموا عليه !

وخرجنا الى الشارع نتضاحك ، وما لبثنا أن انضممنا بصورة قطيعية لتجمُّع وقف ينصت الى راديو أحد البقالين .

« ... ومدعومة بتأييد قبيلة (الخوالد) وسكان الجبال ، وهي مسيطرة على المنطقة الجبلية كلها ، ومعظم الألوية الشمالية . . .

سيداتي وسادتي سنوافيكم بعد حين بما يصلنا من أنباء .. »

انبعث في صدري لهب بوذيّ عنيف الوهـج ، فقبضت على ذراع أحد الحاضرين أسأله عن الخبر :

– ثورة .. ثورة .. ثورة في بلاد السفوح الخضر والعروبـة النائيـــة .

كنت وصالح ودريد بجانبي نشرب الحروف . قبضت على ذراعيهما بعصبية وقلت إني ذاهب الى الجريدة ، ثم طوت عبر الشارع .

كان مبنى الجريدة أشبه بخليّة نحل ، وسرعان ما ضعت فيه بين النشاط الذي دبّ فجأة ، والحمّيا التي عبثت حتى بالورق . أخذت أصحّح الأوراق وأُعدّ المقالات ثم أغدو للمطبعة فأرى عملية صفّ الأحرف ، وأعود فأكتب افتتاحية الصفحة الأدبية عن الثورة ...

وكان مفروضاً أن نعرق ، وأن نسرّ بالعرق وأن تتحرّك الأيدي فنشعر بأن هذا الشرق البعيد قد حرّرهـا لتمسح عن جبينـــا عاراً ، وأن هذه الأيدي قد لاقت أخيراً المعول الذي تفتح به كوّة للحرية ، وتطلّ على الدنيا بصباح جديد .

بعد ساعة حضر الى الجريدة صالح ودريد ، فدخلا عندي وأخذا يسألان فوراً عن آخر الأنباء .

لكزني صالح بيده فالتفتّ اليه باسماً :

– اكتب أن طلاب الجامعة كلّهم يطلبون التطوّع .. أبا

البشر ، اكتب عنواناً كبيراً ، وطلاب الجامعة من الجمهورية العربية ، وغير الجمهورية .. اكتب ، لعينيك .. عاش صاحبنا !

نشم دريد وضرب أنفه بإصبعه ، ثم ضحك بلا مبرّر ، فأشعل سيكارة ، وأخذ يتجوّل في الغرفة .

وبين كلمات صالح المتدفّقة ، وعصبيّة دريد التي استهلكت علبة لفائفه ، بلغ الليل بنا الساعة الثالثة . كان كل شيء قد اكتمل ، حتى الإرهاق . وعدنا الى غرفتي ، وانطرحنا على السرير والكنبات .

– لقد حدث شيء جديد يا جماعة .. لكنني لا أدري كيف أعبّر عنه ، وليس يهمّني أن ينتهي الى نصر بقدر ما يهمّني أنه حدث ، وأنه أثبت أن الناس ما زالو بخير .. يعيشون كرماء .. يا إلهي دعهم ينتصروا . هذه المرّة فقط .

تمطّى صالح ، ثم تنهّد وقام يغلي شاياً . تسطّحت على السرير منهكاً ، فأقبل إليّ دريد ، يرمقني شزراً ، ويضع أصابعه على وركيه ، ثم يأمرني أن أنفخ بالشبابة . أعلنت له أني كسرتها ، فمطّ رقبته « كيف كسرتها ؟! » وازداد توتراً :

– كذاب .. قم بشر ، قم .. أسمعنا بالله لحناً هكذا .. أنت تعرف ألحاني .. لحناً فوق مستوى البشر .. اليوم مناسبة خاصّة ، وأنا أحب أن أسكر بلا نبيذ ولا بيرة .

تقلّبت على جنبي ودمدمت :

– كسرتها دريد .. كسرتها منذ يومين . اتركني فأنا متعب .

عندما أتعـــلّم الاكورديون سأعزف لك ما تشاء .. وقريباً سأتعلّم . ولكن اتركني الآن فأنا متعب .

تفرّس بي دريد بنظرة كسيرة محزونة ، واستدار بطيئاً مطرقاً الى كنبته فجلس :

– تلك كانت آخر ما أطرب له بهذه الدنيا . لقد فقدت إنسانيتك بفقدها . كسرها !! ولست أدري لماذا ، ولا يهمّني أن أعرف ، ولكن المناسبة ستفوت دون.. دون.. كيف يمكن أن تكسرها لتتعلّم الأكورديون ! أبقها يا أخي ، وماذا يضيرك؟. ستفوت المناسبة دون أن ..

وهزّ يده هزات عصبية متضايقة ، فقلت له .

– دريد ، الثورة لن تنجح ، دعك من المناسبة ، فهي ستضيف لنا انهزاماً جديداً .

أقبل صالح مرعداً :

– روح انكبّ . أتعرف ؟. والله إن لم تنجح لأقطع رقبتي ، أنت تعبان من الشغل ولا تعرف ماذا تتكلم.

لم أعد أعي من صالح كلاماً ولا من دريد ، فقد فتل رأسي كالخذروف ، ونمت بسرعة وأنا لا أزال أرتدي ثيابي .

في الصباح أيقظاني بقوة ، ففتحت احدى عيني ، ورفعت رأسي الى الأعلى . ولم تمض ثوان حتى ارتشقت حفنة ماء على وجهي ، ففتحت العين الثانية وتأملتها زائغ البصر . نظرت الى الساعة « الساعة السابعة والنصف ؟ » وأطلقت لها شتيمة

ضخمة . وقفزت فاغتسلت وغـيّرت ثيابي ، وانطلقنا الى الجامعة .

لم يكفّا طيلة الطريق عن الكلام . كان يبدو أن صالح قد أصيب بنوع من الهستيريا وأن دريد قد ذاب في بحرمن الشعور .

أخذ البرد يحتكر قدمي بصورة تحرق الأظافر ، ولما وصلنا للمقصف ، كنت أشعر أن أصابعي قد انفصلت عن قدمي ، وفي دقائق أفطرنا وصعدنا الى البهو . هناك أمسك صالح بيد دريد قليلا ، وصاح « علا » ثم أخذ يرقص دبكة جنوبية ، وشرعنا نرقص معه ، فتقدّمنا حتى مدخل النادي ، ثم نزلنا درجاته حتى الساحة ، وهناك تابعنا الرقص . وفي دقائق تملّكته النشوة فصاح « الى متى يصمت الشعب العربي » وعلا صوته بأغنية « علا » ، فجعلنا من أنفسنا كورساً وصرنا نردّد مقاطعه .

بدأ الطلاب يتوافدون ، ثم تدفّقوا علينا ، فشاركونا الرقص والغناء ، واتسعت الحلقة بسرعة وروعة . وبعد دقائق كان عددها قد بلغ المئات ، وصالح يتوسّطها برقص منفرد ، وأناشيد كانت تخلق معه لساعته . وتأجّج الحماس ، فصارت ضربات الدبكة تختلط بالأغنيات وتشقّ سجف السماء .

بدأت أشعر بالتعب ، وصارت خطاي ثقيلة ، فأفسدت إيقاع الرقص . وهكذا انسحبت بهدوء وجلست على أحدمقاعد الحديقة حيث أخذت أسعل بين الحين والحين .

انتظمت الحشود الراقصة أربعة أربعة ، تتقدّمها الطالبات ،

وترادفت في صفّ طويل ، خرج من الجامعة . كان صالح يتعالى على أكتاف بعض الطلبة في المقدمة ويصيح :

بدنا ثورة تعجّ عجيج
من الاطلنطي للخليج
ومن حلب للمحمية

كانت الهتافات تتبعه خشنة قوية من الحنـــاجر . ثم ما لبثت أن خفتت، فتوارت عن مسمعي .

٦

تمدّدت على المقعد ، وتسلل اليّ النعاس . كانت صورة صالح آخر ما فكرت به قبل أن أنام .

وبدا أن المصادفات قد حرّمت عليّ النوم ، فقد أيقظتني واحة ولم أغف أكثر من ربع ساعة. سلّمت عليها ببشاشة متعبة ، وقمت فسرت معها الى المقصف ، وجلسنا حول طاولتنا المعهودة .

– لماذا لم يشترك المواطن الريفي بالمظاهرة ؟.

– المواطن الريفي انحلّت قواه وأُخلاقه .

وأسرعت أحضر الشاي وأعود فأقول لها :

– اشربي من هذا الشاي الساخن ، لتصبحي أدفأ وأدفأ .

ارتبكت فتناولت فنجانها ، واحتست منه جرعة كبيرة . كان الشاي حاراً ، فدمعت عيناها فوراً ، فابتسمت ، ثم انفضّ من فمها سعال عنيف متلاحق . ونهضت بسرعة فدخلت غرفة المقصف الثانية . أسرعت اليها وقد توتّرت أعصابي ، وأخذت أتأملها بحزن شديد . وبينما راحت تكحّ بعنف وحدّة وقفت بجانبها لا أريم ، وليس بوسعي أيّ عمل .

رفعت يدها الى كتفي ، فأطبقت بسترتي ثم شهقت وترنّحت بسعلة ضخمة . رأيت فمها ينتفخ ويغلق ، فنظرت اليها وقد جمّدني الرعب . وفاجأتها سعلة ثانية ، فاضطرت الى أن تبصق . وانقذفت على الأرض كتلة لزجة قاتمة الحمرة ، تأملتها واجمة لثوان قليلة ثم تهاوت مغمى عليها .

التقطتها فأسندتها على الكرسي وعدوت الى صنبور المقصف فأحضرت لها إبريق ماء ، تمضمضت منه ثم شربت قليلا وألقت رأسها على الجدار لاهثة شاحبة .

تقدّمت بالإبريق فصببت على كتلة الدم بعض الماء ، وسال الخليط أحمر قانياً ، فبدا أنه سيلوّث أرض الغرفة . مسحت السائل برجلي ، ووضعت منديلي فوق الكتلة ، ولففتها به ، ثم حملتها . كانت قاسية الملمس بحيث توحي أنها ليست مجرّد دم .

— سآتي حالاً .

وخرجت من الغرفة الى الساحة الأمامية ، فرميت المنديل في مياه بردى ، وتأملته يطفو ، بعد أن غاص وشله فوق الماء ،

متلوناً ببعض الحمرة هادئاً رصيناً متلوياً ، ثم يختفي تحت الجبيلة التي تجثم فوق النهر .

عدت الى واحة ، فرأيتهـــا قد استفاقت . فتحت الباب الثاني وخرجت بها متأبّطة ساعدي .

– شدّي حيلك .. لا تخافي ، سيتوقّف الدم في بضع ساعات . اعتبري ماصار بي ولا تخافي ، أنت صحتك أفضل من صحّتي ، ولن تمكثي في المستشفى سوى بضعة أيام .

نظرت اليّ كسيرة خائفة وتمتمت : – كيف سأدخـــل الى المستشفى ؟! .

– تعالي للطبابة .

وذهبنا للطبابة وهي تقع قريبة من المشافي ومديرية التسجيل معاً . وهناك انتظرنا الطبيب نصف ساعة . وبعد أن جاء ذكرت له ما حدث فأسرع يكتب ورقة إحالة للمستشفى .

– أهو تدرُّن يا دكتور أم التهاب ؟ .

– ستأخذ صورة شعاعية أولا ، لقد جاءت اليّ منذ أيام ، ولم تذكر لي أنها تبصق دماً فأعطيتها وصفة . لكنها لم تستعملها فيما يبدو . هل استعملت الوصفة يا آنسة ؟ .

كانت واحة مغمضة العينين ، فرفعت رأسها نفياً . ونظرت اليها متعجباً ! لكني لم أستطع أن أسألها سر ذلك . قلت لهـــا إني ذاهب الى مديرية التسجيل ، لآخذ وثيقة تثبت أنها طالبة ، وطلبت منها أن تنتظرني حتى أعود .

وعلى الطريق عاد غموض قضيّة الدواء يحيرني . إن أباهـــا راعي كنيسة ! ولكن ماذا يمكن لراعي كنيسة أن يعمل أكثر من دفع نفقات تدريس ابنته ؟

حصلت على الوثيقة من «عبدالله افندي» بسرعة استثنائية. وعدت لمحاسبة المشافي ، فدفعت خمسين ليرة تأميناً وأعطيت الوثيقة وتقرير الطبيب . وهكذا أخذت أمراً بادخال واحـة الى المستشفى .

وخــلال عودتي مــلأني غم عميق ، وشعرت بأني سأدخـل المستشفى لأحفر قبراً . وفي الطبابـــة كانت واحة لا تزال تنتظرني ، ونهضت اذ رأتني ، فسرنا معاً للمشافي في الجهـــة المقابــلة للعيادة . وانعطفنا للقسم النسائي حيث استقبلتنا ممرضة متوسطة الطول والعمر ، فسلّمت عليها وأعطيتها الورقة ، ثم قلت :

ـــ هذه مريضة درجة أولى ، فضعيها إذا أمكن في غرفة منفردة .

قادتنا الممرضة الى غرفة صغيرة تدخلها الشمس حتى الضحى فأشارت الى السرير . والتفتّ لواحة فقلت :

ـــ لا تهتمّي لشيء .. المستشفى كثير الراحـــة والهدوء ، وسيعتنون بك فوراً . سأذهب الى دار الطالبات ، فأحضر لك ثوباً وبعض الأدوات الأخرى . اجلسي على السرير ، وارتاحي ، سأعود حالاً .

كان رأسي يطنّ كصناجة ، وجبهتي تنفتل . مشيت وكأن بساقيّ سلاسل. وبرغم قرب الدار فإني لم أعد إلا بعد نصف ساعة.

أعطيت لواحة حوائجها ، ومجلة ابتعتها لهـا ، ثم استأذنتها أن أذهب : « سأعود في المساء ، إن عليّ اشغالاً » .

قلت مبتسماً ، فتأملتني بخجل ، وأشارت لي أن أقترب :

— والنقود .. كم دفعت نقوداً ؟.

فابتسمت وسرت دون أن أتكلم . ودّعتها مشيعاً بنظرة منها قلقة صامتة كثيرة التعبير .

عدت الى غرفتي فنمت . كنت منهكاً فبقيت نائماً حتى السابعة . وعندما استيقظت تمطّيت كأن ثقلاً انزاح عن صدري ، وما لبثت أن تذكرت الجريدة ، فساءني أني ملزم بالذهاب اليها ، وكان لا بدّ من الذهاب .

توجّهت اولاً الى مركز البريد ، فأرسلت لوالد واحة برقية عن مرضها ، ثم ركبت الباص الى الجريدة .

ومن المكتب اتصلت بالمستشفى ، واستفسرت عنها فقالت الممرضة إنها أُعطيت مقيّئاً ، ودواء موقفاً للسعال ، وقد تقيأت كثيراً من الدم الأسود المتصلّب كتلاً كتلاً .

ألقيت السماعة ورأسي يدور : نفس ما مرّ بي. ترى ماذا سيحلّ بواحـة .. وانكببت على المكتب أهيء مهام الطبع ، التي أنيطت بي .

٧

عدت الى غرفتي في الثانية فوجدت دريد وصالح نائمين على السرير بملابسهما . أعددت الشاي وبحثت عن قرص اسبرين فبلعته ، ثم جلست حتى غلى الماء ، فأيقظتهما .

ــ ما هي آخر الأنباء ؟

ــ الزحف الى العاصمة .

جلس دريد يفرك عينيــــه ، بينما قفز صالح وراح يرقص في الغرفة . تأملته بغبطة ثم صببت الشاي ، ودعوتهما للشرب . أقبل إليّ صالح وأخذ يقبّلني ويضحك بلا سبب . ونظرت اليه فابتسم . كان دريد ينقر برجليه على الأرض .

ــ صالح هل تذهب الى هناك ؟.

فالتمعت عيناه ونظر اليّ بتصميم .

ـ بسيطة نركب البـــاص الى حمص .. ومن حمص الى البوكال ، ثم نتخفّى وندخل الحدود العراقية ونتابع من هناك .

وبعد تفحّص سريع فائر حدث بين عيني دريد وعيني صالح قرّرنا أن نذهب . لم يكن ثمة شيء للمنـاقشة ، فأخذنا نشرب الشاي احتفالاً بالسفر السعيد . أعلن دريد فجأة :

ـ تعالوا نكتب وصايانا .

ضحك صالح حتى تقوّس على قفاه ، ثم أقبل يهتزّ نحو السرير ، فانطرح عليه كأنما أخذته نوبـة . وقام دريد بصمت وهدوء ، فأخذ ورقة من دفتر رسائلي ، وجلس الى الطاولة ، وراح يفرك صدغه مرة ، ويكتب مرة أخرى .

ثم وضع يديه في حجره وقـــال ، وضحكته لا تزال تذرع الغرفة جيئة وذهاباً :

ـ أوصي بثيابي الملوّثة بالدم لمتحف دمشق ، وبثيابي التي لم تلوّث لصاحبنا . ولست أملك غير الثياب .

وأطلق قهقهة . التفت اليه دريد ، وطلب منه أن يهدأ ليرتّب أفكاره ، فانطلقت ضحكته أعنف وأقوى وأكثر تردّداً .

نهضت ، فأحضرت الدفتر ، وجلست على الكنبة . كتبت اسمي والتاريخ ، وألحقتها بكليشه « أنا الموقع أدناه » ثم وقفت . لمن اوصي ؟ .

معي ألف وخمسمئة ليرة ـ لقد نقصت أمس خمسين ، لا بأس ـ

فلمن أوصي بها ؟. سحاب ؟. لندعها الآن جانباً . من المؤكد أن ليلى تستحق حصّة : حصّة لليلى .. خزامى ؟. لست أدري ، إنها تشتغل وعندهازوجها . قليل لخزامى . والباقي ؟. لأحسب اولاً كم سأعطي لليلى ولخزامى . خمسمئة مثلاً لليلى ؟.. لا بأس . ومئتان لخزامى ... وحوالي مئة ليرة لبنـات أخي الثلاث .. والباقي؟ بقي سبعمئة ليرة . لنر .. حسناً اربعمئة منها لسحاب، والباقي لواحة ثمن دواء وطبابة .. جيّد ، ها قد انتهينـا من النقـود .

كتبت وصيتي ، ووقّعتها بوضوح وأناة ، ووضعتها في مغلّف أزرق ، تأمّلته قليلاً ، ثم أسندته على الطاولة بعناية . واستلقيت على الكنبة وأطلقت زفرة طويلة ، ثم أغمضت عيني .

استيقظت في العاشرة ، فرأيت صالح يحلق . ودريد لا يزال نائماً . حدقت بصالح منحرف الرأس :

ـ لماذا تحلق ؟.

ـ لنستقبل الموت بأناقة . هل أفاق دريد ؟.

ضربت دريـد على كتفه بضع ضربات فاستيقظ ونهض ، وأصلح من شأن ثيابه : « الوصيّة على طاولتك » وتقدّم فغسل وجهه وسرح شعره ، ثم التفت لصالح وتفرّس به باسماً ، وقبّله..

ـ آي .. عاش صاحبنا .

أشعل دريد سيجـارة : « صرت مدمناً » وأخذ يتمتم بكلمات غامضة . وراحت حلقات الدخان الفاتر تخرج من فمه

بهدوء حتى أنهى صالح حلاقته وقال « هيّا يا جماعة » . وتقدّمنا الى الباب ففتحناه ، وتطلّعنا نرمق الغرفة بوداع .

ـ ستأتي ثريا غداً فتجد الوصية .. سأترك الغرفة بلا إقفال.

خرجنا الى الشارع فسرنا بخفّة وكثير من الكلام . وبعد دقائق وصلنا « للمرجة » وحجزنا ثلاثة مقاعد ، ثم طفقنا نتجوّل بانتظار حلول الميعاد . قلت :

ـ يا أخي .. ألن نودّع أحداً ؟

فقرر صالح بسرعة :

ـ أبداً .. ولا أيّ إنسان .

وخيّم الصمت فجأة . سرنا حتى « الحميدية » ورحت أتفرّس بازدحام الناس عمداً كأنني لن أراهم بعد . وعدنا من شارع آخر أخذت أتحسّس حيطان عماراته بلذّة عابثة . ثم انتهينا الى المرجة ونحن لا نزال صامتين .

اقتربنا من السيارة ووقفنا .

كان المرجل يغلي ، والمحرّك يشخر برتابـة .. هذه السيارة ستقلّنا الى حمص ، ومن هناك الى البوكمال . أشعل دريد سيكارة وأخذ صالح يهتزّ على كعبه .

كان الركاب يصعدون ببطء ، والسائق يستند على المقود ، ويشرب من فنجان شاي . المعاون على ظهر السيارة يحزم الأمتعة ؟ لم يكن معنا أمتعة . وحولنا يتصايح باعة الفواكه ، وصبيـة يحملون جرائد متنوعة . ابتعت « جريدتي » . وأخذت اقرأ بلا

تعيين . « الزحف على العاصمة . » وبعد قليل تركتها ، ورحت أتأمل الساحة الصغيرة بلا اكتراث .

المرجل مـــا يزال يغلي ، والمحرّك ما يزال يشخر . انتهى فنجان الشاي ، رفعه السائق بيده ، أخرجه من نافذة صغيرة بجانبه . امتدّت يد فتناولته . بعد ثوانٍ أرجعته مليئاً . تحرّكت يد السائق فأعادت الفنجان الى مكانه . استلقى على المقود ثانية .

ــ ركاب حمص ... ركاب حمص .

أقبل شرطي فمرّ من أمامنـا وسار . الباعة مـــا زالوا يتصايحون ، والمارّة يتدافعون بأكتافهم وأيديهم دون وعي .

ــ تمسح أستاذ ؟.

مد دريد ساقه .

وضع صالح أصابعه تحت إبطه ، وأمسك بيـــده الأخرى ذقنه . شخر المحرك شخرة قوية ، ثم عاد لسيرته الاولى .

فرغ الفنجان الثاني . امتدّت اليد اليه وعادت بالثالث .

ــ متشكّر أستاذ .

أنزل دريد ساقه الثانية .

شخر المحرك من جديـد بقوة واستمرّ على نفس المستوى . أطلّت بعض الرؤوس من نوافذ السيـــارة ، وبقيت أخرى في الداخل .

ــ ركاب حمص ، ركاب حمص .

نهض السائـــق عن المقود ، وأمسك بكتلة حديدية ، تتوّج

قضيباً حديدياً وأرجعها للوراء . شخر المحرك برتابة . بر بر بر بر بر بر .

ترحلقت الدواليب بهدوء ، وتقدّمت السيارة بهدوء .

– مسكة .. شكولاه ، أستاذ .

تمطّت السيارة ببطء ، ثم أطلقت هدرة مشبعة بالدخان وانطلقت . ومرّ المحرك من أمامي ، فالبـــاب ، النوافذ ، الوجوه .. المؤخرة .

امتدّت من عيني صالح نظرة مبتسمة تفيض حرجاً . هززت رأسي وسرت ، وسارا معي .

الفصل السادس

١

– استعملت حتى الآن خمس زرقات .. في عشرة أيام . لقد توقّفت عن السعال منذ اليوم الثالث كما قلت لك ، فأخذنا لها صورة . وقد رأيتها مع الطبيب . وستخرج لتعيش في الجبل ما يقرب من نصف سنة . يجب أن تؤمّن لهـا كل الراحة والهدوء ، والتغذية الجيدة .

شكرت الممرضة ودخلت الغرفة ، فحييت « الراعي » الجالس صامتاً حزيناً بقرب السرير . واعتدلت واحة في جلستها وتبسّمت ببطء ووداعة .

– أصحيح أني سأخرج من المستشفى ؟

– أجل بعد ثلاثة أيام . وستذهبين الى مكان ريفي هادىء

ترتاحين فيه ، وتتناولين دواءك .

نظرت واحة الى أبيها بحنان ثم تلفتت الي وقالت :

– أتعرف أنك أعجبت أبي كثيراً ، حتى لقد تمنى أن تكون مسيحياً .

وغمرت أباها بنظرة حبّ كبير .

ابتسمت ، فجلست بجانب رجل الدين الصامت المبتسم أيضاً . كانت ثيابه السوداء ، تمتدّ تحت ذقن طويلة بلون الياسمين . ومدّ يده فقبض على معصمي وقال : « رعاك الله يا بني .. الأديان لا تهمّ » .

مكثت قليلاً أتناوب النظر مع واحة وأبيها ، ثم أطرقت نحو السرير . تكلّمت مع « الراعي » قليلاً ، ثم استأذنت بالخروج . وأوصلني والدها الى الباب بينما ودّعتني هي بلهفة ، ونظرة طويلة لم أستطع تحملها .

لقد زحمني الزمن . ومن يعلم أين سحاب الآن ؟! . منذ أسبوع لم أرها . الجريدة والثورة ، وخطابات رئيس الجمهورية ، وثريا . ما أقسى ما يعيش الإنسان ، وما أكثر ما يضيع من حياته . منذ أسبوع وأنا أعيش في حلقة مفرغة من مراوغات الحياة . دخلت الجامعة ، وبحثت عنها في الحديقة ، فلم أجدها . ولم تكن كذلك في المنتدى ، ولا في المقصف . عدت الى المكتبة فلم أجدها أيضاً . وهكذا أسقط في يدي .

جلست على أحد مقاعد الحديقة متعباً ، منهدّاً ، متلاشي

القوى . وكرّت عشرة أيام من الزمن من مخيّلتي ، فانقطعت عما حولي الى تذكّرها وإحياء احداثها .

لقد اختفى صالح . اختفى عندما سمع بذبح قائد الثورة . وبعد أيام سمعت أنـــه ذهب الى الجنوب . ومنذ ذاك انقطعت أخباره، فلم أسمع أحداً يتكلّم عنه .

وجـــاءت اليّ ثريا منذ خمسة أيام ، متعطّرة ، متجمّلة ، وأغرقتني بمزيج من أريج القارورة وأريج الجسد . لقد كان مجيئها ذاك المرة الثالثة التي ألتقي بها فيها جسداً لجسم . وشدّ ما شعرت بعد نهاية اللقاء أني غدوت حيواناً . وأن بعض اللحظات التي مرّت عليّ قد أفقدتني الشعور بالعالم الخـــارجي ، فامتنعت عن التلقي الحسّي لأي شيء آخر امتناعاً مطلقاً . وبرغم محـــاولتي العنيفة لكي أقبلها بعد « اللقاء » ، وأخفّف بالتدريج من احتدامها، فقد كنت أتفتّت بقرف هائل ، لا يعدله سوى خمودي بعد اللقاء ، وتهافتي قبله . وكنت كلما سمعتها تقول إنهـــا تريـــد أن ترزق مني بولد ، صرخت بوجههـــا كالوحوش لأمنعها عن الكلام . كان مجرّد التذكّر بأنّ « ابني » سينسب لغيري كافياً لأن يجعلني أهتاج . وكان يزيدني تهيّجاً أنها لم تكن تعبأ بصراخي، بل تأتي اليّ وتسلبني هذا الصراخ بالتحام قصير .

وفي المرة الثالثة ، شعرت أني قـــد صرت حيواناً من نوع جديد . كنت أقبّل ثريا بهدوء قبلاً طويلة كأنما أتمرّن على إجادتها وأحسّ بالتهاب في صدري ، فأطبق عليها بقوة، وأزداد تضرّماً.

ولقد فقدت بسبب ذلك الاهتمام بكثير من الأشياء . لم يعد يسترعي انتباهي أيّ حادث أو قضية . والأشياء الثلاثة التي كانت تفرض عليّ نفسها هي، سحاب وواحة والجريدة : سحاب لم ألتق بها منذ أسبوع ، ولقائي بواحة كان يتمّ مجلوداً بسياط من حزن ، وأما الجريدة فكانت تعني بمجرد تذكّرها : الإرهاق وذوبان القوى .

وكنت دائم البحث عن سحاب ، وقد أعلمني فائز أنها صباحاً تأتي الى الجامعة ثم تغادرها ضحى فلا تأتي إلا في المساء ، ولم يكن بالطبع ممكناً أن ألقاها في تلك الأوقات ، كما لم يكن ممكناً أيضاً أن أذهب الى بيتها ، فأنا لا أعرفه .

وكان مجيئي اليوم فشلاً آخر في العثور عليها . وزادني الفشل تعباً فاستلقيت على المقعد في تراخٍ وكسل . ورحت أتمثّل البعد بين بيتنا عند (المجتهد) والمئذنة الرمادية العتيقة ، وبيني الآن . ورميت رأسي الى الوراء ، كأنني أنفض منه توعكاً .

من بعيد كان دريد يتهادى بقامته الطويلة الناحلة ، ويمسك بيده سيجارة . وتأمّلته حتى أقبل اليّ ، فرفع يده بالتحية دون كلام ، وانتظر حتى اعتدلت على المقعد فجلس بجانبي .

استمرّ يرضع سيكارته بصمت ووجوم ، وينفض رمادها حتى انتهت . ورمى عقبها على الأرض فداسه ، ثم التفت اليّ وقال:

– أتريد ان تسمع شيئاً عن صالح ؟.

حدقت به وقد تفتحت مسام جسمي فوراً وكلية .

ــ عندما ذهب الى الجنوب ، دخل الى الخضراء دون أن يعلم عنه السلطات . وبقي متخفياً يومين حتى تأكد من أن أحداً لم يش به أو يشعر بوجوده . ثم حاول أن يتصل بالحلقات السرّية للحزب العاملة من أجل الانقلاب . وكانت الخطة أن يغمروا الخضراء والمدن الرئيسية ، بمناشير تهاجم السلطات هجوماً عنيفاً ، ثم يحدث ضبّاط الجيش الانقلاب .

وقد أوكل أمر المنشورات الى صالح . ويبدو أنه كان شديد الحماس فغمر الأسواق بها فعلاً ، لكنه ارتكب غلطتين : أرسل رفاقه يوزعون في النهار ، ثم ذهب يوزع بنفسه طيلة يومين كاملين بلا انقطاع ، حتى جاءه الأعراب .. لم يستطع الهرب منهم بالطبع فقبضوا عليه .

صمت دريد قليلاً فأشعل سيكارته وأتمّ :

ــ قلعوا أظافره .. ربطوه بأحزمة تمنعه من التغوّط والتبول .. سلطوا عليه الأضواء بمنتهى الشدة كضوء آلة عرض الأفلام . ولقد قال الضابط الموكل بتعذيبه ــ وقد قصّ لاهل صالح ما جرى ، وطلب منهم أن ينقذوه ــ إن ذلك لم يؤثر على صمته أبداً إذ رفض أن يفوه بأية كلمة ، وقد أدّى تدخّل قرابته الى أن أوقفوا تعذيبه وأُرسل « للغمقة » على الحدود .. أنت تعرف الغمقة : باستيل جديد .

ومجّ من سيجارته نفساً طويلاً ، ثم أخرج الدخان من فمه

بقوة محرقة :

ـ الحياة لا تطاق في كل مكان .

ونهض يترنّح في مشيته مطرق الرأس هادىء الخطى .

بعد قليل نهضت فبحثت عن سحاب مرة أخرى ، ولما لم أجدها توجّهت الى المستشفى . والتقيت ثانية بواحة على فراش المرض . لكنني لم أطل الجلوس ، فقد شعرت أن ولادة شيء جديد في صدري قد تمّت دون أن أعي .

٢

كان إحساس بالنعومة والطراوة يسري في أعصابي، فأشعر له بكثير من الارتياح. وأفقت لأرى ثريا بجانبي، تمسح براحتها البضّة الناعمة وجهي، وهي تجلس على طرف السرير. ابتسمت ثم انقلبت على جنبي الثاني مغمغماً بصوت متناوم. انتقلت ثريا الى الجانب الثاني وأخذت تتابع تمسّحها. فتحت فمي وعضضت إصبعها فانتفضت بضحكة كبيرة، ثم ازدادت تعابثاً. جذبتها من يدها فوقعت فوق السرير، وقبّلتها.

ــ قم سأخبرك شيئاً .. قم اغسل وجهك، وسأغلي لك شاياً.

نهضت أعبث بشعري الى المغسلة، فرشقت على وجهي بعض الماء وتسوّكت، ثم تحاملت الى الكنبة فانطرحت عليها

وتناولت صحيفة عن الطاولة أخذت أقرأ فيها .

- ماذا ستخبرني الخانم ؟.

تركت السماور وتقدّمت الى السرير ، فجلست عليه باسمة . رفعت رأسي اليها بجملقة مرحـــة ، ثم انكفأت أتابع قراءة الصحيفة بتقصّد ، دون أن أخصّهـــا بأيّ اهتمام . ونهضت الي فانتزعت الجريدة ، ووضعتها خلف ظهرها .

- احزر !

- هيّا تكلّمي ، لا تطلعي روحي .

- مرّ الميعاد أمس ، ولم يحدث معي طمث .

استغرقت بقراءة الجريدة قليلاً ، ثم سألتها بأقلّ اهتمام :

- وبعد ئذ ؟ ماذا يعني هذا ؟.

- ياحبيبي .. قال طالب جامعة .. معنى هـذا أني حبلى يا أستاذ .

أحسست أن دبّوراً قد عضّني . رفعت اليهـــا عينيّ معقود الحاجبين ، وحدجتها باستغراب ، ثم تراخى تقطيبي ، فرحت أحملق فاغر الفم ، حائراً ، متفرّساً . ونظرت الى بطنها : إنـه هو هو ، لم يتغيّر .

- كيف .. حبلى ! كيف عرفت بـ...

وعدت أحملق بها يتنازعني شعوران سلبيان يتضاربان كحجري رحى : شعورغريب بالفرح ، وشعوررفظ بالثورة .

- ومن قال لك إنه ابني ؟ .

فأسرعت تؤكّد مرحة ضاحكة :

ــ أجل ، أجل .. اسكت ، إنه ابنك .. إنه يقول لي ذلك .

ــ ولكن اصبري حتى تتأكّدي أنه صبيّ !!.

فهزّت رأسها بفرح غامر ، وهرعت الى الشاي . فأطفأت النار ، وجاءت تتراقص جذلى ، بالغة العذوبة .

نظرت الى بطنها بريبة كنت أحس بضرورتها . أحقاً هنا تستقرّ نواة سوف تصنع في المستقبل ولداً ؟. هذا يعني أني صرت أباً بالضرورة ، وغداً عندما يولد صبيّ صغير ، كيف يمكنني أن أتوارى من حياته ، وأتركه ينادي هذا الأصلع البشع « بابا » !؟ إن هذا ليس معقولاً !.

إن ثريّا تكذب ، يا لها ، وليس معقولاً ان ينشأ « ابنٌ » ثمرة لثلاثة لقاءات .

ــ ثريا ، اسمعي : إذا كنت حقاً حبلى فسوف أُجهضك . تعالي اجلسي على السرير . فليس أنا من سيجهضك . إسمعي ، إذا كان معقولاً أنه .. أف .. اذا كان صحيحاً أنك حبلى ، فيجب إجهاضك . سوف يأتيك أبناء في المستقبل ما شئت . أما أن يأتيك ولد مني وينسب لزوجك ، فهذا لن يتمّ . أحقاً أنه مني ؟. .. قولي أحقاً انت حبلى ؟.

كانت ثريا تضع يدها فوق فمها وتتأمّلني فاغرة العينين :

ــ أنت مجنون ! ستقتل طفلاً بريئاً بسبب ذلك ؟! هل تفكّر فيما تقول ؟. إجهاض !..

قلت باصرار :

– أنت حبلى حقاً ؟.

فنهرت : – أنت ما دخلك ؟. أجل إني حبلى .. ولن تفعل شيئاً معي .

كان صدرها الرحب يهتز تأثراً وهي تستند على الجدار . حركت رأسي بقنوط ، وعدت أتأملها بقرف ثائر .

– ثريا أنت لا تفهمين .. أنت فقط لا تفهمين .. تصوّري أن زوجك انتزع منك هذا الولد .. طلّقك ، طردك ، عمل أيّ شيء فأبعدك عنه .. فماذا تفعلين ؟. هل تجدينه منطقاً ، هل تجدينه معقولاً أن تُحرمي من ابنك ؟. تكلّمي .. هل تقبلين لو وقفت الدنيا بوجهك أن تتنازلي عن شعرة منه ؟.

رفعت ثريا رأسها بكبرياء مهزومة ولم تجب .

– إنه ليس معقولاً .. قولي إنك لست حبلى ثريا .. لا تخضّي أعصابي .. قولي إنك تجسّين النبض ، لتعرفي تقبّلي للفكرة في المستقبل .. قولي ذلك وسأحضر دواء من رفاقي بالجامعة يمنع الحبل في المستقبل ، فنقضي على هذه المشكلة .

– كلا ، لن أقول .. إنني حبلى .

غمغمت مهزوماً أنا الآخر : – يا إلّه السماء .. لقد أوقعتني في مشكلة لا يمكن التغلّب عليها .. ابني ، من أعصابي وذرات جسمي ينسب لغيري ؟

ارتفقت بالكنبة ، وغطيت عيني بأصابعي ، وشعرت

بدوار ثقيل . كيف يمكن أن يحدث هذا !

أحسست بثريا تقترب مني ، تصبّ الشاي في الفنجان :

اشرب الشاي .

رفعت يدي عن عيني فتناولت الفنجان ورشفت منه قليلاً، ومكثت أحمله برهة كأني متخدّر ، ثم وضعته على الطـــاولة ، أتجول في الغرفة .

وأحســت بهــا ثانية تتبعني أنى سرت ، فوقفت ونظرت اليها . وحدقت بي ضارعة العينين ثم قالت :

– بشر،لا تكن قاسياً . سوف أربّيه عــلى أن يحبك ، وسأقول له عندما يكبر إنك أبوه ، سأعلّمه كيف يتصرّف مثلك ، ويغضب مثلك ، وأعوّده على أكل المصمص وكل شيء.

وأجهش صوتها فأطرقت ، وخرجت كلماتها تتملّص من بين الدموع وتوحي بتقطعها وبلاغة تأثيرها . إن صاحبته لا تتكلم، بل تتلاشى :

– أنا أحبك بشر .. فلا تكن قاسياً . لماذا تتمسّك بـــه هذا التمسك ؟ افرض أنك رحت للحرب ، وتركته عندي .. لو ذهبت لأيّ مكان .. لأمريكا .. كما تقول ، ألن تتركه عندي؟ عندما يكبر سيعرف أنــه ابنك ، بشر ، صدّقني ، وحياتك ، والله ، سيعرف أنه ابنك .

قاطعتها بعصبية مشمئزة .

– اصمتي ثريا .. اصمتي . إنه يستعصي عليّ أن أصدق أنك

حبلى . يستعصي ، لا أدري لمـــاذا . صحيح أن بعض الناس يفعلون مثلنا ، لكني لا أعـــلم كيف يتصرّفون ، ولا أريد أن أعلم . أنا أعرف فقط أنه شيء غير طبيعيّ ، غـــير معقول .. افهمي هذا الشيء .

اقتربت ثريا مني ببطء وإطراق ، فانضوت تحت ذقني ، ودموعها تنسجم فوق خدّيها بسيل لماع . أمسكت عنقهـــا بأصابعي ورحت أتحسّسه .

– انا لا ألومك .. ولا أدري إن كان ينبغي أن ألوم نفسي .. غير أننا نواجه وضعاً لا يمكن مواجهته ، لا قبل لي بمواجهته ... كيف أجعلك تفهمين ؟! غداً عندما يكبر بطنك ، وتحسّين بالفرحة انتظاراً لمولود جديد ، لن تفكري بأن بريئاً منذ جاء الدنيا زُيّف أبوه .. يا إله السماء ! تخيّلي ذلك فقط !

تحوّلت عني بهـــدوء ، وتقدّمت نحو الطـــاولة ، مطرقة باكية ، فأمسكت جزدانها وتمتمت :

– هل أذهب ؟.

نظرت اليها ببلاهة :

– أين تذهبين ؟.

فرفعت عينيها بتساؤل خنوع :

– اليه ؟.

نخرت ، وسرت في الغرفة جيئة وذهاباً ، وفي نفسي طمي عصبيّ حادّ . وعدت أشعر أني متعب ، شديد التعب ، فتقدّمت

الى السرير وتسطحت عليه :

ـ هل أذهب ؟.

ـ كلا .

وأقبلت اليّ بهدوء ، فدحلت بجانبي ، والقت رأسها على يدي ، وراحت تقبّلها .

ـ هل ستسقطه ؟.

فتضيّقت عيناي سخرية : ـ أم تقولي إني سأقتل بذلك نفساً بشرية ؟! هل يمكن أن أسقطه .. سوف ينمو بالطبع ، سينمو مزيّف الأب ، وسيحبّ إنساناً لا يمتّ له بصلة ، ويناديه « بابا » ..

نهضت ثريا عن السرير منكّسة الرأس ، وعلّقت جزدانها بساعدها ثم خرجت .

٣

وبقيت وحدي بعض الوقت ، فتقلّبت على السرير وكأني في بحران ، ثم نهضت . كان رأسي يدور وأعصابي متهالكة . لقد تركت ثريا في ذهني محرّكا .

خرجت الى الشارع أسير بخطوات صفراء . ووصلت متجراً للزهور ، فاستندت على جداره ، التقط أنفاسي وأشمّ رائحـــة ذكية . كان عرير الحافلات والحركة التي لا تفتر يملأان الشارع صخباً وضجة .

ومرت من أمامي سيارة اولدزموبيل ، ثم وقفت عند تقاطع الشوارع تنتظر إشارة المرور . كانت السيارة سوداء برّاقة طويلة ، رحت أتأملها فارغ الذهن .

وفجأة طرفت عيني بشعر أسود تجلس صاحبته في مقدمة السيارة ، فضرب قلبي بلا سبب . ولكني تبيّنت ، إذ حدقت أن سحاب تجلس فيهـــا منتصبة الظهر ، تميل الى اليسار كي تتمكن من رؤية شيء ما . وحملقت بالسائق ، فـــلم يطل بي الوقت حتى عرفت فيه ابن خالتها .

أعطيت للسيارة إشارة مرور ، فانطلقت . وتابعت مسيري عبر شارع فرعي . كنت أشعر أن رأسي قد يتهاوى عن كتفي في أية لحظة ، وأن في جبهتي احتداماً يكاد يشقّ عظامها وينفجر . وعبثاً حاولت أن أبعد عن ذهني صورة سحاب ، او أؤجّل تفسيرها . غير أنه كان لا بـــدّ من الاعتراف بأنني تضايقت ، وتلك صورة لم أدر كيف أفسرها .

من الواضح ، حتى الآن ، أن شيئاً غير الإرادة الواعية يتحكّم بسحاب . وحتى إذا كان الحكم عليها بأنها سويّة او غـــير سويّة ممكناً ، فذلك شيء لا قيمة له . السؤال هو : هل أتزوجها بهذه الكيفية ام لا ؟ والجواب محيّر .

ـ إنها لا تزال تأسر حواسّي وتثير بي نزعة عاتية لأن أعيش ، بأيّ مستوى ، وبعكس أيّ مفهوم ، معها . غير أنه لابدّ من أن تكون لي بعد الزواج ، وإلا فما الفائدة منه !؟.

جلست على عتبة عمـــارة ضخمة ، تنهض في شارع منزو ، واستندت الى الجدار مرهقاً .

بعد قليل حركت قدمي نحو المستشفى.

٤

كانت واحة نائمة ، وأبوها يجلس بجانبها شاحباً بالغ الحزن . وأوحى إليَّ الجوّ فور دخولي، بأن شيئاً ما قد حدث ، فتطلّعت الى رجل الدين الوقور، وسلّمت عليه . سألته عما حدث بكلمات يبطنها الخوف ، فأجاب بخفوت :

– لقد بصقت دماً من جديد . . وليس في المستشفى دمٌ كافٍ لتعطى منه .

ثم حوّل رأسه اليها وغمرها بتطليعة نصف باكية .

جلست بجانبه صامتاً مقلوب الوجه ، ورحت أتأملها مسجّاة على السرير ، مغطاة حتى العينين ، وقد تناثر شعرها الأشقر على الوسادة ، وراحت تتنفّس ببطء وسكون . كان

جوّ الغرفة يحتشد بصمت مؤلم الإيحاء ، والراعي بجانبي يتأمّل ابنته بنظرات مغلوبة ، ووجه ممطوط زحمه الحزن .

تلفتُ حولي ، وعجبت أن الممرضة لم تأت ! سألت الراعي عنها ، فأجاب أنهـــا ذهبت مع الطبيب . وعدت الى صمتي ، فمكثت قليلا ، موزّع الخاطر ، ثم نهضت ففتحت البـــاب ، وأطللت منه . لم أجد أحداً . والتفتُّ للراعي فرأيته يحملق بي .

تركت الباب ، وسرت في رواق المستشفى على غير هدى . لم يكن ثمة أحد ، ولكني سمعت بعد هنيهة وتوتة تنبعث من انعطاف الرواق ، فاتجهت اليها .

كانت هناك لائحة صغيرة كتب عليها « المخبر » معلّقة قرب باب مفتوح . نظرت منه فرأيت الطبيب والممرضة ينحنيان فوق مجهر أسود . واستـــأذنت بالدخول ، فالتفت الى الطبيب ، ثم ابتسم ، ودعاني اليه .

دخلت بخشية وصمت ، ووقفت الى جانبهما أتأمل دون أن أفهم شيئاً . وبعد قليل هزّ الطبيب رأسه وقوّس شفته السفلى الى الأعلى ، ثم أخرج زفرة طويلة .

شعرت بقلبي ينعصر ، ولا أدري لماذا خيّـــل لي أنه يعني واحة . ولما خرجا من المخبر تبعتهما حتى دخلا غرفتها . وهناك لقيت فائز . كان يجلس بجانب الراعي ، ويتحدّث اليه بوقار .

أعلن الطبيب أن مزيداً من الدم ضروري لها ، وأنه ينبغي أن تسعف به أسرع ما يمكن . وكان طبيعياً أن نتقدم نحن

الثلاثة بعرض دمنا .

أشار إليّ الطبيب بعينيه أن لا ، فاستغربت وحركت رأسي مستفهماً . أشار الى الراعي ، وكان قد عاد للحديث مع فائز . وعدت أنظر للطبيب فهز إصبعه يقطع بالرفض .

اقتربت منه وهمست ، أن قضية واحة أهمّ من قضية مسلم يعطي دماً لفتاة مسيحية، فرفض أن يقبل . وهممت أن أصرخ ، ففتح عينيه محذّراً ، وخرج من الغرفة .

لحقت به متحرقاً ، وفتحت فمي لأسأله من جديد فمضى الى المخبر يقطع عليّ فرصة الكلام . ولما سرت اليه ، وطرقت الباب ، لم أسمع رداً .

عدت الى غرفة واحة شديد الحيرة مبلبل الفكر ، وكانت قد أفاقت ، فتهالكت على طرف السرير ، وعصرت جبهتي . إن أباها يرفض أن يختلط دمي بدمها !! والتفتت اليّ تستفسر عن سبب قلقي ، فقلت لها إني متعب ، وليس ثمة قلق . وعادت تسألني متى ستخرج من المستشفى ، فطمأنتها الى أنها ستخرج سريعاً ، وأنها ستذهب الى الريف .

– اذهبي الى ضيعتنا ، واسكني بيتنا هناك ، فليس فيه أحد . ستتسلين مع ثلاثين زوجاً حماماً ، وتتمتّعين بالغابة ، والنهر ، والمنحدرات الحشيشية .

ابتسمت واحة بحبور ، وأغمضت عينيها . كان فائز لا يزال يتكلم مع الراعي ، فتأملته بدون اكتراث ، وكأنه تحوّل الى

أراجوز. نهض الراعي وتوجّه الى الباب، فأسرع فائز يفتحه له، ثم يغلقه ويعود فينظر الى واحة متفحصاً .

– نامت !؟

التفت اليها وأحنيت رأسي .

– اي بشر .. حدّثني .

فنظرت اليه بنصف اهتمام : لقد أدركت أنه سيقول شيئاً .

– ألا تزال تريد .. لقد رأيتها أمس في « الكاندلز » .

تثاءبت ، ثم تطلعت الى فائز بكسل واجم ، أنتظره أن يتابع كلامه .

– كانت مع رجل في حوالي الأربعين ، أشيب قليلاً ، ذي حواجب شعرها قليل لكنها سوداء وبارزة ، هكذا ، جهمة . ولقد رأتني ، فلم يبد عليها أبداً أنها تعرفني .. كانت تشرب بيرة في زاوية الخشر فيها ضوء أزرق ، علقت بذراته نفخات الدخان من سجايرهما .

نهضت عن الكرسي وخرجت ، ثم اتجهت الى المخبر فرأيت فيه من بعيد الراعي والطبيب والممرضة . اقتربت فخرج الراعي ومرّ بقربي مطرقاً . وتابعت سيري فتواصل الى أذني صوت الطبيب يقرّر بهدوء :

– ... مليون ونصف فقط .

وعجبت من الرقم ، ثم دخـــل في اعتقادي أنه يتكلّم في ميزانية المشافي او كلية الطب .

وقفت عند البـــاب حتى التفت اليّ الطبيب . وإذ لمح في

عيني نفس السؤال أطرق يعمل فوق المنضدة ، ولم يعرني انتباهاً .

كنت أشعر بضيق شديد ، فتركت المستشفى دون أن أرى واحة ، وعدت الى الجامعة . وهناك ضيّعت ما يقرب من ساعة ، ثم تغدّيت في المطعم ، وصعدت الى المنتدى حيث استرخيت على كنبة جلدية زمناً ، ثم رحت أغطّ في نوم متعب عميق .

٥

استيقظت قبيل الغروب . كانت شمس أيام آذار الأخيرة ترسل أشعّتها دافئة شقراء وادعة ، والأفق يستلقي وراء الجبال في إيحاء سادر مكتوم ، وعلى المدى تترامى أشجار الغوطة الغربية ، وتتمايل نصف مكسوّة بالورق ، كأنها راقصات باليه يتلوّين في بحر من الضوء والسكون .

وانبعث من قلب الحديقة الداخلية للجامعة ، صوت مؤذّنها يصيح « الله أكبر .. الله أكبر » تذكّرت سحـــاب وواحة وأمي وثريا وطفلي الذي لن يكون ، ثم نزلت الدرج بخطى وئيدة ساجية ، معتزماً أن أتوجّه الى الجريدة .

ولكن ها هي ذي سحاب تقبل مسرعة حافلة : إنها الثورة

نفسها التي دفعتها لطرح وليدتها على رصيف حديقة ما في قلب دمشق المهترىء .

ابتسمت بتعاطف حزين ، وتوجّهت اليها فابتسمت هي الأخرى وقالت « مرحبا » . وتقلّصت ابتساماتنا من الشفاه ، لتستقرّا في العيون . كان جفناي نصف مطبقين ، أما جفناها فقد غابا تحت أثقال الكحل ، ليظهرا في استطالة مفتولة قرب الزاوية الخارجية لعينيها . تأبّطت بعضي وتمتمت :

– أعتقد أن لا فائدة من الكلام .

فردّت بابتسامة تحمل وعداً :

– تعال نسير .

وسرنا معاً ، فخرجنا من الجامعة ، واتّجهنا الى النهر ، ولم يكن ثمة ما يسمع سوى دقات خطواتها على الأرض . كانت تتدلّى من يدها اليمنى محفظة طحينية ، وتتعلّق ببنصر اليد نفسها حلقة ذهبية .

وصلنا جسر الحرية فابتسمت وأشارت :

– ها هنا قلت لي إنك تحبّني .

وامتدّت ابتسامتها ثم تحولت إليّ وسألت :

– أما زلت تحبّني ؟

فهززت رأسي هزات قصيرة هادئة .

انسدل الجفنان الغائبان ، وتابعنا المسير . كان الشارع مزدحماً فتأبّطت يدي حتى اجتزناه ، ثم مشينا على الرصيف الثاني .

ـ لست أدري.. أحسّه في دمي .. لقد تأكدت أنه لا يمكن الاكتفاء برجل ..

قاطعتها بحركة من يدي :

ـ كفى ، إني أرى كل شيء .. هناك فرق وحيـــد بينك سابقاً وبينك لاحقاً ، إنك لم تعودي تهتمّين بأن ينهشك الناس.. ابن خالتك (موفق) « يعبدك » أليس كذلك ؟ وهو الخطيب الجديد ؟

كانت تهز رأسها بلا مبالاة ، وتنتظر بتحفّز انتهاء كلامي . ولما صادفتها الفرصة قالت بدعة ساخرة :

ـ لقد سعدت أن ألتقي برجل مثلك يعيش حياته كما يريد ، يتزوّجني ونغمر المجتمع بطوفان من خروجنا عليه، نجعله صفراً. لكنني لم أستطع أن أقاوم طبيعتي . حاولت جاهدة أن أقتصر عليك .. لكنني كلما التقيت بشخص ، يشعرني بأنـه رجل ، كان يقيّدني . صحيح أنه كان يتعذّب حتى يصل اليّ ، وقد كنت ألتذّ بتعذيبه ، لكنه كان يصل .. كان يصل مثل الوحش، في تلك اللحظات كنت أعبده.. كان يشعرني بضآلتي وانسحاقي..

وصمتت سحاب لحظات ثم أضافت :

ـ أما أنت فكنت أشعر بصحبتك أني من الملائكة . ولا تحسب أنني لا أتوق لهذا النوع من الشعور ـ الشعور الذي أكون فيه عالية ، بعيدة عن قعور المجتمع .. عن لحم الإنسان ودمه ـ وبالرغم من أني لم أتعـذّب بسبب هذين الشعورين المختلفين ـ إذ

كنت أتقلّب بينها دون تفكير – فقد تمنّيت يوماً أن تغازلني ..
أجل تمنّيت كثيراً .. وشد ما امتلكني هذا الحنين ، او الرغبة
الهائلة في أن أشعر بشبق روحي لا يقاوم .

وطعجت سحاب شفتيها ، ثم رفعت أصابعهـــا في حيرة
لا مبالية ، واستأنفت :

– سأتزوّج قريبي .. ابن خالتي طبعاً ، وهو مأفون أحمق ،
يمكن إرضاؤه ببضع ساعات على السرير . وبعد ذلك أتصرّف
كما أشاء . لا تظن اني عاهرة ، فليس ممكناً لأيّ حيوان أن
ينالني . هيم .. هناك نوع من الرجال يشعرون المرأة بوجودها ،
ويظلّون على ذلك حين يلاحقونها باستمرار ، حتى يفترسوها ..
هؤلاء أحبّهم .

والتفتت اليّ باسمة ثم قالت :

– اذا أردت أن تصبح عشيقي، فاتصل بي بعد شهر العسل .
سأستسلم لك كما تريد ، فأنت الوحيد الذي كان معي شريفاً ،
رجلاً ، وإنساناً ، في الوقت نفسه ... ويضايقني أنك اشتغلت
بجدّ لتتزوّجني ، ثم رأيت أن هذا الزواج عبث ، وأني لن
أستطيع أن أكون لك كما تريدني.. هي ، قل لي ، أما زلت تحبّني ؟

وابتسمت . كانت ما تزال تتأبّط يدي .

– تعالي .

وصعدنا الدرج الى غرفتي .

فتحت لها الباب ، واتجهت مبادرة الى الكنبة ، وجلست

عليها ، وأخذت تتأمّل طاولتي والكتب المبعثرة ، وتبتسم .

– انتظري قليلاً .

أغلقت الباب وخرجت الى الحانة . ومن هناك ابتعت لتراً عرقاً ، وزجاجة ويسكي ، وأخرى كونياك ، وعدت بنصف كيلو لحماً مشوياً .

وفي الغرفة رفعت ما بيدي الى الأعلى لاستعرضه أمامها . ثم وضعته على المنضدة بعد أن أزحت الكتب فرميتها في الخزانة . كانت تبتسم .

– لم أذق العرق في حياتي ..

أتيت بكأسين وملأتهما نصفاً عرقاً ، والنصف الثاني من الزجاجتين . ودرت وراء الكنبة فاستندت بظهري اليهما وشددت ، فانزاحت نحو الطاولة ، فيما كانت سحاب تقهقه ملء صدرها .

– والآن انغمسي .

امتدّت يدها الى الكأس فجرعته دفعة واحدة ، ثم كزّت على أسنانها ، وكشّرت ، وعصرت عينيها برهة ، فنظرت الي جاذلة الحيّا مراحة الجفون .

– يطيب لي أن أنسى الدنيا بزجاجة وبعض اللحم .. أريد أن أشرب الحياة ، أعبّ الحياة ، أمتصّها ،وأنسفح على أعصابها ، وأنغمر في أعماق لذائذها ووجودهـــا .. هؤلاء الذين تقيّدهم المبادىء شدّما يثيرون قرفي . كيف يستطيع البشر أن يكونوا

عبيداً طيلة هذه المدة ، وبهذا المستوى الحقير من الكرامة ! أنا أعرف أني لست نبيلة ، ولكني أحب أن أكون كذلك ، ولست مجيدة .. ولا يهمّني أن أكون مجيدة ونبيلة أم لا ..

جرعت سحاب بعض كأسها الثانية ، وتناولت لقمة لحم فمضغتها بتلذّذ وتابعت :

ـ لقد انتشيت ، ولكن لا تحسب أنني سكرت .. أنا لا أسكر ، لأنني سكرانة دائماً .. سكرانة لأني أشعر دائماً أن كل ما جاء به البشر حتى الآن ، ليس إلا تفاهة مغرقة في الضحالة . لقد قضى المفكرون أجيال الزمن الغابر وهم يحاولون أن يقيّضوا البشر بلعنات سمّوها أخلاقاً . ولكن أحداً منهم لم يحاول أن يفهم أن البشر دوافع ، وكتل عاطفية تقيّدت جسداً ، ولا ترغب في ان تتقيّد روحاً ، لا تريد هــــذه السجون الحمقاء أن تكبّلها ... ما الذي تفيده الأخلاق اذا كانت وظيفتها الحدّ دائماً ؟!. لقد وُجد الإنسان على الأرض ، ووجدت معه نزعـاته وطبائعه .. ولكن الله منذ بدء الخليقة يشترك مع الفلاسفة في إيجـاد كل ممكن ليكبتوا به هذه النزعات وهذه الطبائع .. هأه .. عفواً .. إنهم لا يأتون بحلول .. ونحن نريد أن نودع هذه العاطفة قلب الكون ، ونتعتق من تقوقعنا .. لقد انحرفت أنا بالطبع ، انحرفت جداً ، ولكن .. هأه .. عفواً املأ لي الكأس ، فما أبعد أن ارتوي ، كما يقول الشاعر ، بعد ما أظمأتني الحياة .

ملأت لها كأساً أخرى ، ولنفسي ثانية ، فجرعتها كلهـــا وتابعت :

ـ انظر الينا أيها الله ، إننا نموت جوعاً.. أنت محبّ ولست قاضياً . إن حياتي مضيعة بين أشداق الزمن المرهق ، والمسافات المتقعّرة . وهذه الأيام التي تمضي ، فيزداد تثاقلها بالألم والتعب واللايطاق ، أراها تجرجر أثقالها على حسابي .. إني أعيشهـــا بأعصابي ودمع عـــاطفتي ، وشجن أفكاري ، والبقية من طاقتي ..

ونهضت متمايلة فائرة ، وراحت ترقص في الغرفة ، وكأسها الفارغة بين أصابعها . وسريعاً ما أخذت تدور وتدور ، وتنتقل من زاوية لزاوية ، وتضحك ، وترفع بيدها الكأس ، وتبـــكي وتبتسم وكأنها استحالت الى إلهة ترمح فوق بحار نشوة لا يمكن أن توصف . ورحت أرقبها باسماً ، جـــارعاً من كأسي مرة ومحركاً أصابعي فوق الطاولة مرة أخرى .

وتوقّفت فجأة ، ثم فتحت ذراعيها وأشارت لي :

ـ أريد أن أرقص الدبكة ، فلم أرقصها في حياتي . ولكن اطرح هذه الساعة من يدك اولاً ، فقد دقت ثوانيها عنقي .. إنني لا أحمل ساعة كما ترى .

نهضتُ فأمسكت بيمناها ، ووقفنا استعداداً ، وتبادلنا النظر فابتسمنا ، ثم أطلقنا ضحكة عالية .

ـ ابدأي الحركة باليمين هكذا ، فالشمال ، هه ، عاليمين ،

فالشمال ، ارجعي الشمال بخفة ، ارجعي اليمين بقوة ، حرّكي اليمين ، الشمال ، هذه هي الدبكة .. يالله .

أخذنا نرقص ببطء اولاً ، ولمـــا أتقنت سحـــاب الحركة ، أسرعنا نطوف زوايا الغرفة كلها .

– ما اسم هذه الدبكة ؟

– الجبلية .

شعرت بدمي يفور ، وتفصّد العرق مني بسرعة . وشبكت أصابع سحاب بأصابعي والتحم ساعدانا واستغرقنا الرقص هوناً وسرعـــة .

– انتبهي ، فكتفانا يتدافران .

– لماذا تبعدهما ؟.. اتركهما يلتصقان .

وتابعنا الرقص . وبـــدأت أغـني « دلعونا » فأخـــذت تشاركني الغناء .

– قرفصي هكذا ... نطّي .

وحاولت أن تفعل فضحكت ، واختلّ توازنهـــا ، لففت ساعدي بذراعها بقوة فعادت ترقص فترة من الزمن لا أقدرها .

– لقد تعبت .. أف .. لذيذة .. هذا سريرك ؟.

سحبت منديلي فجففت عرقي : أجل .

– هل أرمي ثيابي ؟.

تقدّمت نحوها بابتسام وأخذت جيدها بين أصابعي ، وعلى وجهها الخريفي الضاحك رحت أسكب فوارة شعوري التي

كنت أحسّ بها لدرجة الاختناق . كانت مداركي تتصبّى هـذا الوجه الذي أحببته ، بسعادة راكدة ، لعلّها لم تكن غير كآبة عميقة مغطاة بطبقة من عدم الاكتراث العميق . كنت أشعر أني أحتضن حقاً من جمال الأبد .

– كلا ..

فارتفع حاجباها ببطء فأنزلتهما، ثم رفعتهما بسرعة وقالت :

– كما تريد .. هل أذهب ؟

– أجل .

– والآن الى اللقاء ... وداعاً ربما .. عد الى واحـــة فهي تحبّك ؛ لقد قالت لي ذلك مرة .

٦

كان المساء قد نثر ضوءه الأسود على الوجود حين عدت الى المستشفى . ودلفت الى غرفة واحة .. ثم وقفت جامداً .

وبدا كل شيء لي مقلوباً : الممرّضة في حركة عصبية والراعي يقف أمام ابنته فيحجبها عني ، وكتل من الدم تتناثر في أرض الغرفة . هرعت الى واحة ، فوقفت بجانبها مذعوراً . كانت أصابعها تعتصر المخدّة بقوة وبطء ، وعظام وجهها تبرز بانفعال، لكنها كانت ساكنة . وعلى السرير استلقت بصقة سوداء جامدة، وتناثر شعرها الأشقر وراءها .

نظرت الى رجل الدين الواقف بجانبي ، ثم الى واحة ، وهزّني أني لا أستطيع أن أفعل شيئاً . عدت أحلق بها طويلاً ،

وشعرت بعد لحظات أني انقطعت عن العالم الخارجي . لقد كان كل شيء يوحي بالموت .

تحرّكت واحة قليلاً فتيقّظت حواسّي . وفتحت عينيها ببطء ، وتأمّلتني بنظرة طويلة مطفأة ، خيل إليّ أنها تبتسم . ثم رأيت أصابعها تتراخى عن الوسادة ، وجفنيها ينسدلان ببطء كثير ، ثم انفصلت عنا . كان شيء يموت بسكون وبجبور عميق . وكانْ الراعي يبكي .

انتهت الممرضة من مسح الدم ، وأقبلت تبكي هي الأخرى ، وتسوّي من وضع السرير .

- ماتت .

التفتّ الى واحة متجهّم الوجه عابساً ، ورأيت أطياف راحة غامضة تسرح على وجهها النقي ، بينما لا تزال أصابعها تمسك بالوسادة .

تركت الغرفة بثورة مكتومة وبحثت عن الطبيب . وفي دقائق وجدته في غرفة الأطباء جالساً بسكون وراء المنضدة .

- أتريد أن تفهمني أنها ماتت لأنه لا يوجد ما يكفي من الدم ؟.

فهز رأسه ببطء وشرود : - كلا .. كنت أعلم أنه ليس هناك فائدة ..

نظرت اليه مقطباً وسألته :

- كنت تعلم .. أنها .. ستموت !؟

وهز رأسه ثانية ولم يجب . وبعد قليل رفع يده وقال :

ــ هذه ثاني حالة تمر عليّ في حياتي .

وبدا لي أن الطبيب يدجّل ويخدعني ، فانتفضت بوجهه وقلت :

ــ لقد كنت أبصق مثلها دماً .. فلماذا لم أمت ؟. لقد قتلتموها ، كان يمكن إيقاف السعال ، وإعطاؤها الدم فلماذا لم تفعل ؟.. هل خدّرك أبوها بحماقته ؟

وقاطعني الطبيب بهدوء حزين فقال :

ــ إنه الكبد وليس الرئة .. الكبد ..

وبدا أنه يلفظ الكلمة الأخيرة لنفسه فقط .

ــ إنها فتاة تستحقّ العبادة .. ولا ألومك اذا ثرت لموتها .

أغلقت باب غرفته بعنف وسرت الى غرفة واحة . وعند الباب التقيت بالممرضة خارجة ، فاستوقفتني :

ــ أين هي التلّة الشرقية ؟.. لقد أوصتنا أن ندفنها في التلّة الشرقية .

تركت الممرضة بلا جواب ودخلت الغرفة . كان وجه واحة يختفي تحت غطاء أبيض .

٧

عندما تبهت الأيام ، وتنطفيء في عين النهار ابتسامة حاولت كثيراً أن أغذّيها بدمي ، يتعالى صوت مؤذّن من هنا ، او صفير قطار من هناك ، وتتوالد حول الأحداق ابتسامة أخرى عابثة الشعور ، تذكّر أن الانتهاء قد اقترن بكل شيء . منذ أسبوع مضى آذار ، فصل الأحلام المصحوبة بالمطر ، وقد كان هذا العام مصحوباً بالصقيع .

وها أنذا أتأمل من مرتفع قاسيون الأخير ، الغوطة والأبنية المتناثرة فيها كأوشال العين .

— الساعة كم من فضلك ؟.

كان سائلي ذا شاربين منظمين بعناية فائقة ، ومرتدياً بذلة

عكرة ووجهاً صفيقاً .

– الثانية عشرة تماماً .. لا ، عفواً .. أعتقد أن ساعتي واقفة ، فمنذ دقائق أعلنت ساعة الراديو الثانية عشرة .

– متشكر سيدي .

نزلت عن المرتفع الى موقف الترام ، وانتظرت حتى أقبل يهجم فوق قضيبيه أشبه بالوحش . صعدت اليه بهدوء وجلست . الساعة واقفة .. رحت أتأمل قنّة الجبل . أقبل « شيخ » خفيف الذقن أبيض العمامة رماديّ الوجه فجلس مقابلي .

لم يكن ثمة ما يلفت الانتباه في ذلك المكان النائي سوى أن الشيخ كان يدير ظهره للسائق ، والتكسيات تمر بسرعة مجنونة ، والباصات تنخر محركاتها بهدوء ، والى جانبها يسعل زمور عربة مازوت .

وانحدر الترام يسير نفس الطريق الذي ساره .

ها هوذا مبنى رئاسة الجمهورية السابق ، ويقابله على الجانب الأيسر المدرجات الحجرية التي تنحدر من سفح قاسيون . صعدت بعض السيدات سوداوات من رؤوسهن حتى أخامص أقدامهن ، فملأن جناح النساء في الترام وأخذن يتأملن العالم من وراء الغطاء بعيون مستديرة .

أقبل الكمساري اليّ فدفعت له ثمن تذكرة ، والتفتّ الى الشيخ ، ثم تحوّل الى باقي الركاب ، وانتقل الى النسوة السوداوات صعدت سيّدة خلابة المنظر ، ذات ثياب كحلية

ضيقة وأجفـــان ملتوية ووجه ملطّخ بالحمرة ، فرمت المكان بتطليعة فاترة ، ثم جلست بجانب الشيخ . رحت أتأمل تفاصيل أعضائها بتلذذ كليّ ، ثم حوّلت نظري الى الشارع ، كان ثمة حمار بلا رسن يسير فيه على غير هدى .

– تيت .. تيت . وانحدر الترام .

الحوانيت شديدة الالتصاق والمجاورة ، لكن كلاً منهـــا يبيع شيئاً مختلفاً . ها هي ذي صيدلية تزدحم بالأدوية والناس . ها هنا مكتبة علقت على أطراف بابهـــا روايات الجيب وسلسلة طرزان .

التفت الى الشيخ فرأيته يتمتم . لا بد أنه يقرأ أورادا .

صعد ركاب ونزل ركاب آخرون .

– تيت .. تيت . الترام ينحدر .

كان رجل يركض نحو الحافلة بسرعة فائقة ، ويشير بيده . ثم وقف يتأمله بحسرة غاضبة .

أبنية حديثة طحينية اللون ، ذات نوافذ خضراء بلون الخوة ، وحمراء بلون الارجوان ، تستلقي تحت المنحدر ، وتتخامل بين أشعة الشمس الغبارية الوارفة .

السيدة الكحلية الثياب والجفون ، الجالسة بجانب الشيخ ، أخذت تتأملني باستغراب . مسحت ذقني بيدي ففطنت الى أن شعرها بطول الحراشف . نظرت للأبنية من جديد ، واعتدلت في جلستي . كان لا بد من أن ألاحظ أن لجيوب بنطالي وأسفل

ساقيه حراشف من نوع آخر .

صعد ركاب ونزل آخرون .

– تيت .. تيت . الترام ينحدر .

أمامنا حسان يعبرن الشارع دون أن يراعين أن ثمة حافلة قد تصطدم بهن . ولكن يبدو أنهن واثقات أن الترام سيقف – إكراماً لهن – في اللحظة المناسبة .

بيوت من صلصال من طابقين ترابيين ، أخذت تزداد أمام النظر فتغطّي الأبنية الطحينية . إنها حافلة بالأزقّة الضيّقة التي تتوارى منها رائحة البشرية ، سوى أن شبّاكاً مفتوحاً فوق زقاق مقفر برز منه رأس رجل ذي غلاصم متهدلة ، وحاول أن يبتسم لرأس آخر غطّى شعره الطويل وشاح أبيض والتصق بجفاف النافذة بخوف وتحفز وبشاشة .

صعد ركاب ونزل آخرون .

– تيت .. تيت . الترام ينحدر .

المشترون بتقطّع لا نهائي يأتون الى الحوانيت والمخازن المرتصّة : متجر مداقيء ، صالون لمسح الأحذية وقف فيه رجل وسخ الوجه ، مسمكة غفّ عندها الذباب وبعض المشترين من رجال وسيدات ، حانوت نوفوتيه ذو باب ضيق لا أستطيع أن أرى ما بداخله .

الشيخ والسيدة الكحلية الثياب والجفون ما زالا يجلسان أمامي ، ويديران ظهريهما للسائق .

أقبل الكمساري يقطع تذاكر للركاب الجــدد ويضرب راحات أيديهم بها .

ها هنا مخزن لبيع الأزهار ، أزهار بيضاء وصفراء وحمراء ، برائحة ذكية وبلا رائحة . والى جانبه مباشرة فغر باب فمه ، لينفتح على مراحيض نتنة فاحت رائحتها حتى وصلت خطّي الترام . تأملت السيدة الكحلية فجأة بوقاحة . فطرفت عيناها نحو الشيخ . وانتبه هو الى ذلك فرفع بؤبؤيه الى الخارج حيث استقرّتا على مأذنة .

نساء بكامل أناقتهن يتخيزلن على الرصيف ، وقد التوت بسببهن رقاب من مختلف الأحجام .

مبنى البرلمان السابق . مكتبة صائغ . نادي الضباط . سينما الزهراء . سينما أمير . ملهى السميراميس .

نزل ركاب ولم يصعد أحد .

– تيت .. تيت . الترام ينحدر .

الساحة فسيحة ، لكن خطّي الترام يشطرانها ، والإعلانات على مربعات خشبية مرفوعة للأعلى تحيطها .

الى الشمال عمارتان رائعتان ، والى اليمين عمارات كهلة .

جسر فكتوريا .

– تيت .. تيت . لقد وصل الترام الى النهر . ونزل الشيخ والمرأة الكحلية .

نزلت وصعد آخرون . كان النهر موحلاً عكراً يسحب

معه ثقلا أخضر يوحي بالتقزّز .

سرت بخطى ثقيلة مطمئنة الى دائرة البريد ، ودفعت في الشباك بمغلّف أصفر كبير الى آنسة وقفت في الجـانب الثاني . وسرعان ما نظرت اليّ بدهشة ثم قالت :

– ولكن الكلية العسكرية لم تعلن بعد عن بـــدء دورة هذا العام .

– لابأس .. إنه لم يبق ثمة مجال للانتظار .

مؤلفات الدكتور هاني الراهب

المهزومون (طبعة جديدة)

ألف ليلة وليلة.. وليلتان (طبعة جديدة)

الوباء (طبعة جديدة)

التلال

منتديات كفر نبل العامة

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص. ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

تصميم الغلاف:
نيكول برسودر